

الحب والزمن



الطبعة الأولى
١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

اسم الكتاب	: الحب والزمن
اسم المؤلف	: سعيد سالم
الغلاف	: عبد الرحمن حافظ
التصحيح اللغوي	: خالد رجب عواد
الطبعة	: الأولى
رقم الإيداع	: ٢٠١٧ / ٢٥٢٣٠
التقييم الدولي	: ١ - ١٣١ - ٧٨٦ - ٩٧٧ - ٩٧٨

٨ عمارات الواحة - قطعة ١٠ - مدينة نصر - القاهرة

ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

ghorabpublishing@hotmail.com

الحب والزمن

سعيد سالم

دار النشر والتوزيع

أثار قرارى المفاجئ بشراء المقهى فى أرجاء حىاتى العائلىة
والاجتماعىة زوابع عاصفة بىن الاستنكار والدهشة والإعجاب
والرفض والغضب والقبول المتحفظ..

- مهندس محترم مثلك يقبل على نفسه أن ىتحول إلى
معلم..فهو جى؟!!

- كىف تواجه الأهل والجىران والأصدقاء والأصهار بهذا الوضع
المزرى؟

- والله رجل جدع..جابهها من الآخر وأراح دماغه.

- هذا أشرف من مجالس النىمة مع أرباب المعاشات.

- هل أنفقَ علىك أهلك وربوك وعلموك لىكون هذا مصىرك؟

- المقاهى مكسبها هائل ومضمون. كل رأسها الماء وبعض
الكراسى وكم باكو شاي وقهوة.

- أنت عار على المتعلمىن والمثقفىن من أمثالك.

كانت لديّ ردودٌ جاهزة على كل هذه التساؤلات والتعقيبات.
لكنني لم أعلق ولم أعقب، لأنني كنتُ راضيًا عن قراري كل الرضا، فلم
أشأ لمخلوق مهما يبلغ شأنه عندي أن يُراجعني أو يُثني عليّ عن عزمي.
أصبح هذا الشأن عندي أمرًا مصيريًا بين يوم وليلة.

احتلّ المقهى مركز دائرة اهتماماتي الحياتية الموزعة بين البيت والبار
والشاطئ والمسجد. وجدته أنسب مكان أمارس فيه متعتي الأزلية في
القراءة بتركيز شديد يزداد بازدياد صخب الناس وضجيجهم. أورثني
أبي تلك المتعة وزرعها في عقلي ووجداني ثم زهد فيها وعاش في عزلةٍ
صامتةٍ عن الحياة.

يقع مقهى الشعب في حي سيدي جابر علي بعد قليل من الشاطئ،
في منتصف المسافة بين المسجد الشهير وأحد البارات الصغيرة
المرخصة. اشتريته بعد إحالتي الي التقاعد بأشهر قليلة. باعه صاحبه لي
- حسب قوله - برخص التراب في ظروف قاسية ألّمت به وأحوجته إلى
المال والسفر. كانت قيمة هذا التراب الرخيص تعادل على وجه
التقريب إجمالي ما تقاضيته من مكافآت نهاية الخدمة والتأمينات
الاجتماعية وصندوق الزمالة وصندوق تكافل نقابة المهندسين، ومقابل
الإجازات المتأخرة الذي يساوي أجر ثلاثة أشهر، فضلًا عن كل ما
استطعت ادخاره خلال حياتي الوظيفية بأكملها.

لم يكن للمقهى عنوان من قبل. أسميته مقهى الشعب مكتفيًا
بذلك بعد طول ترددٍ، إذ كانت تراوطني فكرة أن أضيف إلى العنوان
عبارة: "لصاحبه الحاج مراد عامر".

أصبحتُ جازًا لسباك يقول لي في الصباح:

- نهاره قشطة يا حاج.

ونجار موبيليا يُودّعني في المساء وهو يغلق دكانه:

- تصبح على خير يا معلم.

أستشعرُ متعة خبيثة لذينة ترضيني وتسعدني حين أستمعُ إلى مثل هذه الكلمات الخالية من التكلّف.. أخيرًا جاء اليوم الذي أتحرّر فيه من ملالة الواقع الذي ظلّ يُعذّبني ويقتلني ببطء كل يوم حتى بلغت الستين. الوجوه نفسها في كل مكان. كما الحمار أسير المسافة نفسها مارةً بالأماكن نفسها التي حفظتُ تفاصيلها الدقيقة عن ظهر قلب. الوجوه نفسها في المصنع والماكينات نفسها بضجيجها المزعج الذي أتلّف أعصابي. الوجوه نفسها على صفحات الجرائد القومية تذكرني دومًا بالجمود والكذب والفشل. حياة بلا حيوية تخلو من اللون والطعم والرائحة، كلها تكرر في تكرار، دينها الملل وعبادتها السأم.

ودّعت المهندس مراد عامر، موظف القطاع العام المطيع المنضبط الذي يتحاشى بكل السبل غضب رؤسائه، ويتنظر كل عام في صبر الإبل علاوته الدورية، وكل عدة أعوام علاوة الترقية إلى الوظيفة الأعلى. ودعته وداعًا نهائيًا إلى غير رجعة وكسرت وراءه (قُلَّة). كانت فرحتي بالتخلص منه لا يُعادِلُها في الوجود فرحة.

هأنا أتجراً على حياتي الرخوة لأول مرة فأرتكب مغامرة مثيرة
لأصبح المعلم مراد، منذ لحظة جلوسي إلى منصة المقهى. لا هندسة
اليوم ولا مشروعات سبق أن عاشت في أحلامي عمراً طويلاً، فقد
وضعتُ لنفسي حداً نهائياً فاصلاً بين حياتين، بدأت الثانية بانتهاء
الأولى.

كلما جاء محيي عبد الحميد لزيارتي بالمقهى فإنه لا يستطيع أن يكفَّ
عن الضحك، لأنه غير قادر على أن يصدق ما يراه ويلمسه أمامه من
واقع حقيقي بدّد آماله في حلمنا القديم.

اليوم تتغير الوجوه وتتجدد في كل لحظة. أصوات زهر النرد
وقرقة الشيش وحوارات الزبائن وشجارات الأدباء تُشعّرنني بنشوة لم
أعرفها من قبل. لعلها الحرية تهفّف على حياتي بنسائها العطرة من بعد
عمرٍ قضيتُه ماشياً في صمت بجوار الحائط، مُقيّداً إليه بسلسلة من
فولاذ، لا ملاذ لي من شرّ الناس وخيرهم سوى الكتب والجرائد
والمجلات. غير أنني منذ اشتريتُ المقهى امتنعتُ عن شراء جرائد
الحكومة ولم أعد أقرأ إلا جرائد المعارضة والجرائد المستقلة.

خصّصتُ بالمقهى ركناً معيناً لتجمع الأدباء، اعتادوا اللجوء إليه
بعد خروجهم من قصر ثقافة سيدي جابر لقربه منه، ولكون أسعاره في
متناول جيوبهم التي تشكو دائماً الإفلاس، في تناسب عكسي مع ارتفاع
أصواتهم. أقدمُ لهم المشروبات بنفسني بسعر منخفض أخصّهم به، فأنا
أحبُّ هؤلاء المجانين، وأشعر بانتهاء قوي إلى عالمهم الذي أرى فيه

سِحْرًا حلالًا. كثيرًا ما أجلس بينهم لأشاركهم النقاش في موضوعاتهم الخلافية التي لا بد أن تنتهي في كل مرة بمشادة تتفاوت حدّتها من حين إلى آخر.

أنا لا أتبع طريقة استخدام "الماركات" للحساب مع النادل، لأنها ستربطني بمقعدي أمام الخزّانة، وإنما أتبع طريقة أخرى يتسلم فيها عددًا معينًا من أكياس الشاي والسكر متفقًا على أنها تعادل عدة أكواب محددة من المشروب، والحال نفسها مع البن والمشروبات الأخرى، وفي نهاية الوردية تتم المحاسبة مرة واحدة. صحيح أن هذا الأسلوب قد يعطي الفرصة للنادل أن يغالطني في بعض الأحيان بشكل أو بآخر، ولكنني راضٍ كل الرضا عن هذه الطريقة على عيوبها، فالدنيا لن تهتزّ لها شعرة لو نقص مالي أو زاد مال النادل بضعة جنيهات قليلة.. المهم أن أحظى بحريتي في التنقل بين المقهى والبيت والبار والشاطئ والمسجد.. أما الهندسة فعليها السلام ورحمة الله وبركاته، أو عليها اللعنة! المهم أن تحل عن سماواتي.

الكتاب الذي أقرؤه الآن عليكم أيها الأخوات والإخوة، هو مذكرات شرعت في كتابتها منذ حوالي أربعين عامًا بدأت بنكسة ١٩٦٧ وانتهت بحادث المنصة عام ١٩٨١ وعنوانها آنذاك بالشرح. كنت أيامها أحاول أن أشبع حاجة مُلحّة في نفسي بأن أكتب ما يحدث من حولي لمجرد الكتابة، فأتنفس بعمق وأشعر براحة من يتخلص من حمل

ثَقِيلٌ عَلَى كَتْفَيْهِ. كَانَتْ هَذِهِ الْكِتَابَةُ بِالنِّسْبَةِ لِي تُعَدُّ الْعِلَاجَ الطَّبِيعِي
لِمَرِيضٍ عَصَابِي دَائِمِ الْقَلْق وَالتَّوْتَرِ.

وَالْحَقُّ أَنَّنِي قَدْ مَلَلْتُ مِنْ كَثَرَةِ قِرَاءَةِ هَذِهِ الْمَذَكِّرَاتِ عَدِيدًا مِنْ
الْمَرَّاتِ عَلَى مَدَى الْأَعْوَامِ الطَّوِيلَةِ الْمَاضِيَةِ. فِي كُلِّ مَرَّةٍ أَقَرَّرُ أَلَّا أَعَاوِدُ
قِرَاءَتَهَا مَرَّةً ثَانِيَةً حَتَّى لَا يُصَيِّبَنِي مَا يُصَيِّبُنِي مِنْ شُعُورٍ مَكْثُفٍ بِالْخَوْفِ
الشَّدِيدِ مِنْ مَجْهُولٍ قَادِمٍ يَكْتَسِحُ الْأَخْضَرَ وَالْيَاسَ، لَكِنِّي أَعَاوِدُ قِرَاءَتَهَا
مِنْ جَدِيدٍ تَحْتَ وَطْأَةِ ذَلِكَ الشُّعُورِ الْغَامِضِ، مُحَاوَلًا التَّأَكُّدَ فِي كُلِّ مَرَّةٍ
إِنْ كَانَ هَذَا الْخَوْفُ قَائِمًا عَلَى حَقِيقَةٍ أَمْ عَلَى وَهْمٍ.

فِي النِّهَايَةِ لَمْ أَجِدْ بُدًّا مِنْ أَنْ تَشَارِكُونِي أَيُّهَا النَّاسُ فِي أَمْرِي مِنْ هَذِهِ
الْمَذَكِّرَاتِ، لَا بِدَافِعٍ سَادِي حَتَّى تَتَعَذَّبُوا مِثْلَمَا تَعَذَّبْتُ كُلَّمَا عَاوَدْتُ
قِرَاءَتَهَا، وَلَكِنْ لَكِي تَدْلُونِي إِنْ كُنْتُ مِبَالِغًا حَتَّى أَطْمَئِنَّ، أَوْ كُنْتُ عَاجِزًا
عَنْ قِرَاءَةِ الْوَاقِعِ فَتَحْذَرُونِي مِنَ الشُّطْطِ وَالْمَغَالَاةِ، أَوْ إِنْ كُنْتُ مُحَقِّقًا
فَيَكُونُ لَنَا مَعًا شَأْنٌ آخَرُ.

إِنَّنِي أَرْجُو مِنْ كُلِّ مَنْ يَقْرَأُ مَذَكِّرَاتِي الْقَدِيمَةَ الَّتِي أَشْرْتُ إِلَيْهَا،
وَمَذَكِّرَاتِي الْحَدِيثَةَ الَّتِي تَخَلَّلْتُهَا مَعَ الزَّمَنِ وَتَعْقِيبَاتِي عَلَيْهَا، أَنْ يَتَفَضَّلَ
مَشْكُورًا بِالِاتِّصَالِ بِي، وَلَا عَلَيْهِ أَنْ يَتَحَاشَى الْحَدِيثَ عَنِ النَّزْرِ الَّتِي
تَتَعَلَّقُ بِشَخْصِي فَهَذَا أَمْرٌ يُخَصُّنِي وَحْدِي.. قَدْ يَرَى فِي بَعْضِ الرِّجَالِ
وَمَعْظَمِ النِّسَاءِ نَدْلًا كَبِيرًا، خَائِنًا لِلْعَشِيرَةِ، أَسِيرًا لِهَوَاهُ، فَلَا بَأْسَ، لِأَنَّنِي
قَادِرٌ عَلَى أَنْ أَتَحَمَّلَ تَبْعَاتِ مَوَاقِفِي وَأَفْعَالِي الْإِنْقِلَابِيَّةِ الَّتِي بَدَأْتُ مِنْذُ أَنْ
أُحِلْتُ إِلَى الْمَعَاشِ.. لَكِنْ عَلَى الْقَارِئِ أَنْ يَطْمَئِنَّنِي إِنْ كَانَ يَشَارِكُنِي
نُبُوَّةُ الْغَامِضَةِ، أَمْ يَتَهَمَّنِي بِأَنَّنِي أَهْلُوسٌ لِكَثَرَةِ مَا أُعْطَاهُ مِنْ

حشيش.. وإني لأعد كل من يتفضل بالاتصال بي من المهتمين بأمر هذا الوطن أن أقدم له الملفات الكاملة التي جمعتها على مدى العامين الأخيرين من جرائد المعارضة، والتي عرضت نماذج مختصرة منها في هذه المذكرات. الملفات معنونة عندي ومرقمة على طريقة البحث العلمي لمن يريد الرجوع إليها ومعرفة مصادرها.. عددها عشرة، وهناك ملف آخر لم أشر إليه في مذكراتي وذلك نظرًا لشدة حساسيته وخطورته، ولكنني لن أبخل به على من يريد الاطلاع عليه في بيتي.. أما أن يظنُّ أحدكم أنني أمثل حالة مرضية من حالات ازدواج الشخصية، فلقد بادرت من فوري بزيارة طبيب نفسي عرضتُ عليه حالتي، حيث أكد لي أنني سليم نفسيًا، باستثناء حالة العصاب التي أصبح معظم الشعب المصري المضغوط يعانيتها.

هنا القاهرة... أيها المواطنون.. بعد ساعات تقترب جحافل الجيش المصري الظافر من مشارف تل أبيب.. الله أكبر والنصر للعرب.
هنا صوت أميركا...

اكتسحت قوات جيش الدفاع الإسرائيلي القوات المسلحة المصرية في سيناء واحتلت الشاطئ الشرقي لقناة السويس.

مالت الشمس نحو الغروب وتناجت أمواج البحر في هسيس حنون تطرب له الآذان العاشقة. قالت لي سميرة وأنا أنظر في الندبة الرقيقة أسفل ذقنها بعينين عاشقتين:

- أنت لا تستطيع أن تتصور مدى جبي لك قلت لها وعيناي
ذائبان في الندبة:

- وأنت أجمل فتاة في العالم.

وقال عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب في رسالة بعث له بها بعد
أن فتح مصر:

"مصر قرية غبراء وشجرة خضراء. طولها شهر وعرضها عشر.
يكتنفها جبل أغبر ورمل أعفر. يخطُّ وسطها نيلٌ مبارك الغدوات،
ميمونُ الرّوحات. تجرى فيه الزيادة والنقصان كجري الشمس
والقمر.." ثم قال: "فبينما مصر لؤلؤة بيضاء إذا بها عنبرة سوداء، فإذا
هي زمردة خضراء، فإذا بها ديباجة رقشاء، فتبارك الله الخالق لما يشاء" ..

وقال المذيع الأمريكي بلهجة تخلو من الانفعال:

.."Cairo accepted fire ceasing" ..-

حفرت العبارة في ذاكرتي. ما زلتُ أعيها بتفاصيلها اللحظية كما
سمعتُها بأذني وتعاملت معها بكل حواسي.."كايرو" عاصمة القرية
الغبراء والشجرة الخضراء أعلنت تحاذها رسمياً وقبلت وقف إطلاق
النار. أنا لا أصدق ما نُسبَ إلى عمرو بن العاص عن نساء مصر
العجب ورجالها العبيد لمن غلب، لأن مثل هذا الكلام لا يصدر- في
رأيي - عن صحابي.

تقلصت معدتي بشدة فلم تسمح ببقاء طعام بين جدرانها لعدة أيام متتالية، وأنا أحب الطعام وأحترمه وأعزّه وأجلّه. قال لي الدكتور مدحت العيسوي إنه عصب المعدة الحائر، والذي يسميه البعض بالعصب العاطفي.. ونحن نشرب الشاي معاً لم يبادلني الحديث عن الهزيمة، وكأنها لحقت ببلد آخر. أكّد لي أن سبب المرض كامن في شدة فلقى وتفكيري المتواصل في عجزني عن تدبير ما يستلزمه زوجي من نفقات تفوق طاقتي وقدراتي المالية المتواضعة. نظرت في شروء إلى وجهه المتورد بدماء العز والرفاهية، واللهم لا حسد فأنا أحبه. فتحت فمي كي أتكلّم، لكنني تكاسلت فعاودت إغلاقه. لم أحاول أن أسفّه من تجاهله للصاعقة التي ألمّت بنا أو أتهمه بالانفصال عن واقعنا المخيف، وإنما رحتُ أسائل نفسي عن الأسباب الحقيقية التي رفضت معدتي الطعام لأجلها. أهو الإفلاس العظيم، أم الصدمة القاتلة في جيشنا المنهزم بجداره، أم أن فلقى مُنصبٌّ على شقيقتي نبيله التي توشك على وضع مولودها الثالث؟ لو كان مدحت مصيباً في تشخيصه الذي أشار إليه ببساطة شديدة فالعلاج هو:

• أن أحصل على مال وفير يحقق أمنيّتي وأمنية حبيبتني التي طال انتظارها لي بلا همسة تدمر أو أمانة قلق.

• أن تتحول هزيمة الجيش المصري-ولو بمعجزة سماوية- إلى انتصار حاسم ليس بالضرورة أن تكون نهايته احتلال تل أبيب.

• أن يعود الرائد إبراهيم النحراوي من المعركة ليشهد مولد طفله الثالث.

أغلقْتُ على نفسي باب حجرتي. تجردت من كل ملابسي وجلستُ
عريانا كعادي حين أريد أن أفكر في صفاء. رؤيتي لمسألة المال رؤية
ضبابية لم تتضح معالمها بعد، وحتى لو لم تتضح إلى نهاية العمر فلا
بأس، لأنني أعتقد كثيرًا في لا جدوى أي شيء، رغم أنني غارق حتى
أذني في الكثير من الأشياء.

أجهل ما حدث في حياتي الجوفاء حتى الآن أنني أحببتُ سميرة
وأحببني. تنتظرني منذ صبانا فقد اخترتها واختارتني، وانتهى الأمر
وليس لديّ تفسير له سوى أنه الحب.

زملائي الذين يعملون في البلاد العربية يتقاضون أضعافًا مضاعفة
لراتبي الذي ينفد في الثلث الأخير من كل شهر.

أنا لا أحب مغادرة مدينتي إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في
البلاد. عمرها ثلاثة وعشرون قرنًا من الزمان، وأعجب ما يعجبني فيها
أن الذي بناها ذو قرنين.. وقد طاب هواؤها ونقي جوها وخفَّ حرُّها
وبردها وسلم أهلها من مشاتي الجبال ومصايف عمان وصواعق تهامة
ودماميل الجزيرة وجرب اليمن وطواعين الشام وغيلان العراق
وعقارب خوزستان. أحبُّ حارتنا الضيقة المواجهة للبحر، حيث
البيوت الواطئة المتعانقة في ودِّ قديم والتي تشربت أحجارها العجوز
برحيق زمان طويل، والمداخل ذات الأبواب الخشبية العتيقة التي لم
يفقدها التآكل روعة تصميمها الفني الأصيل، و"السلام" التي
استسلمت في صمت لوطء أجيال تعاقبت وراء أجيال. هنا أسكنُ،

ومن هنا أحييتُ، وفي صمت الليل صرخت نبيلة من شدة الألم
والرعب معاً. كذلك صرخ وليدها مُستقبلاً الحياة، فيا أهلاً بك أيها
القادم المسكين. لست أدري لماذا جئت في هذا التوقيت السخيف لمجرد
عبور لحظة حب غير مسئولة بين أمك وأبيك. لو كنت ولدًا فاعلم أن
طريق الحياة الكريمة لم تعد ممهدة إلا للسفهاء. سوف ترى أوضاعاً
مقلوبة تُصيبك بالشك في عقلك. الناس أيها القادم المجهول يرتدون
دروعاً تُخفي كذبهم وأنايتهم ونفاقهم وجشعهم.. ثعالب وأفاعٍ
ونمور.. ستعاني الأمرين في المعيشة بينهم.

ولو كنت بنتاً فلن تجدي الخلاص هنا في شيء حتى لو امتلكت
مواهب الدنيا. لو صرت عالمة في الذرة فلن تستطيعي مواصلة أبحاثك
في مناخ من الحقد وتثبيط الهمم وتسلط الذكر على الأنثى، وحتى لو
استطعت فيا حسرتك عندما تجددين أن راقصة تهز مؤخرتها العارية
وصدرها الرجراج تستطيع أن تحصل في دقائق على ما تحصلين عليه من
أجر في عدة أشهر. الرجل عندنا -مهما يبلغ غباؤه وانحطاطه- هو
السيد الأمر الناهي بلا مبرر. ستتحوّلين إلى مازوكية شرقية تستعذب
العذاب وتستمرئه.. ما أتعس أن تأتي إلى الدنيا لتعيشي حياتك مقهورة
حتى الموت!

على أي حال تعال أيها القادم المجهول -أيًا كنت- لتخوض معنا
غمار تجربة مكررة منذ الأزل، معلومة البداية والنهاية، مجهول كل ما
بينهما من مسرات وأحزان ومفاجآت ونوائب يشيب لهولها الشبان.

على باب المنزل تبادلنا نوبتجيات الحراسة انتظاراً لحضور مندوبي القوات المسلحة ومعهم النبأ الحزين، حتى نحجبه عن نبيلة فلا تفجع به. تلقينا منهم العزاء في الشهيد إبراهيم النحراوي أمام البيت، وعندما صعدنا أبلغناها أنه في عداد المفقودين - فاعور أحسن من أعمى - وأن هناك أملاً في عودته بعد انتهاء الحرب وتبادل الأسرى. يبدو أنني كنتُ ميالاً لتصديق هذه الأكذوبة، إذ تتبععت وحدي في الخفاء أنباء العائدين من زملائه لأعرف منهم الحقيقة. لم يؤكد أحدهم أنه رآه قتيلاً. أقسم البعض أنه أسير حرب ولا بد عائد بإذن الله. تعدّبت روحي بين تعاقب اليأس والأمل. صرخت نبيلة وصرخ الوليد، أما أنا فأجهشتُ بالبكاء في حنايا السُّلم بعد إعلان النبأ واستشاعته. انسلخت من سراق العزاء حتى أستشعر لذة البكاء الحارق على عزيز دون أن يراني أحد، مع أنه كان من حقي أن أبكي أمام الناس. ضاع الرجل الطيب الوديع. كانت أُمِّي تشبهه بالبنت لفرط حيائه وشدة تأدبه. حصدته رشاشات طائرة هليكوبتر إسرائيلية في باب زويلة. لم يكن جسده العملاق بحاجة إلى كل تلك الطلقات. كان سيموت من تلقاء نفسه إذ أُصيب في أثناء المعركة في بطنه وفي المكان نفسه الذي سبق أن أجرى به عملية "فتق" جراحية. لا بد أن الموت فيه راحة عن القتل، إذ يتم فيه زوال الإنسان والأشياء عن بعضهما في سلام ودون دماء.. ويسير صاحب الجسد العملاق مُنحنيًا على نفسه مع المنسحبين ضاغطًا بيديه على أمعائه حتى لا تبرز من بطنه فتسقط على الأرض. أراحته طلقات الرصاص فأعفاه الزوال من عبء التثبث بالبقاء. آه من الموت.. وآه من الحياة.

رثيْتُ لحال مدحت المسكين. لو لم أتكاسل عن مواصلة الحديث معه لقلْتُ له إن المال لن يجيء، وأن النصر أيضًا - كما يبدو - لن يجيء، وأن إبراهيم النحراوي قد مات شهيدًا ولن يعود.

أنا لا أسمعُ في مقهيّ بلعب القمار أو تعاطي المخدرات، بل أحافظُ على المستوى اللائق به وبـي وبروادي الذين لا يعرفون الأندية الاجتماعية الراقية، ولا يقدرّون على تكاليف المقاهي السياحية التي تحتل الكورنيش، والتي صار معظمها يحمل أسماء أجنبية.. لهذا لا يفكر "وائل" ضابط مباحث المنطقة أو أحد من رجاله في اقتحام مقهيّ مثلما يحدث مع معظم المقاهي الأخرى، حيث يصولُ وائل ويجول هو ورجاله كيفما يشاؤون. يظلُّ جالسًا في عربته ويبعث بمخبريه لاستدعاء ضحيته من يشاء من الجالسين على أي مقهى يختاره، قائلاً:

- هاتِ لي الولد ده.

حتى لو كان هذا الولد في عمر أبيه.. ويسارع المخبر إلى هذا الولد مُتترعًا إياه بفضاظة من فوق مقعده:

- تعال كلم الباشا.

ولا مانع بين إطلاق الأسئلة الوهمية والاطلاع على بطاقة الهوية أن يصفع الولد على قفاه مرتين أو ثلاثًا على الأقل.. اعتاد المصريون هذا الأمر منذ مئات السنين وألفوه.

عندي يختلف الأمر. لا يجرؤ وائل ولا غيره علي تجاوز حدوده، لا بسبب حُسن سمعة مقهايَ وتربُّعي على إدارته فقط، ولكن-والحق يقال-لأنه يعمل في المنطقة نفسها تحت رئاسة ابني المُقدِّم عادل مراد.

أصبحتُ مدمناً لقراءة جرائد المعارضة التي تبرز في صفحاتها الأولى أنباء مثيرة لا تجرؤ الجرائد القومية على نشرها من عينة: "بتعليمات من مبارك منعت مناقشة اتفاقية الكويز مع العدو الصهيوني في مجلس الشعب"، أو "للمرة الثانية تطالب محكمة الجنايات باتخاذ إجراءات ضد يوسف والي المسئول الأول عن إغراق مصر بالأسمدة المسرطنة"... ويسيح بصري بين رواد المقهى فأرى فيهم تمثيلاً حياً للعديد من فئات الشعب وطبقاته بأعمار مختلفة. ولا عجب في ذلك، ففضلاً عن رخص أسعار المشروبات، يتسم المكان بطابع جمالي شيمته البساطة في كل شيء. المقاعد والموائد ملونة بألوان اخترتها بنفسني، ليست بالفاقة الزاهية وليست بالدائنة الكئيبة، المفارش نظيفة على الدوام. الإضاءة ليست كثيفة وليست خافتة بل بين بين. تنبهاقي لا تنقطع لكُلِّ نادِلٍ يعمل معي أن يخدم الزبائن بمحبة ورضا وإخلاص، ليعود ذلك بالخير عليه وعلى المقهى وعليَّ.

سبحان الله. إن دخلي اليومي من المقهى يُعادل أحياناً راتبي الشهري الذي كنتُ أقتاضه من وظيفتي. لا متعة ولا طمأنينة في هذه الدنيا تعادل شعوري اليوم بالاكْتفاء، والفائض أنفق منه بسخاء على أسرتي وعلى كل محتاج أعرفه أو أسمع عن أحد يعرفه، فتزداد متعتي

وتتضاعف طمأنيتي للأيام، وأزدادُ حمداً لله وشكراً على محبته لي وتجليه
عليَّ بكرمه وحنانه.

كان من العبث أن أعتد على راتبي الشهري حتى أحصل على
قسيمة زوجي بسميرة. في الجنة ارتبط آدم وحواء دون خاتم ذهبي أو
"شبكة"، وكانا يلتهمان فاكهتها بلا مقابل. ولما تجاوزا حدودهما دفعا
الشن غالياً، وأنا ليس لديَّ ما أدفعه.

قادتني قدمي إلى صديقي محيي عبد الحميد المهندس بالقوات
المسلحة لنصل ما انقطع بيننا من أحلام الشباب الخضراء. ذهبْتُ لتَهْنِئَتِهِ
بسلامة العودة من الأراضي السوفيتية الثلجية. كان يدرس عندهم
الصواريخ المتطورة التي ابتكرها أحفاد نوح. حين جاءه النبأ الأسود
هناك، أغلق على نفسه باب غرفته وظلَّ أياماً يعبُّ الفودكا في جوفه بلا
وعي. امتنع عن حضور الحفل الختامي لوداع المبعوثين وعاد إلى مصر
مُصاباً بقرحة في المعدة.

قال لي بعد أن تبادلنا سكب أحزاننا في أكواب البيرة وأطباق
الجندوفلي، إن العقاقير الطبية لم تعد تجدي نفعاً معنا وقد أصبح الحال
من بعضه، وإن الحل الأمثل الذي يمكن أن يقودنا إلى الشفاء هو
الانطلاق وتكبير الدماغ ومحاولة النسيان. سها عن أنه رجل مفلس وأن
الإفلاس قرين العبودية وعدو الانطلاق. أبرز لي بطاقة دعوة شخصين
لقضاء ليلة رأس سنة ١٩٦٨ الميلادية في أحد الملاهي الليلية الواقعة

على كورنيش البحر. اتفقنا على أن ننسى - في هذه الليلة على الأقل - هزيمة الجيش والشعب والوطن، وهزيمة كل منا أمام نفسه والآخرين والحياة.. قررنا أن نشرب ونضحك في هذه الليلة حتى الموت.

يوم افتتاح المقهى كنت غارقاً في مقام الشكر مستغرقاً فيه. سكن الله قلبي وهرب منه الشيطان. عشتُ بطول عمري قلقاً متوتراً. أُلجأ إلى الحشيش كحلٍ وقتي لا متصاص قلقي وتوتري، وللهرب إلى أجل مسمى من مسببات العجز والفشل والإحباط، لشعوري بأنني مواطن ضعيف يعيش في وطن أضعف، في قلب عالم تسوده القوة.

استكانت نفسي لهذا المكان وهدأت خواطري بفتح صفحة جديدة من حياتي، تخلصتُ فيها نهائياً من كينونتي السابقة، وتعمق شكري لله الذي منحني راحة البال بعد طول انتظار.

في شبابي لم أرتكب إلا القليل من الخطايا، ولأني كنت أخافُ الحرام فقد كان يعقب كل خطيئة أقرُفُها شعورٌ ثقيل بالذنب. دائماً تقترن اللذة بالألم.. لكنني ما زلتُ حتى يومنا هذا أحب مجالسة الندمان وأنثني بأحاديثهم الشائقة عن شئون الحياة والموت، ولكن من منظور كحولي. لا أحب أن أقطع عن مجلسهم ولكن دون أن أشرب غير فنيجان أو فنيجانين من القهوة وأدخن السجائر. في البداية اهتموني بالتخلف وثقل الظل وعدم القدرة على التجانس مع عالمهم والانصهار

فيه، لكنهم مع الوقت اعتادوا ذلك وظلت محبتي لهم شيئاً جوهرياً في حياتي.

ليلة الافتتاح سخروا مني بمحبة وهم يشربون:

- يبدو أن أم فؤاد أرادت أن تكافئه بهذا المقهى عرفاناً لتوضيحه لها كيفية انشطار الذرة.

- لا بد أنها فهمت النظرية واستوعبتها تماماً.

- وكيف عرفت ذلك؟

- لأنها نجحت في أن تشطر حياته بالفعل.

وقلت لهم:

- لكنني سعيد بهذا الانشطار.. إنه الحياة المتجددة وقد تولدت عنه.

بكينا من شدة الضحك ليلة رأس السنة ولكننا لم نمت، بل عقدنا جلسة عمل جادة للحديث عن المستقبل.

ورث صديقي عن أبيه ثروة كبيرة. لماذا لم يفعل أبي مثلما فعل أبوه واختار الموت فقراً؟ تساؤل غير بريء أعرف أنه لا لزوم له. يفكر محيي في استغلال جزء من ثروته في عمل يكرس له حياته بعد أن قرر الاستقالة من القوات المسلحة، إذ تبين له أن العمل بها لا يحقق ذاته كما يريد.

منذ زمالتنا في المدرسة الابتدائية وحتى تخرجنا في الجامعة، يجمع بيننا تفاهم صامت ومحبة راسخة. يظنُّ محيي - وكل إنسان حر فيما يظنُّ - أنني "حمار شغل"، لهذا اختارني منفذًا لمشروعه مشاركًا بجهدي خاصة وأنه غير مختصّ بالكيمياء، فضلًا عن علمه باحتياجي الملحّ إلى المال حتى أحفظ ماء وجهي أمام صهري الطيب الذي كان خجلًا مني يوم طلبتُ منه يد ابنته. ربما كان محيي مُحقّقًا في ظنّه، لكنه كان يجهل أن هناك شرخًا غائرًا قد حدث في صلب إرادتي منذ سمعت الخبر الأول بصوت المذيع الأمريكي، ومن بعده الخبر الثاني باستشهاد زوج شقيقتي نبيلة. ومن سوء الأمر أنني لم أكن أتصور في ذلك الوقت أن هذا الشرخ سوف يتسع بمرور السنوات اتساعًا ينذر بالخطر. سألته ببراءة:

- قل لي بأمانة.. ما أهدافك من هذا المشروع؟

قال بوقار أكبر من عمره:

- أن يسدَّ حاجة الإسكندرية على الأقل، ويُحقّق لنا ربحًا لا بأس به، ويفتح أبواب رزق للآخرين.

كان لا بد أن أُصدِّقه حتى أستطيع أن أعيش على أي أمل في أي شيء قد يجيء وقد لا يجيء. لكن محيي لم يوفق في الاستقالة من الجيش رغم سعيه الدؤوب لذلك بشتى السبل. لذلك قرّر أن يجمع بين عمله والمشروع. استأجر مكانًا مُنعزلًا في منطقة شبه زراعية كي نُجري به تجاربنا التمهيدية لإنتاج مادة كيميائية ناقصة في السوق. أعجبني المكان لهذوئه وشاعريته إذ امتزجت في طبيعته الحُضرة بالصحراء بالماء الذي

ينساب أمامه في جدول صغير. شحنتُ عزيمتي واستنفرت إرادتي للعمل بحماسة فربما نجحت في أن أضرب عصفورين بحجر واحد.. أتوجّه من عملي إلى أرض المشروع رأسًا. غدائي الخفيف أتناوله في أثناء قيامي بالتجارب لاختيار أوفر الحلول الاقتصادية. بعد ذلك أتوجه إلى معلمي بالكلية حيث تجارب الدراسات العليا. في الساعات الأولى من الفجر أنام كالقتيل.. شيء رائع، لو دام وأثمر لالتأم شرخي، فالفراغ يقتل الرجل والإنجاز يطيل عمره.

أكدت كل المحاولات فشل المشروع ولا جدواه. خاب أمل محيي، أما أملي فضاع. توترت أعصابي وقلتُ ساخطًا:

- اللعنة على حظي التعس!

وقال محيي:

- لا مبرر لليأس.. فلنعمل على مادة أخرى.

استعدتُ صبري ومثابرتي وبدأت جولات تجريبية جديدة. لكن يبدو أن شيطانًا عنيدًا كان يقف لي في كل خطوة أخطوها مع محيي حتى تبدّد أملي في تحقيق أي نجاح معه. انتهت جهودي إلى فشل مُحَقَّق. تشاءمت من محيي وساورتني ظنون ووساوس جعلتني أبتعدُ عنه. هناك أشياء غريبة تحدث في هذه الدنيا لا أفهم لها سببا. إنها تتسم بالنذالة أحيانًا. في البداية تذكرت قول "التوحيدى": "ما أشبه الدنيا وخداعها إلا بقحبة حسناء تظل تناديك وتناجيك حتى إذا أقبلت عليها

صاحت بالوالي وصرخت بالناس ففضحتك وأورثتك الندامة وعض
الأنامل من الغيظ... ولكنني قلتُ لنفسي مواسياً:
- وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم.

ثم قلتُ ربما كان النحس قابلاً في المكان الجميل، فنقلت أدواتي إلى
بدروم البيت وبدأت العمل بتجهيز مادة كيميائية تُطلى بها قيعان المراكب
البحرية. حدث انفجار مُرَوِّع أعقبه اشتعال حريق هدد البيت بأكمله.
تعالَت صرخات النسوة من الجيران معلنة فضيحتي وفشلي. أخذ
السكان يقذفون على مصدر الحريق صفائح الماء والسجاد القديم
لإطفاء النار. التصقت ملابسي بجسدي من شدة العرق. احترقت كفي
اليمنى في أثناء محاولتي إطفاء موقد الكيروسين الكبير. جاءني خاطر
أمر مُلحّ تحت "دوش" الحمام البارد. لا تعمل منذ الآن مع هذا
الرجل.. وبينما استقرَّ عزمي بالفعل على ذلك، كنتُ أكتُم ضحكات
مجنونة تنبعث من أعماقي والماء يتساقط بغزارة على جسدي الملهب. لم
أعرف إن كانت تلك الضحكات فرحة بنجائي أم سخرية من خيبتني أم
انعكاساً جوهرياً لشعوري بعبثية أي شيء. ما إن خرجتُ من الحمام
واقتربت من باب غرفتي حتى قرأتُ إعلاناً كبيراً مُثبتاً بمسمار في
متنصف الباب: "لا تنس إخراج البوتقة من الفرن الكهربائي!!"

ألبسني عفريت من الجن ملابسي في طرفة عين. هرولتُ إلى الخارج
متخذاً طريقي إلى الكلية.. إبراهيم النحراوي لن يعود فالميت لا يحيى
مرة أخرى إلا يوم القيامة. طيب.. هل يسترد الجيش سيناء ويثأر

للعشرين ألف شهيد؟ الأولى أن تفكر فيما يمكن أن يحدث لو اشتعل ماس كهربائي بالفرن فيشتعل المعمل بأكمله وتندلع النيران بالكلية العريقة، أو فيما كان يمكن أن يحدث لو أن الحريق الذي شبَّ في المنزل لم يطفأ قبل امتداده وتوغله. لماذا تحاول ابتلاع الدنيا بأكملها في بطنك دفعة واحدة؟ تُجري تجربتين في وقت واحد وفي مكانين متباعدين. الأولى بالبيت للحصول على المال والثانية بالكلية للحصول على الماجستير. قد لا يكفي العمر للحصول على المال والعلم معاً، أو على أي شيء بالمرّة.. تدخل التعديلات على الآلات القديمة بالشركة لتحصل على مكافأة أو ترقية استثنائية. تُقحم نفسك في الأنشطة النقابية والعمالية وكأنك تحمل مسؤولية الشعب كله على كاهلك.. في المساء تقارن على صفحات الكتب بين الفلسفة المثالية والفلسفة المادية، أو تسبح في محيط الفن والجمال. تتغزل في عيني حبيبك الخضراوين وفي نظراتها التي تصهر الحزن في الفرح وتذيب الموت في الحياة. تغذي توليفتك النفسية والوجدانية بكل شتات متناثر من المتناقضات. عاشقٌ أنت لكل برزخ يصل ويفصل بين نقيضين. إنه ليس بوسط ذهبي بقدر ما هو عذاب وجداني مُستحب. لو خرجت منه تموت.. أما من برزخ بين الوجود والعدم أذوب فيه انتظاراً للمشیئة الإلهية بكن فيكون؟!!

ربما كان حبي لسميرة هو حافزي الجوهرى إلى اقتحام أسوار الحياة والغوص في أعماقها طويلاً وعرضاً، محاولاً كشف غموضها والنفاذ إلى مجاهيل أسرارها الساحرة رغم ما يُحاجني دائماً من شعور بأنها عبث في عبث.

ذات ليلة عدتُ إلى البيت وصورة الفراش تداعب خيالي لشدة اشتياقي واحتياجي إلى النوم. لو صادفت مارلين مونرو في طريقي لما أوليتها ما تستحقه من اهتمام رجال الأرض قاطبة. وجدتُ محيي في انتظاري. جاء ينبهني أن على مواليده ١٩٤٥ التقدم الآن لتأدية الخدمة العسكرية. ألا يأتيني من هذا الصديق خير أبداً؟! لا جدوى من وفرة الحظ أو نُدرته. جاء المعوق من خارجي فلا أنا بقادر على مقاومته ولا أنا براغب من الأصل في المقاومة، وما عليك يا سميرة إلا مواصلة الانتظار... شرس هذا الذي نسميه الحب، باهظ الأعباء، ولا فرق اليوم بين إرادة حديدية وأخرى صفيحية، فيبدو أنه مكتوب عليّ أن أعيش ماشياً جنب الحائط مقيداً إليه، راضياً قانعاً مستكيناً لا أستطيع حتى المطالبة بحقوقى المشروعة في العمل. لهذا يتندر خبثاء الشركة بطاعتي وأدبي وانضباطي ويندهشون لسلبيتي في السعي للحصول على مقابل لما أقدمه للشركة من جهد غير عادي أبذله في صمت القديسين. هؤلاء المساكين لا يعرفون أنني أتندر بنفسى أكثر منهم. حين يصيح المدير الجديد في وجهي أمام عمالي لسبب تافه لا شأن لي به، ويُغلظ لي في القول فأحتمله ولا أدافع عن نفسى - وأنا صاحب حق - لأوقفه عند حده حتى لا يتمادى في طغيانه نتيجة لصمتي وسكوتي على الظلم. يظنون أن هذا ضعف مني، والحق أنه ليس كذلك، بل هو ناموس اخترته لنفسى أن أكون صفرياً قدر المستطاع خاصة في علاقتي بالرؤساء. لا أقرب منهم ولا أتيح لهم الفرصة ليقربوا مني. لا أنتظر منهم كلمة شكر أو تقدير على ما أبذله من جهد، لا لوجه الله فحسب،

وإنما إرضاء لذاتي بالدرجة الأولى، ولا بأس إن عاد عليّ بخير، ولو أن هذا لم يحدث إلا نادرًا. من المؤكد أنه لو كان لوجه الله فقط لاختلف الأمر كثيرًا، ولكنني أقول الحقيقة.

كان المدير السابق يعاملني معاملة طيبة من باب الصدقة فقط، مُكتفياً بذلك تفضلاً منه وكرمًا. كنتُ أتقزُّزُ من هذه المعاملة الطيبة ولكن في صمت. لم يُعطني حقي في الترقية وقت استحقاقها. كان واثقًا أنني لن أشكو إليه راجيا أو ملتمسًا، فتجرأ بترقية قريب له على الدرجة التي أستحقُّها عن جدارة بحكم لوائح الشركة. تعجَّب الزملاء من خيبي وصمتي. البعض نصحني أن أتقدم إليه بشكوى -أي أشكوه إليه- والبعض نصحني بأن أشكوه لرئيسه في المؤسسة الأم التي تتبعها شركتنا. قلت لهم: إنني لن أفعل هذا ولا ذاك، مُكتفياً بقولي: "منه لله" حتى أشتري سكوتهم، فهذه العبارة كفيفة بذلك، كما أن فتاواهم -حسب ظني- لم تكن في كل الأحوال صادرة عن محبة لشخصي.. لكن أحدًا منهم لم يعلم حقيقة ما حدث حتى الآن.

راقبتُ مكتبه جيدًا بمعاونة أحد كارهيه من السُّعاة الذين يعملون معه. انتهز الساعي فرصة ذهاب سكرتيره لصلاة الظهر وأعطاني الإشارة. اقتحمتُ عليه خلوته دون أن يراني أحد من الموظفين. في لحظة خاطفة كنتُ واقفًا أمام الرجل الذي يرتعد الجميع خوفًا من بطشه وجبروته وسلطة لسانه ورغبته السادية في الإيذاء. في دهشة قوية سألني باستعلاء:

- مَنْ سمح لك بالدخول دون إذن مني؟

- أنا الذي سمحت لنفسي يا ظالم يا بن الكلب!

هَبَّ واقفًا وهو يضغط جرسًا على مكتبه بيد، ويرفع ساعاة
التليفون باليد الأخرى، وقد اصفرَّ وجهه وازرقَّ واحمرَّ.. صاح في دُعر:

- أنت مجنون.. سأفصلك فورًا.

- يمكنك هذا لو كان أبوك يملك المصنع، لكنه مصنع الحكومة يا
روح أمك.

هجمتُ عليه فجأة قبل أن يستجيب أحد لجرسه أو أن يجد فرصة
للاستنجاد بالتليفون. أطلَّ الفزع من عينيه كما لو كان عزرائيل سينقُصُ
عليه ليقبض روحه. صرَّخ مُناديًا السكرتير-الذي يبدو أنه كان
مستغرقًا في صلاته أكثر من أي يوم-وأنا قابض على رقبته مُتعمِّدًا شدَّ
ربطة عنقه بقوة حتى كادت أنفاسه أن تزهق اختناقًا. قلتُ له:

- اعمل حسابك.. إما حقِّي وإما روحك.

ثم تركته مذهولًا مُنهارًا وقد تهالك على مكتبه، وغادرت الغرفة
كما دخلتها في صمت دون أن يشعر بي أحد، وقد اجتمعت عندي الجرأة
بالخذر-على تناقضهما البين- في توافقٍ عجيب.

عدتُ إلى مكنتي وأنا لا أُصدِّق أن ما حدث مني قد حدث. لقد
كان شيئًا منافيًا لطباعي تمامًا لأنني من عشاق السلام. كنتُ أنتظرُ رنين

جرس التليفون بين لحظة وأخرى لاستدعائي إلى النيابة أو على الأقل
للسئون القانونية للشركة. انقضى اليوم على خير ولم يحدث شيء. مرت
أيام أخرى وكأنها دهر ولكنني انتزعتُ حقي في الترقية.

ولما تحرش بي المدير الجديد يومًا حين عارضت رأيه في حل مشكلة
فنية، تذكرت سلفه الراحل واستعدتُ بالله أن يجنبني شرَّ نفسي، وأن
يجنبه شرِّي الذي تبين أنه يحضرني فجأة وعلى غير رغبة مني أو استئذان
أو توقع، خاصة وأنني أكرهه بشدة لأنه من ذلك الصنف من الناس
الذين ينامون ويقومون وهم لا يفكرون في شيء من الحياة إلا العمل
والنجاح والعلو في الأرض، ولو خصمًا من أي قيمة إنسانية أخرى بما
فيها سعادة أبنائهم وذويهم. حب المنافسة يحيلهم إلى حشرات سامة.
هم قوم بلا قلوب أو مشاعر، ومهما يحققوا للإنسانية من تقدُّم في
مجالاتهم العملية، فإنهم ملفوظون من الحياة لأنهم لا يعطون لها إلا عن
حبٍّ لأنفسهم دونه الرّدى. هذا الرجل تستفزني معالم وجهه العصبية
وتوتره الدائم وتعامله مع العمال والموظفين كأدوات مسخرة لتحقيق
أهدافه المتصاعدة فحسب، دونما اعتبار لكونهم كيانات إنسانية ذات
لحم ودم وأعصاب.. مثل هذا الرجل لا يعرف كيف يأكل أو يلبس،
ولا كيف يشبع زوجته أو يربي أولاده. لا تعنيه الموسيقى في شيء، ولا
يرى في حديقة ورد ما يشدُّ انتباهه، ولا يهتزُّ وجدانه لغروب الشمس أو
لابتسامة طفل أو لانعكاس ضوء القمر على صفحة نهر أو بحر أو
بحيرة، وإني لأحمد الله كثيرًا أن مرت أيامي معه على خير.. بل من

الغريب أنني لم أحصل على حقوق وامتيازات طوال عهدي بالشركة
مثلما حصلتُ عليه في عهد ذلك الرجل المقيت، ومن الأغرب أنني لا
أستطيع أن أجزم الآن كيف كان حالي سيكون لو أنني بلغت سنَّه
ومركزه.

من اليوم ينبغي أن أستعدَّ لمواجهة مدير من نوع جديد، لأنه
سيكون ضابطاً أو صف ضابط، وربما يكون شاكوشاً بثلاث شرائط أو
عريضاً بشريطين، أو حتى جندياً عادياً، ولكنه سبقني إلى الجيش بيوم أو
يومين. إنني أشعر بشيء من الحسد تجاه أي فنان أو أديب، لأنه لا يرأسه
مدير ولا يملك أحد أو قانون أن يحيله إلى التقاعد حتى لو بلغ من
العمر أرذله، فهو الذي يرأس نفسه، وهو الوحيد الذي يملك إصدار
قرار بإحالة نفسه إلى التقاعد، حين يدرك عن يقين أن معينه قد نضب
تماماً.

من الطبيعي أن أزهد في الطعام حين أشبع، وفي المال حين أكتفي،
وفي الجنس حين أشبع.. وربما أزهد يوماً في المعرفة حين أعجز عن
ملاحقتها والتواصل المتجدد معها بحكم الزمن، لكن شلة البار لا
تعرف الزهد إلا من باب التندر والسخرية. يقول عبد الله السعيد رجل
الأعمال المغامر:

- لو أراد الله لنا الزهد في الدنيا لما خلقها لنا.

عاش المهندس مراد زاهدًا في الكثير رغم أنفه.. أما المعلم مراد فكيف له أن يزهد في دنيا تبتسم له وترقُّ وتلين؟

فادية السبع ممثلة نصف مشهورة. هي فاكهة المجلس. يطري وجودها من جفاف قعدة الرجال، خاصة حين تلعب الخمر برؤوسهم. لستُ أعرف الكثير عن حياتها.. ربما كانت من أنصاف الحرائر اللاتي لا تتناقض فضيلتهن مع ممارسة القليل من الرذيلة، وربما كانت عابدة زاهدة ارتدت إلى الدنيا.

مجموعة من السكارى والمساطيل يتحدثون في الزهد بإخلاص مدهش يلقي في نفسي قبولاً شديداً.. فليس يعقل أن يهينا الله الحياة لنلفظها وننكرها ونزهد فيها طمعاً في الآخرة. إن من يرفض نعمة الله يغضب الله عليه.. لا شك عندي في ذلك. الله أعطانا الدنيا لنغترف من نعيمها وحذرنا من حساب الآخرة، فماذا يضير أن نسعد بالأولى ونحذر من الثانية؟ تقول فادية:

- أمني أن أزهد في الناس جميعاً، فقد تبين لي أن ما نلتُه منهم من الأذى يفوق بكثير ما نلتُه من الخير.

ويقول رفعت عبد الفتاح مدير مصلحة الآثار المتقاعد:

- ليتني أزهد في النساء مثلما زهدتُ في العمل وتخلصت من رذالته.

جاءه الرد على الفور:

- قصر ذيل يا ازعر.

أشعلتُ سيجارة وقد التزمت الصمت فسألتني فادية:

- وأنت يا بشمهندس.. لم لا تتكلم؟

- بصراحة، أنا لا أريد ولا أستطيع أن أزهد في الدنيا ما حييت
لأنني أحبُّها بكل عُهرها ورهبانيتها.

طالت السهرة حتى الثانية صباحًا، حين أمسك رفعت بكأسه
وراح يتأملها بشغف وهو يقول:

رقّ الزجاج وراقت الخمر وتشاكلا فاختلط الأمر

فكأنها خمر ولا كأس وكأنها كأس ولا خمر

قالت فادية:

- أقطع ذراعي لو كان يفهم ما يقول.

أطفأ رفعت سيجارته في الكأس ظانًّا أنها المنفضة المجاورة.. قال
وهو يرفع الكأس إلى فمه:

- المسألة لا تحتاج مفهومية.. أصل الحكاية كلها (سايحة في
بعضها).

- ألم أقل لكم؟

قال لها رفعت متحديًا وهو يترنح مستعدًّا للانصراف:

- منك نستفيد يا فنانة.

- هذا شعر صوفي يا أستاذ يتكلم عن التوحد بين المحب والمحبوب وفناء الأول في الثاني بعد امتلائه به.

انفجر رفعت ضاحكًا وقد انفلت عياره تمامًا وقال لها:

- عليّ النعمة إنت مرة مجنونة.

قامت فادية وعلى فمها ابتسامة من لم تغضب وقالت لي وهي واقفة في ثبات رغم أنها شربت أضعاف ما شرب رفعت:

- تعالَ معي أوصلك بعربتي.

الجميع يعرفون أنني لا أمتلك عربية. عندما كنتُ أريدها لم يكن معي ثمنها. عندما أصبحت قادرًا علي شرائها لم أعد أريدها، لا زُهدًا بل جُبْنًا ورغبة في التحرر من المسؤولية.. كنت مشروخًا من رأسي إلى قدمي في كل شيء، حتى في اتخاذ قرار بشراء عربية.. في الطريق قلت لها صادقًا:

- لقد تأثرت كثيرًا عندما تحدثتِ عن الأذى الذي لحق بك من الناس.

تجاهلت تعليقي وقالت:

- ما رأيك لو أخذنا جولة بالعربة على طول الكورنيش؟ الجو بديع.

- فكرة جميلة.

في الطريق قالت لي:

- إنَّ كمَّ الأذى الذي لحق بي يتناسب طرديًا مع رغبتني في أن أحيَا
كما أريد وأفعل ما أحب، دون أن أضُر أحدًا.

وكأنها ضغطت بقوة على بؤرة صديدية في نفسي. طول عمري أكره
الصناعة ورغم ذلك عِشته كله أرتزق منها. ما أتعس أن يعمل الإنسان
فيما لا يحبُّ! ضجيج الماكينات ظلَّ يقتلني عامًّا وراء عام. الأبخرة
الساخنة والغازات الكيميائية النفاذة تخنقني في صمت. أرى في تلك
القطع الحديدية الضخمة مرده وشياطين تفتك بأعصابي كل يوم.. لكنني
تعايشتُ مع ما لم أحبه حتى اللحظة الأخيرة بنجاح نسبي وأنا
مشروخ.. أفلا يحقُّ لي -وقد التأم شرخي أو كاد- أن أتعاش بعد ذلك
مع ما أحبُّ بنجاح مُطلق؟!

قالت إنها طُلقت من زوجها الأول بسبب حُبِّها للتمثيل، ثم من
زوجها الثاني بسبب حُبِّها للخمر.

- لكن لماذا تشرين؟

- هل تريد الإجابة الحقيقية؟

- طبعًا.

- لا أعرف.

- قد أصدقك فيما تقولين، لكن كيف ومتى لجأتِ إلى الخمر؟

- أنا لم أَلجأ إليها..زوجي الأول هو الذي علّمني..كانت متعته في الدنيا أن يضاجعني وأنا سكرانة.

- وهو؟

- لم يكن يسكر ولو شرب المحيط.
رأيتُ شرحها بعيني..يبدو أنه عصيٌّ على اللئام.

تركني محبي لوحدي، لماذا لا ترقص الدنيا وتنطلق الضحكات بين أرجاء الطرقات وجدران المساكن وعلى شرفاتها، وما أشد مرارة طعم الحياة في غياب أمسيات الحب الدافئة....

زقزقة العصافير تملأ سماء حديقة أنطونيداس بفرحة الحياة. نجلس معاً على مقعد خشبي أخضر، صُنع من جذوع الأشجار. نأكل ساندوتشات الجبن الرومي والخرشوف المملح. أنا صاحب براءة تمليح الخرشوف، كنا في خصام جميل، نستمتع بعدوبته. قدّمت لي الورقة التي كانت تغلف مأكولاتنا وقالت بعبوس طفل مشاكس:

- مراد..اكتب لي الآن أي كلام يخطر ببالك.

تركتني في جنة الخلد على الأرض وراحت عني إلى الأشجار والورود والعصافير وجداول الماء، ثم أتاني صوتها الرقيق من البعد:

- هاه؟ خلاص؟

وأنا أعطيتها الورقة شددت بقبضتي على يدها وقلتُ لها:

- حذارِ أن تقرئي كلماتي قبل أن تكتبي لي أنتِ الأخرى.

أشرق وجهها النديُّ بنظرة تساؤل بريئة أعادتنني إلى طفولتها كما يراها خيالي، ثم أصدرت الطفلة أمرها كما لو كانت تتدلل على أبيها:

- طيب..رح لبعيد.

ابتعدتُ عنها قليلاً بينما غاصت روعي في سر الحياة. قالت وقد احمرت وجنتاها الرقيقتان:

- ابعد.. ابعد أكثر

عدتُ إليها بعد قليل. كانت منهمكة في قراءة كلماتي بجدية شديدة وقد استبدَّ بوجهها انفعال عميق كشف عن شدة حساسيتها ورقة وجدانها. خطفت منها الورقة لظني أنها نقضت ما اتفقنا عليه: أن نقرأ معاً وفي الوقت نفسه ما كتبه كل منا للآخر. نكست رأسها وراحت تعبث في النجيل الأخضر الأدكن بأناملها الوردية المرفهة. قلبت الورقة وقرأت ما كتبت عليها فانبعثت تغاريد الحب في رياض قلبي ورقص طرباً.

في تلك الأيام، ووسط ذلك الخضم العاتي من العواطف الساخنة والمشاعر البريئة، ونبضات القلب الدافقة بالنشوة، وطيران الجسد إلى

السموات العلاء، لم يخطر ببالي لحظة واحدة أنني سوف أنشغل يوماً بغير سميرة. كانت عندي هي المبدأ والمتهى..ولكن كيف يطيب العيش لصاحب وجدان شقي مثلي لا يبقى علي حال؟

في بداية نهاية رحلة العمر غرقت في غصون. دون مقدمات وجدت نفسي في موقف وحال وزمان ومكان بغير حيلة من جانبي أو سعي. حياة كلها أغيار في أغيار. لا ثابت فيها إلا التغير. كل شيء فيها يتحول ويتبدل أو يزول، متحدياً غطرسة الإنسان وكبره وتعاضمه. رغم ذلك فنظامنا السياسي يكاد يكون هو الاستثناء الوحيد الذي لم يخضع لهذه القاعدة الدنيوية حتى الآن. تجمّده وتحجره يقودان مصر إلى الموت، وأنا أفرج عليها كما يفرج الآخرون..هذا عن بلدي الذي لا أستطيع أن أفعل له شيئاً يساهم في الحيلولة دون موته..أما عن نفسي فقد عزمتُ على ألا أتركها هي الأخرى ساكنة حتى أموت وأنا أفرج عليها، بل أبحث لها عن خلاص ولقد وجدته.

تحدث عن الوطن يا رجل وتبحث عن خلاصك في امرأة ومقهى! نعم هي حقيقة، فلو وجد كل رجل خلاصه لخلص الوطن كله من الجمود الذي يقتله كل يوم.

رأيتُ أنه من الأفضل أن أحترم نفسي بدلاً أضعها في مقارنة مع الوطن، رغم أن كلاً منا بحاجة إلى معجزة لتتقذه. أنا وجدتُ معجزتي في غصون. معجزة تحدي الزمن..لو نجح الجزء نجح الكل، وليس بالضرورة أن تكون خاتمة تحدي الزمن خاتمة تراجيديّة. ثم رأيتُ أن

أحترم الوطن الذي أحبه بألا أضعه في مقارنة معي، فعلى المستوى النسبي أنا زائل لكنه باقٍ.. أقول هذا حتى أنفي عن نفسي لكل من يقرأ مذكراتي القديمة والجديدة صفة انتفاخ الذات والتمركز حولها، فأنا أو من بأن الذئب لا يأكل من الغنم إلا القاصية.

لم يعد هناك وقت لاجترار أيام السعادة البكر. حتى لو كنت قد توصلت إلى نتائج مُبشِّرة مع محيي فما جدواها الآن؟ هناك غول صهيوني يهدد بلادك المقهورة بالاحتلال. رفاقك مُزَّقت أشلاؤهم في الصحراء وجاست الكلاب والذئاب في لحومهم. الذين عادوا إنما بأجسامهم فحسب.. بقايا أرواح مهترئة. قال لي إبراهيم النحراوي منذ أسابيع قليلة:

- لن أعود إليكم قبل إزالة إسرائيل من الوجود، فلن نُحسم القضية إلا بهذا الحل.

بعد قوله بعدة أعوام تساءل مناحم بيجين ساخراً:

- ما معنى كلمة فلسطين؟!

قبل ذلك بعدة أعوام قال حكام العرب:

- لا صلح، ولا مفاوضات، ولا اعتراف بإسرائيل.

أضافوا بقرارهم إلى معجمنا العربي الثوري الضخم اصطلاحاً جديداً هو "اللاءات الثلاث".. أما أنا فظلت في برزخي المعتاد أتأرجح

كالبندول عن يمين الصفر ويساره، وحين أستقرُّ فأنا صفري يقبع في جحر واحد من بين خمسين مليون جحر، لا يشكل سكانهم شعباً واحداً، بل يشكلون خمسين مليون شعب كل يعيش في عالمه الجحري الخاص به. لم يفكر أحدٌ في دقِّ طريق يصل ما بين الجحور، كما لم يحاول أحد أن يجمع بين أصحاب الجحور المتقوقعين في مصالحهم ليتفاهموا جميعاً ويلتفوا حول هدف مشترك.. لهذا سوف تبقى اللاتصالات الثلاث قولاً بلا فعل، وهذا هو أغلب ظني.

أكثر من سنوات ثلاث مضت على مبادرة تسول السلام العربية في مارس ٢٠٠٢، والتي هي في مجملها "النعم الثلاث": نعم للصالح. نعم للاعتراف. نعم للمفاوضات.

لم يلتفت أحدٌ في العالم كله إلى المبادرة وأولهم إسرائيل. عندما قال العرب: "لا" لم يعرفهم أحد اهتماماً. عندما قالوا: "نعم" لم يعجبهم أحد. غارقون هم في ثقافة لفظ، بينما الدنيا بأسرها طائرة بسرعة الصاروخ في ثقافة أداء وفعل وإنجاز.. وعندما تواجه الأفعال بالكلمات يحق للمرء أن يخاف.

على غير المعتاد سيطر الهدوء على مجموعة الأدباء وهو يستقبلون يوماً من أيام الأسابيع الأولى من عام ٢٠٠٥.

عبد القادر حسن وحلمي سليم ونوفل حسني وتحية بسيوني هم عمد المجلس الأدبي الذي ينعقد في مقهى مساء كل أربعاء بعد

خروجهم من ندوة قصر ثقافة سيدي جابر الأسبوعية. يقول عبد القادر:

- لقد تحولت مصر بالتدريج من طرف إلى صديق إلى وسيط إلى داعم لإسرائيل.

عبد القادر ناصري حتى الثمالة، وهو رئيس مكتب فرعي بالإسكندرية لإحدى جرائد المعارضة.

يرد نوفل وهو على غير يقين مما يقول:

- احمدا ربنا.. مبارك جنبكم أهوال الحرب مدة ربع قرن.

ونوفل حسني المحامي متلون كالخرباء. لا مانع لديه أن يمتدح الحزب الوطني ورئيسه مبارك في مجلس، ثم يذهب إلى النقيض في مجلس آخر.

يرد حلمي سليم قائلاً:

- قلنا مصر أولاً ومصر ثانياً ومصر أخيراً، حتى أصبحت مصر أخيراً فقط!

وبصوت كحفيف الأفعى يتساءل نوفل:

- لماذا تجلدون وطنكم وحده؟ لماذا لا تتكلمون مثلاً عن الملك عبد الله المذعور-يا ولده- من الخطر النووي الإيراني دون أن يذكر الخطر الإسرائيلي ولو بالتلميح؟

قالت تحية بحرقة:

- حكومتنا يا جماعة تحولت إلى سمسار تطبيع من خلال السنترال
التليفوني للسيد الرئيس!

لو استمعت إلى مثل هذا الحديث الممل غير المثمر منذ عام واحد
لنفرت منه على الفور لأنه لا يأتي بجديد ولا يطرح أفكارًا. مجرد تنفيس
عن مكبوتات في النفس يمارسه مجموعة من الحالمين.. لكنني أستمع
إليهم اليوم باهتمام، كثيرًا ما يدفعني إلى مشاركتهم الحوار.. كسر عبد
القادر حدة الحوار قائلاً:

- سأسافر إلى القاهرة غدًا لزيارة معرض الكتاب.. من منكم
يسافر معي؟

التزم الجميع الصمت.

قليلاً ما قلت: "لا" في حياتي الطويلة الماضية عديمة العمق. كل ما
فعلته كان إذعاناً إراديّاً ولا إراديّاً لكلمة "نعم". كل الجالسين على هذا
المقهى عاشوا طيلة عمرهم في دُلّ "نعم"، ولم يعرفوا عزة
"لا".. اعتادوها واستمرؤوها في السر، وسبوها وسخروا منها في
العلن.. ولا خير في قوم يذل كرامهم ويعظم فيهم نذلهم ويسود.

في صدارة المقهى نظرتُ إلى صورة حسني مبارك المعلقة. اسودَّ
إطارها وغام زجاجُها بفعل الزمن ودخان المعسل وأبخرة الشاي
والقهوة وأنفاس المستسلمين. معالم وجهه كادت تختفي تماماً. في البداية

نزعتهما وتركت مكانها خاليًا. بعد أيام استمعتُ إلى مأساة أحد ضحايا
الخصخصة وقد أصبح عاطلاً وهو في السادسة والأربعين، يعيش مع
أسرته على معاش ضئيل بعد أن أنفق مكافأة المعاش المبكر على زواج
ابنته الكبرى. ترحمتُ على أيام عبد الناصر وفكرتُ أن أستبدل صورة له
بالصورة المنزوعة، ولكنني سهوتُ زمنًا بقيت فيه صدارة المقهى
عارية.. فيما بعد علقت مكانها صورة السيد حسن نصر الله الفارس
العربي الأصيل، وقد لاقى فعلتي الاستحسان من الجميع. لم أجد في
ذلك غرابة، فأغلب ظني أن الناس في بلادي متحرقون لظهور زعيم
من هذا الطراز النبيل من الرجال.

ذهابك لتأدية الخدمة العسكرية لا يعفيك من التزامك المصري.
بحاجة أنت إلى عزمٍ لا يهتزُّ بهز النهود والمؤخرات أمام حضرات
الضباط في أمسية ٤ يونيو، حتى تستطيع أن تفعل شيئًا. أصابت النكسة
حُبَّكَ في مقتل فأصبح لزامًا عليك أن تترك حديقة أنطونيادس وتذهب
إلى سيناء. انتهت القصة في ساعات ست واعتُقل صديقي فاروق
النجار ووصلني خطاب من صديق آخر بالجبهة يقول بحماسة:

- سندمرهم!

وقيل لي إن أم فاروق أطلقت "زغرودة" طويلة ملحنة ذات جرس
خاص تعبيرًا عن شدة فرحها عندما حضر مندوب التجنيد لاستدعاء
ابنها المعتقل كي يساهم في مشروع الوصول إلى تل أبيب، فلم يحده

بالطبع. دعت أمه من قلبها بطول العمر للذين اعتقلوه، وكأنها أدركت بالفطرة أن ابنها قد أفلت بمعجزة من مذبحة.. وارتفع صوت المذيع وهو يتحدث ببلاغة وفصاحة عن انسحاب أكبر قوة ضاربة في الشرق الأوسط إلى خط الدفاع الثاني وقال مهندس ذو ساق خشبية بعد عودته من شركة سينا للمناجم: "إن مدير الشركة كان لصًا كبيرًا وكان يظنُّ بشدة أن الانسحاب خطة موضوعة بإحكام حتى رأينا اليهود أمام أعيننا فهربنا في مركب تموين المدينة وقد تخلينا عن أمتعتنا ومعها اللصُّ وبعض من أعوانه المخلصين".."وقال لهم المهندس: إنها ليست في الغالب خطة والله أعلم أو كما قيل وقال ومجمل القول أنها سميت بالنكسة حين انفجرت في أفق لغتنا الجميلة عبارات ضخمة كما الديناصورات لم تكن قد استخدمت من قبل في الأزمنة الأثرية الغابرة فقيل: إنه الرعيل الثوري، وأنها ثورية الصبر أو صبرية الثور، فقالوا الصمود وقيل الردع ونطقها بعض العامة بالرضع واشتبك عسكري مع شبان يرقصون على الشاطئ باستخدام الطبل والعصي غير مباين بشيء، لكن كثيرًا من موسسات الإسكندرية توقفت عن ممارسة نشاطهن الليلي فترة طويلة فيما يشبه الاحتجاج على ما حدث وكان طريق الكورنيش غارقًا في الظلام حين قال جزار عجوز إنه يشم رائحة دم في البلد أما أنا فقد أصبحت عاجزًا عن تناول الطعام دون تقيؤ، أو علي الأقل دون رغبة في التقيؤ، ولما ركب ضابط الترام بزيه العسكري أطلق عليه أحد الركاب نكتة مهينة عن الانسحاب فضحكوا جميعًا، ولكني لم أضحك، بل ذهبتُ في المساء إلى نادي الشركة بعد انصراف معظم

رواده لأستمع إلى موسيقا صديقي الفنان أحمد قمر وهو يعزف بهدوء
قاتل على آلة القانون ذات المليون وتر في ركن قصيٍّ بحديقة النادي
وييده سيجارة ملفوفة بالحشيش ينمها بمهارة وحذق بين خنصره
وبنصره كيلا تعوقه عن العزف حتى لتكاد تحرق نهايتها أصبعيه دون أن
يتألم، وبعد ذلك ذهبْتُ إلى "شاليه العائلات" في لوران على الكورنيش
وكانت أمواج البحر ساكنة كالموت حين عبر الممر جازُنا الخواجه
ميناس مصطحبًا امرأة في ضعف حجمه إلى أحد الشاليهات ثم خرج
بعد دخولهما بثلاث ساعة لم تزد فأعطاهما أجرها على الباب وراح يعدل
من ملابسه ويمسح أنفه في كم سترته وهو ينظر إليَّ بابتسامة تتمم معالم
البلاهة على وجهه المجذور وصرخ الناس في الشوارع بالروح والدم
وبالدم والروح وأنكس رأسي أمام خطيبي كطفل يشعر بالذنب أمام
أمه فتقدم لي كوبًا من الشاي ولا تنطق ولا أنظر إليها وتضع شقيقتي
مولودها الحزين اليتيم فتتجمد المشاعر لحظة امتزاج الموت بالحياة
ويسود الخوف ويعم الكدر وأبقى غارقا في صفرتي البرزخية وقد
أصبحت فلسفتي المثلى للتعایش في ظل المكان والزمان بظروفهما
الراهنه.

إن اتخاذ موقف محدد عن يمين الصفر أو عن يساره قد أصبح
مستحيلاً في هذه الظروف المظلمة.. ولأنني صفري بطبعي فأنا لستُ
صاحب موقف أو قرار مهما أدع غير ذلك.. هذا ما تبين لي بعد أن
تفحصت نفسي جيداً.. كانت ذريعتي أنه كلما اتسعت دائرة رؤيتي لما

حولي، استحوّلت الفرصة أو القدرة علي القطع والحسم
والتحديد... ويبقى القرار الحقيقي هو اللاقرار .

أن يكون هذا هو موقعي تجاه الأحداث فأنا حُرٌّ ما دمتُ قد قبلتُ
تحمل النتائج المترتبة عليه، أما أن يقف حكامنا موقفًا مماثلًا أمام الغول
المتربص بنا، فذلك أمر يُصيبني بالرعب والفرع، ويدفعني دفعًا إلى
التوسل إليكم أن تقرأوا الملفات.

من الملف الصهيوني

حين قرّر السادات وقف نزيف الدم المصري، طلب من الفلسطينيين المشاركة في توقيع اتفاقية السلام. وصفوه بالخائن صائحين في إذاعتهم التي تمولها مصر:

– شُلت يداك يا سادات.

ثم تركوا شارون ينفذ حرفياً ما فعله بهم يوشع بن نون "سفر التكوين ٢٥ / ٣٤" الذي أعمل القتل والحرق والتدمير في الإنسان والحيوان والنبات والجماد بلا استثناء غير راحاب الزانية التي آوت جواسيسه. راح شارون يصول ويجول بدباباته وطائراته وصواريخه وقنابله في الأراضي العربية المحتلة بعد أن تم عزل مصر وتكثيفها بجنازير اتفاقية السلام، الأمر الذي لم يلتفت له المتفائلون للاتفاقية في حينها وأنا أولهم.. الآن أعترف أنني حمار. معها حق أمني حين كانت

تقول لي دائماً إن سلامة نيتي تصل أحياناً إلى حد السذاجة، وفيما بعد راحت سميرة تؤكد القول نفسه.. ويقول الدكتور عبد الوهاب المسيري إن الاحتلال الاستيطاني الإحلالي الصهيوني-القائم علي الفكر الاسترجاعي - هو استعمار عميل ليس له دينامية مستقلة عن الدولة العظمي التي تتبناه. ويعود الفكر الاسترجاعي إلى الأسطورة المسيحية عن عودة المسيح المخلص في آخر الأيام ليحكم العالم هو والقديسين مدة ألف عام يسود فيها العدل والسلام..وحسبما جاء في هذه الأسطورة فإن الخلاص لن يتحقق ولن يتم إلا باسترجاع اليهود لفلسطين ليتم تنصيرهم.. وفيما يلي بيان بأشهر مذابح بني صهيون منذ زرعهم الغرب في فلسطين:

- ١- بن جوريون: مذبحه كفر قاسم.
- ٢- جولدا مائير: مذبحه بحر البقر.
- ٣- مناحم بيجين: مذبحه خان يونس.
- ٤- إسحاق شامير: مذبحه دير ياسين.
- ٥- إسحاق رابين: مذبحه الأسرى المصريين.
- ٦- شيمون بيريز: مذبحه قانا الأولى.
- ٧- أيريل شارون: مذبحه صابرا وشاتيلا.
- ٨- إيهود أولمرت: مذبحه قانا الثانية.

نصف قرن مضى ما بين المذبحتين الأولى والأخيرة. حدثت مذبحه قانا الثانية عندما أعلنت إسرائيل الحرب السادسة على العرب. قال المحللون السياسيون: إن هذه الحرب كانت معدة سلفاً وتم تخطيطها بالاتفاق بين الأمريكان والصهاينة. تعلل اليهود بأسر جنديين لهما بواسطة رجال المقاومة اللبنانيين للمطالبة بمبادلتهم بأسرى لبنانيين وفلسطينيين في إسرائيل. عندما طالب العالم بوقف إطلاق النار التي انصبت كالجحيم فوق منازل المدنيين، اعترض بوش قائلاً بوضوح ودون حياء: إن الوقت لم يحن بعد. كان واثقاً أن إسرائيل ستكسر شوكة المقاومة وتحتل جنوب لبنان خلال أيام قلائل ثم تفرض شروطها. امتدت الحرب لأكثر من شهر دون أن تتحقق رغبته. خلال هذا الشهر شرب بنو إسرائيل من الكأس نفسها التي أذاقوها للعرب. نزلت عليهم صواريخ نصر الله فعرفوا الاختفاء بالمخابئ أسابيع عديدة. حطمت قذائفه بوارجهم ودباباتهم فراحوا يصرخون ويبيكون على قتلاهم ومصابيهم. انقسم المجتمع الإسرائيلي على نفسه بين مناصر للحرب ومعارض لها. في بداية الحرب اجتمع رئيس مصر وملك الأردن والسعودية متهمين زعيم المقاومة بأنه رجل مغامر يعرض الأمة لمخاطر الجيش الذي لا يُقهرو. وقال شوبنهاور: إن ذوي النفوس الدنيئة يجدون المتعة في البحث عن أخطاء رجل عظيم.. وعندما انتهت الحرب طالب الإسرائيليون بمحاكمة جنرالاتهم الفاشلين الذين اعترفوا بالهزيمة، حتى أن وزيرة خارجيتهم صرحت قائلة:

- ليس هناك جيش في العالم يستطيع نزع سلاح حزب الله.

"هوجو شافيز" رئيس فنزويلا -المنتخب من شعبه- طرد السفير الإسرائيلي من بلاده احتجاجاً على تدمير منازل الشعب اللبناني بوحشية وباستخدام القنابل المحرمة دولياً. قال نصر الله مخاطباً الحكام العرب:

- لا نريد سيوفكم ولا أموالكم. كونوا رجالاً ولو يوماً واحداً. فكّوا عنا يعطيكم العافية.

عندما انتصر "المغامر" أرسلت الحكومة المصرية طائرة بها مجموعة من الحزبيين والصحافيين القوميين ومعهم جمال مبارك لمواساة الشعب اللبناني بالكلام، ومع ذلك لم ينطق جمال بكلمة واحدة أمام رؤساء لبنان حتى لا يناقض كلام أبيه عن "المغامر"، ولم يفهم أحد لماذا حضر إذن؟!

في أثناء اشتعال الحرب قال حسني مبارك في تصريح له:

- إن ما يحدث في لبنان خسارة على إسرائيل وعلى "البتاع ده" ..

وكذلك لم يفهم أحد ما هو هذا "البتاع" حتى الآن ..

بعد انتهاء الحرب طولب أولمرت بالاستقالة بسبب الهزيمة، بينما صرح مبارك بأنه لا مغلوب ولا منتصر .. وقال حكيم قديم إن الجبل لا يستطيع أن يمنع الجرذ من أن يثق به ليتخذ به مسكناً.

كانت محاولتي الأخيرة قبل أن أتوجه إلى إدارة التجنيد، حاملاً على كتفي وصية الحكيم "بتاح حتب" الذي قال لتلميذه منذ ما يقرب من ستة وأربعين قرناً من الزمان:

"إذا كنت رجلاً ذا منزلة فاتخذ لك منزلاً وأحبب قريبتك الحب الجميل وأطعمها واكسها وطيب أوصالها وأدخل السرور على قلبها طيلة حياتها".

أنا لا أحبُّ محمد النجار ولكني مضطر إلى التعامل معه. عجيب أن البطن الذي أنجبت محمداً وفاروقاً بطن واحد. كثيراً ما حثني محمد على ترك عملي بالقطاع العام كي أعمل معه. أغراني براتب كبير وعمولات أكبر. تستفزني معالم وجهه بشدة. بقدر حبي لفاروق أنفر منه. الوقت ضيق ولا مفر من محاولة أخيرة قد تسفر عن انفراجة عاجلة. بعد عدة أشهر سأرتدي الزي العسكري وأذهب إلى المجهول. أنا الذي يخاف من ذبح دجاجة سأكون مدفوعاً بالفطرة وغريزة البقاء إلى القتل والنسف والتدمير. أدركت الآن موقع الشرخ في إرادتي ولن أستطيع علاجه ما لم أعلم كيف أقتل. حتى لو قتلت، فالموت ليس أصيلاً في الكون لأنه عابر، أما الحياة فهي الأصيل لأنها مستمرة وخالدة.

مشكلة محمد النجار التي طرحها عليّ، أنه ينتج طلاء حرارياً أسود يصنعه من القطران، يريد تبييضه حتى يضاهي نظيره المستورد فيتمكن من مضاعفة سعره. أغراني بالمال وراح يطاردني بعربته في كل مكان

ويدعوني إلى سهراته وولائمه كل يوم حتى يدفعني إلى البدء في تنفيذ مشروعه.

مثلما نجحتُ في التهرب من محبي كان يجب أن أتهرب من أستاذي الدكتور المشرف على أبحاثي بالكلية حتى أنفرغ لمشروع النجار، فربما فزتُ بريح سريع يرفع رأسي قليلاً أمام سميرة.

اكتشف ضابط الحرس الجامعي أنني أبيتُ في معلمي حتى الصباح. حذرني من تكرار ذلك ما لم أحصل على تصريح رسمي من إدارة الجامعة. خشيت أن يعلم الأستاذ-خاصة وأنه يسميني مراد المجنون- أنني أستغلُّ معمل الكلية لأغراض لا علاقة لها بموضوع البحث الذي يشرف عليه. لاحظتُ أن بصوت الضابط بحة مميزة وحشجة غليظة يتميز بها الحشاشون، وأن عينيه حمراوان منتفختان متورمتان على الدوام، ففهمت كيف أنفذ إليه حتى يحلَّ عني ويتركني لحالي أبيتُ في المعمل كيفما أشاء. لاحظت أنه يحوم دوماً حول قارورة زجاجية ذات فتحة جانبية موضوعة على أحد الأرفف يخرج منها خرطوم أنيق، ولها فتحة علوية مثبت بها سدادة من الفلين المستورد ذات ثقبين.. عز الطلب وعين المراد لحشاش أصيل.

دون أن يجرؤ على أن يطلبها مني قلت له بمنطق الذي لا يملك حين يتنازل لمن لا يستحق:

- لو كنت تريدها خذها.

وكان انقضاؤه عليها بمنزلة تصريح لي بالسهر والمبيت كيفما أشاء
دون علم الجامعة أو الأستاذ، فهنئاً له بجوزة معملية زجاجة يدخن
فيها الحشيش تدخيناً علمياً راقياً يجمع بين الأصالة والمعاصرة.

على وجه محمد النجار- الذي يحمل دفتر شيكات في جيبه- قرأت
علامات صدمة وأمارات دهشة وفي عينيه نظرة حسدٍ لا تُطاق، وقرأتُ
على لسانه كلمات لم ينطق بها، تقول وهي تقطر الحقد الأسود:

- كيف يستطيع ولد هلفوت كهذا أن يتوصل إلى سرّ تبيض
الطلاء؟!

- هل يصبح لهذا الولد الحق في مناصفتي الأرباح بعد مضاعفة
السعر؟

وأنا الذي كنت شغوفاً من أعماق قلبي الغرير أن أزفّ إليه النبأ
فيطير بي من شدة الفرح ويحضني ويقبلني ثم يكافئني على جهدي
وعرقي وسهري وصبري ومثابرتي. كنت أنتظر أن يدعوني إلى توقيع
اتفاق معه يحفظ لي حقي، لكنه بدأ باللفّ والدوران حول اسم المادة
الأساسية التي غيّرت لون الطلاء، وحول نسبتها وطريقة مزجها، ثم
عن مدى فعاليتها وأثرها في خواص الطلاء.

تأكدت ساعتها أنني أتمتع بقسط وافر من الغباء الاجتماعي الذي
يسمونه غالباً بحسن النية، وأدركتُ صدق الفطرة عند أمي.

أمشي بلا سروال ولا أسمح للنجار أبدًا أن يستغفلني. أتجاهل شرخي وأفكر في بديل للاستفادة من نجاحي. أبحث تحت "طقاطيق" الأرض عن تلك المادة التي حولت الأسود إلى أبيض. أشتريها وأبيعها وأخذ الربح لنفسي وأهرب من حقد النجار الذي فاق سواده سواد طلائه الكريه.

التقيتُ بصبحي إسماعيل زميل دفعتي الدراسية. علمتُ منه أن هذه المادة متوفرة بمخازن الشركة الحربية التي يعمل بها، والتي تقع في ضاحية صحراوية من ضواحي القاهرة. فاجأني بالقول إنها راکدة مهملة لا تجد من يشتريها.

ذهبتُ إلى "القططي" سمسار الكيماويات العجوز الذي عرفته عن طريق أحد زملائي بالشركة. أكد لي القططي أن هذه المادة مخفية تمامًا من السوق، وأن الاتجار فيها مربح للغاية. قلت له هامسًا بثقة مصطنعة:

- عندي صنف ممتاز من هذا المسحوق.

فتح فمه على اتساعه ونظر إليَّ بعيني محمد النجار وقال متوجسًا:

- غير معقول.

- لماذا؟

- من أين حصلت عليها وكيف؟

آن الأوان كي أحدد موعد عقد القران..

- سر المهنة يا معلم.

- مصري أم مستورد؟

للمغامرة مقتضياتها. أكمل مسيرتك ولا تراجع. اكذب. قل أي شيء، فمن لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب.

- مستورد.

- عجيبة!

العجيب أنني انقطعْتُ عن الصلاة تمامًا بعد انقطاع محدود بدأ منذ ليلة المذيع الأمريكي. تتابع الانقطاع بعد احتساب الرائد إبراهيم النحراوي في عداد الشهداء دون إزالة إسرائيل من الوجود أو حتى احتلال تل أبيب.. ثم فترة أخرى بعد فشلي مع محيي وتشاؤمي منه.. ثم فترة أخيرة بعد أن كشف لي محمد النجار عن نياته الخسيسة. العلاقة بين الفشل والانقطاع عن الصلاة تؤكد أنني بحاجة ماسة إلى جرعة دسمة تنقضي من الإيمان، حتى لا أحتسب ضمن ذلك الصنف من الناس الذين يعبدون الله على حرف.

دفع لي القططي "العربون" مقدما لشراء كمية من المسحوق. أصبح في جيبي مئات من الجنيهات لأول مرة في حياتي. أمضيتُ في القاهرة ليلتين حافلتين، سينما، مسرح، ملهى ليلي، مقام السيدة زينب، المركز القومي للبحوث، شقة صبحي إسماعيل التي تعج بالساقطات.

في الليلة التالية شعرت بالندم فتوجهت إلى مسجد سيدنا الحسين لأصلي العشاء وأستغفر الله.

دخلتُ المسجد بصدر منشرح وقلب مفعم بالنيات الحسنة. رأيت مجموعة من الشباب والشيخ متحلقة حول جهاز تسجيل يذيع تلاوة قرآنية بصوت غاية في الجمال والجلال والعدوبة. كانت جلستهم أمام القبلة. أوليتهم ظهري دون أن أدري ونويتُ الصلاة. قيل لي إن الدعاء هنا مستحب ومقبول. فوجئتُ بيد حانية تستقرُّ في لطفٍ علي كتفي، وشيخ يقف من خلفي:

- ماذا تفعل يا بني؟

- كما ترى..أصلي.

كانت دهشة الشيخ مني تفوق الوصف وأنا لا أفهم سبباً لها، حين اقترب بأنفه من فمي متوجساً:

- إنك تعطي القبلة ظهرَكَ!

أفقتُ على جرمي. عدتُ إلى الوضوء من جديد وقد استبدَّ بي شعور طاغ بالخوف من مجهول لا بد واقع على رأسي. أنا موظف حكومي لا تحق له المتاجرة في شيء، فما بالك وأنت تتاجر في مادة حربية! سأكذب علي رئيس الشركة المنتجة للمسحوق وأدعي الشراء بغرض الأبحاث العلمية. أنا ممنوع بالطبع من دخول المصنع لأنه حربي ولأنني لا أعمل به..كيف أجرؤ بعد هذا كله أن أقابل الله في بيت من بيوته؟ لهذا رفض مقابلتي حين أوليتُ القبلة ظهري.

كررتُ الموضوع عدة مرات حتى أفقتُ تمامًا. دعوتُ الله من قلبي
أن يغفر لي ويوفقني في مسعايَ وينجيني من خطورة نفسي الأمانة.

في الصباح جلست بجوار صبحي في عربة المصنع الحربي. ظنَّ
السائق والموظفون أنني مستخدم جديد عندما رأوني أبادل صبحي
الحديث. قدّمني صبحي إلى مدير المصنع بصفتي زميلًا له أعمل في
بحث للحصول على الماجستير في هذا المسحوق. طلبتُ شراء نصف
طن. أبدى الرجل دهشته الشديدة، فالمادة بطبيعتها هشة للغاية، تشغل
عبواتها حجمًا كبيرًا مهما يصغر وزنها. تساءل عما سأفعله بكل هذه
الكمية؟ لكنه في النهاية لم يُبدِ اعتراضًا على البيع فهو الكسبان بترويج
بضاعته الراكدة.

كان سرُّ دهشة القططي واستغرابه للأمر أنني لم أدله على مصدري
للحصول على المسحوق. كل ما قلته له إنه وارد من الخارج. سارعتُ
بمجرد استلامي الصفائح الكثيرة المحتوية على المادة بإزالة الورق
الملصق عليها والذي يعلن أنها من إنتاج أحد المصانع الحربية المصرية،
وما أقبح الحياة حين تخلو من مغامرة!

في الموعد المضروب وفي المكان المتفق عليه حضر القططي ومعه
بقية المبلغ. كانت هذه البقية تعادل صافي مكسبي من الصفقة. أحصيتُ
الأوراق المالية بسرعة ووضعتها في جيبي بفرحة، ثم قلت له مُقلدًا
رجال الأعمال:

- تفضّل.. تسلم.

اختفت دهشتُهُ وبدا هذه المرة أكثر ثقة بنفسه. قبل إحضار البضاعة كان يُخاطبني بأدب مبالغ فيه دون أن يخفي دهشته من قدرتي على الحصول على هذا الشيء النادر. الآن يخاطبني بلهجة ضباط المباحث:

- قل لي يا بشمهندس.. من أين جئتَ بها؟

أجبتُهُ بغضبٍ حقيقي، بينما كان يتفحص عينهُ منها بانبهار شديد:

- وما شأنك؟ لك أن تتسلَّمها أو ترفضها.

راح يتباطأ في الحركة بين الصفائح، يتحسسها ويتلمسها، مُلتفتًا من حوله بين الحين والآخر في توجُّسٍ حيرني وإن لم يدفعني إلى الارتياح في نياته على الإطلاق.

كالقضاء العاجل مرقت من حولنا عربات ثلاث، ثم توقفت فجأة بعد حركة التفاف وانقضاض مثيرة. أحاطت بي وبالصفائح. نزل منها رجالٌ غِلاظ التقاطيع. أخرج أحدهم من جيبه طبنجة. فوجئتُ بسيل من اللكمات ينهال على وجهي من كل جانب، وأيادٍ كثيرة تفتش بعنف في جيوبي وتستخرج منها النقود والفواتير. انهارت عزيمتي دفعة واحدة ولم أعد أفهم شيئًا مما يجري لي. توقَّفتُ مُخَيَّ عن التفكير فلم يكن بمقدوره أن يعمل. تناثرت من حولي كلمات كثيرة لم أستطع أن أُميّز منها إلا كلمات الرائد قائد الحملة، حين توجَّه إليَّ بالقول ساخرًا:

- كيف حالك يا بشمهندس سابقًا؟

استحثتني غريزتي المترعة بحب المقاومة على استجماع إرادتي
ووعبي. التقطتُ أذناي حديثاً جانبياً هامساً بين اثنين منهم، كانا
يتفحصان أوراقتي وبطاقتي الشخصية:

- عجيبة! لقد اشتراها بفواتير رسمية.

- نجا ابن القحبة من الفخ بعد أن دوخنا معه السبع دوخات.

- نُحوّلها إلى عملية سوق سوداء وأمرنا الله.

تلَفْتُ حولي فلم أجد القططي. قبضوا عليه هو الآخر لإتقان
الدور. لم يكن يخطر ببالي حتى تلك اللحظة أنه يعمل مرشداً للمباحث،
وأن غبائه قد صَوَّرَ له أنني لَصُّ يتعامل مع لصوص يسرقون هذه المادة
النادرة من المصنع الحربي ويتجرون بها في السوق السوداء.

فحصوا الأوراق المالية، وفهمتُ من حديثهم معي أنها كانت تحمل
أرقاماً معلومة لديهم. حيثُذ فقط بدأ الشك يساورني في القططي الكلب
الذي خسر عمولته وهَدَّدَ مستقبلي. عادت إليَّ ثقتي بنفسي أقوى مما
كانت عليه قبل هجوم المباحث الجنائية العسكرية. كنتُ على يقين من
أنني لم أرتكب جُرماً جنائياً، وإن كنت قد ارتكبتُ خطأً مهيناً لكوني
موظفاً عامّاً تجرأ على التجارة الحرة إلى جانب وظيفته.

المقهى مليء بالرواد. كل الكراسي مشغولة. أجلسُ في سعادة على
مقعدي أمام مكتبي الصغير. أحمدُ الله على رزقي الذي اتسع من حيث

لا أحسبُ. أقرأ خبراً بإحدى الجرائد عن القبض على مدير عام بإحدى المؤسسات الحكومية، ضُبط وهو يسرح بعربة فول مدمس بعد انتهاء مواعيد عمله الرسمية. قدّموه إلى المحاكمة فبرّأه القاضي واصفاً بيع الفول في حيثيات الحكم بأنه عمل شريف يغني عن الحاجة والرشوة. أتحدّى أشهر المحامين أن يجد لي مادة في القانون المصري تمنع مهندساً متقاعداً أن يتحول إلى معلم صاحب مقهى.. ويا ليل الصَّبّ متى غدّه، أقيام الساعة موعده؟ وأي ساعة هي يا ترى؟ ساعتني مع غصون أم ساعة الوطن الذي حاصر فيه جنود الأمن المركزي معرض القاهرة الدولي للكتاب واعتقلوا المتظاهرين ضد التمديد لحسني مبارك والمطالبين بتعديل الدستور، ومن بينهم عبد القادر حسن، الضلع الناصري في مربع ندوة الأدباء الرئيسي.

قال نوفل كما لو كان متشفياً في عبد القادر بنفاق مستفز:

- مواد الدستور الحالي لا تعوق استمرار الإصلاح السياسي وليست بحاجة إلى تعديل، فقال حلمي سليم ساخرًا:

- معك حق فهذا الدستور هو الذي يضمن بقاء مبارك في الحكم ومن بعده ابنه إلى ما شاء الله.

عدّلت تحية من وضع الإشارب على رأسها، فتدّلت على جبينها خصلة مائلة من شعرها الأسود الكثيف، وقالت في تحفّر:

- يبدو أننا لن نصلح إلا بالأمر من (الأسياء)، فقد انتقد بوش كُلاً من مصر والسعودية وطالبهما بإرساء قواعد الديموقراطية، وأنا أرى في تصريحه هذا أمراً مباشراً وصريحاً لخدمه بالإصلاح.

وهو يهم بالانصراف قال حلمي سليم بجدية:

- أنا لا أثق بكلام بوش بقرش صاغ، وعلى العموم فقد قام عبد القادر بعملٍ ما، أما نحن فسنظل نتكلم ولن نفعل شيئاً.

أعجبني قول حلمي وخيّل إليّ أنه يتوجّه به إليّ بصفة خاصة، فقد أمضيتُ عمري مهتماً بالسياسة، ولكني لم أفعل شيئاً. أنا وطني وثوري آه.. لكن نومة "البورش" لا. أنا تقدّمي متحمس نعم.. لكني لا أحتمل حبسة الزنزانة وصفعات الحراس وأنا في هذا العمر. أنا محتجٌّ على كل ما يحدث من فسادٍ، ولكني لا أعرف كيف أقاومه أو أحول دون تفشيّه بهذه الصورة المخيفة التي لا أظنُّ أن مصر شهدتْها منذ عصر الفراعنة. ربما أستطيع فقط أن أساهمَ في الحدِّ من تغوّله.. مجرد أن يتحاور المثقفون في مقهايٍ بحرية حول أحوال البلد، فهذه مساهمة جريئة مني في دعم الحرية.. وإذا كنتُ أكرهُ السُّلطة فلا مانع عندي من استغلالها لحماية هذه الحرية متى أُتيحت لي الفرصة لذلك.

المقدم عادل مراد هو مركز القوة الذي أستندُ إليه. واقع الأمر أنه لا يهتم نهائياً بالوضع السياسي أو الرغبة في تغييره، وإنما يدعمني فقط لأنني أبوه. رغم معارضته لفكرة شراء المقهى في البداية، فقد تعاملَ مع الأمر الواقع بموضوعية أعجبتني، فاشتري (دماغه) وكسب رضائي.

تعامل مع حقيقتي الجديدة بصدقٍ أكبرُته فيه، فأنا أعشقُ الصّدقَ وسأظلُّ أعشقه مهما أصبح حياتنا كذبًا في كذب.

أصبح البحث عن الحقيقة أمرًا دونه الأهوال. صرح رئيس الجمهورية أن المطالبة بتعديل الدستور في الوقت الحالي تعدُّ خيانة؛ لأن التعديل سيحدث فوضى في البلد.. يا حوستي وحوسة أمني.. هلّلت لتصريحه رؤساء الصحف القومية المُعيّنون بالاسم من قبله، كما هلّلت له صحيفة إسرائيلية تحت دعوى أنه رجل سلام معتدل. لكنه لم يلبث - بعد أن تزايدت عليه الضغوط من الداخل والخارج - أن أعلن عن قراره بتعديل المادة ٧٦ فقط لتحويل الاستفتاء على رئيس الجمهورية إلى انتخاب بين عدة مرشحين. لم يقترب من المادة ٧٧ التي لا تحدد مدة معينة لبقاء الرئيس في الحكم. كان نواب الشعب القُدّامي قد استحدثوها في عصر السادات. لم يتطرق أيضًا إلى تعديل المواد التي لا تُحدُّ من صلاحيات رئيس الجمهورية والتي جعلت منه مالِكًا مطلقًا لكل السُّلطات.

ثم إنه ترك لائحة القرار التنفيذية لجهازة القوانين يصيغون التعديل بما يضمن بقاءه بالحكم حتى يورثه لابنه من بعده.. على الفور هلّلت الأصوات نفسها تباركُ قرار الرئيس وتُشيدُ بـ "الانقلاب الديموقراطي الذي يحدث في تاريخ مصر لأول مرة". فقدوا ذاكرتهم فجأة إذ نسوا أن التعديل كان منذ قليل خيانة، وراحوا يمتدحون "حكمة الرئيس ونفاذ بصيرته"، حتى أن أحدهم تباكى على زُهد

الرئيس وحرمانه من شم رائحة "طشة الملوخية" في المطبخ لكثرة أعبائه التي تحول دون ذلك. كان منطقهم مُستمدًا من مقولة الرئيس المكررة بأن الأحوال العامة في مصر لا تسمح إلا بالإصلاح التدريجي حتى لا تحدث ما أسماها الفوضى التشريعية، مُدعماً بتصريح لاحق لرئيس الوزراء الأخير في مؤتمر صحفي بأمريكا مؤداه أن الشعب المصري يفتقر إلى النضج السياسي الذي يجعله جديرًا بالديموقراطية، وأنه بحاجة إلى التدريب عليها تدريجيًا وعلى جرعات محسوبة وإلا أدت الفوضى إلى استيلاء الأصوليين على الحكم، الأمر الذي لا يرضاه الغرب ويجعل السيد بوش يستشيط غضبًا.

من الغريب أنني نمتُ بعمق في العربة الأميرية التي اصطحبوني فيها إلى المصنع الحربي لاستجواب رئيسه الذي أمدني بالمسحوق. في المساء كنتُ أرقُدُ في زنزانة بسجن عابدين. كان صبحي منخرطًا في البكاء بالزنزانة المجاورة. أكلتُ الفول الأميري المدمس والفجل الملطخ بالطمي بشراسة شديدة. التقيتُ للمرة الأولى بعالم الإجرام والمجرمين. أفردوا لي قطعة كبيرة من الورق المُقَوَّى على أرض الزنزانة. خلعتُ حذائي ووضعتُه بتلقائية تحت رأسي كسجين متمرس. تمددتُ عليه وبدخلي نشوة خفية كما لو أنني أشاهد تمثيلية كوميدية، أو كأنني أرقُبُ في فضول شديد ما يحدث لي وكأنه يحدث لشخص آخر غيري. لم أفكر في سميرة منذ لحظة الهجوم عليَّ في صحراء مصر الجديدة وحتى لحظة

النوم السعيد على "البورش" الورقي. لم أفكر أيضًا في النصر الذي لا
بديل عنه ولا في زوج شقيقتي الذي يستحيل أن أراه مرة أخرى.

قال لي كبيرهم وأنا لا أعرف إن كان هو الآخر مرشدًا مثل
القططي الخائن أم مجرمًا قادمًا لتوّه من جناية بشعة ارتكبها:

- قل لي إيه حكايتك بالضبط؟

حكيتُ له ما حدث بأمانة. ضحك في ثقةٍ وأصدر قراره:

- لن تبیت معنا اليوم.

تفألت بنبوءة المجرم فسألته بمودة صديق قديم:

- ماذا تقصد؟

- لو كان ما ذكرته صحيحًا فأنت لم ترتكب جناية.

- بشرك الله بالخير يا أخي.

- لكن خذها مني نصيحة: لا تمش معهم في الأزرق.

- الأزرق؟

- يعني قل لهم الحقيقة كما قلتها لي لتوفر على نفسك الضرب
والإهانة.

كان المحقق برتبة عميد. نظر إليّ في دهشة أغلب ظني أنها راجعة
إلى صغر سني، وسألني بابتسامة ساخرة:

- هل أكلت الفول الأميري والفجل يا بشمهندس؟

- نعم.. ونمتُ أيضًا.

لم أقل غير الحق، فعندما جاؤوا يستدعونني في المساء وجدوني مستغرقاً في النوم بالزنزانة، مثلما استغرقتُ من قبل بالعربة بعد القبض عليَّ بعدة دقائق.

استدعني المهندس صبحي ووقفنا معاً أمام العميد. انتهى التحقيق بنصيحة لم أنسها حتى الآن:

- إياك أن تفكر في المكسب السريع مرة ثانية وإلا انحرفت عن الصواب دون أن تدري.

تأثرت بلهجة الرجل الأبوية الصادقة، وحنانه الممتزج بالحسم والشدة تجاه شاوين في مقتبل العمر، فلم أعلّق. واصل حديثه:

- سنكتفي هذه المرة بإخطار جهة عملك لتوقيع جزاء إداري عليك.

كان معظم حديثه موجّهاً إليّ وحدي منذ بداية التحقيق وكأن صبحي غير موجود.

عدتُ إلى صديقي المجرم لأودّعه قبل الانصراف. شكرته على كرم ضيافته وحُسن نصيحته. ودّعني بحرارة دُهِشت لها. انصرفنا بعد مصادرة البضاعة والفلوس وكل شيء. تذكرتُ السيدة زينب والحسين. كنتُ مُفلساً تماماً. قلت لصبحي:

- أنا جوعان.. جوعان.

لم ينطق فسألته:

- كم معك؟

- سبعة جنيهات.

- أعطني جنيهين حتى أعود إلى الإسكندرية.

باستسلام جميل أعطاني الجنيهين.

- أَلَسْتُ جوعان؟

- مِن أين تأتيني الشهية للطعام؟

كان مُحَطَّمًا ولكني لم أعبأ بذلك. سحبتُه إلى مطعم قريب فانقاد ورائي كما لو كان تحت تأثير منوم مغناطيسي. جلسنا إلى مائدة صغيرة. لا بد أن أروى لسميرة هذه المغامرة الظرفية التي جعلت مني ردَّ سجون. أكل صبحي قطعتين من اللحم ثم توقَّف. أكلتُ نصيبي وبقية نصيبه ثم دَفَعَ الحساب وتقياً ما أكله في الطريق. تنسمت هواء الحرية في شوارع القاهرة الساحرة بمعدة ممتلئة وعينين تلتهمان الشوارع والأزقة بحبٍّ وشغف رغم الحظ المنحوس الذي لا يريد مفارقتي، والذي أخاف منه على جوهرتي الغالية التي ربطت مصيرها بمصيري. حُجزتُ في الديزل الفاخر إلى الإسكندرية ولم يكن بجيبي سوى علبة سجائري وربع جنيه!

لماذا لا نهرب معًا يا حبيبتى من هذا البلد ونعيش معًا في قارة أخرى لا يعرفنا فيها أحد ولا نعرفه؟ نرتشف من رحيق الحب حتى الشالة ونقول على الدنيا السلام.. خلاص! فقدت يا عم الحاج؟ لكن ما الغريب في الأمر؟ واحد اسمه المهندس مراد عامر أحبّ واحدة اسمها سميرة وهو في العشرين ثم تزوجها، وواحد آخر اسمه المعلم مراد أحبّ واحدة اسمها غصون بعد أن تجاوز الستين، لكنه لا يعرف كيف سيكون مصيره معها.

دكتورة في الفلسفة. لم تكذ تتجاوز الثلاثين. ترملت منذ ما يقرب من عامين بعد رحلة زوجية سعيدة قصيرة لم تدم أكثر من سنوات قليلة، لم تنجب خلالها لعلّة في بدنّها. لم يفكر زوجها-وكان طيبًا-في طلاقها، فقد كان يحبّها حبًّا شديدًا، أما هي فكانت تحترمه وتطيعه وتعمل جاهدة على إسعاده، حتى أنها عرضت عليه-كما في الأفلام-أن يتزوج عليها ليتمتع بنعمة الأولاد. لم تكن عاطفتها تجاهه فاترة ولكنها كانت تفتقد السخونة والاشتداد والتوهج. رغم ذلك فقد كانت قانعة بحياتها معه. لم أعرف إن كانت علتها البدنية هي التي أفقدتها عنفوان الرغبة واشتعال المشاعر وثورة الجسد، أم أن هناك أسبابًا أخرى لم تشأ أن تفصح لي عنها. حياؤها الفطري التلقائي يمنعها من التصريح بأسرارها الأنثوية الخافية. أرى الفضيلة متأصلة في طبعها، ورغم صغر سنّها فوقارها كوقار من بلغن الستين وإن لم يقتل فيها جنون الشباب.

هناك فرق بين ضربات القلب في العشرين وضرباته في الستين. الزمن أضفى على دقاته عمقًا وأضاف إليها أصداً متنوعة من التجربة

والنضج والانصهار في أتون الحياة. ضربات العشرين صارخة طائشة
جامحة مجنونة رائعة. ضربات الستين تفيض بالحنان والشجن. مطمئنة
هادئة.. ومهما يقطع الزمن من رحلته الأزلية الأبدية فإنه لا يتخاصم
يوماً مع الحب في أي عمر من عمر السنين.

كانت سميرة "قطتي الوديعة" و"جوهرتي الغالية" و"يماستي
الرقيقة" في زمن النبضات الشابة. اليوم أصبحت غصون "واحة
سكيتي" و"روضة فكري".. على شفتي ترسم ابتسامة الذي ذاق
عرف، حين يخطو خطواته الأخيرة على جسر الحياة ناسياً كل شيء،
تاركاً كل شيء، حتى الذكريات، ما فات منها وما مات، ولم يبق في
الخاطر إلا انتظار اليوم العظيم حين يستحيل عالم الفناء إلى بقاء مُخلَّد.

هذا عن الأرملة الأولى..

أما الأرملة الثانية: أم فؤاد، ف عمرها من عمري. استشهد زوجها في
حرب أكتوبر وكان يحمل رتبة "صول". كرّست حياتها من بعده لتربية
أولادها حتى تخرجوا في الجامعة. فؤاد يعمل اختصاصياً اجتماعياً. كثيراً
ما يحضر بمفرده لمساعدتها وأحياناً بصحبة أصدقائه الذين يحبونها كما
يحبون أمهاتهم. يسعدون بها ويعشقون الحديث معها والاستماع إليها.
حين تهيم ملائكة الحب في أي مكان على الأرض يصير جنة. أنا أسمع
خفيف أجنتها كلما جئتُ هنا.

بدأت مشروعيها بعشة صغيرة أقامتها على الشاطئ لإعداد القهوة
والشاي. تطوّرت العشة مع السنوات إلى كافيتيريا ووحدة خلخلة

الملابس ومطبخ صغير لإعداد المأكولات السريعة. أم فؤاد صدرها عريض جدًا، بمقدوره أن يحتضن الدنيا بأسرها ويغدق عليها من حنانه. أنا أحبُّ هذا الصدر حبًّا روحانيًّا خالصًا لا يغضب الله، وأغلب ظني أنه يرضيه. ما زالت معالم جمال قديم ترتسم على وجهها السمع الذي لوَّنته الشمس بلون النحاس.. بعينها العسليتين تطلُّ على الدنيا بنظرة عميقة شاردة تنطوي على حكمة ومعرفة وصبر وتجربة ورضا وشيء من السعادة وشيء آخر من الزهد والشبع والاستسلام للقدر.

عرفتُ زوجها حين كنتُ مسئولًا عن الشؤون الإدارية بوحدة من سلاح الشرطة العسكرية تعسكر قريبًا من شركتنا. كثيرًا ما كان يجيء إلى مكنتي طالبًا بعض الأدوات الكتابية للضابط رئيس الوحدة. رغم أدبه الجم فلم أكن في البداية متحمسًا للاهتمام بطلباته لأنني أكره تلك العادة القبيحة عند كثير من رجال الشرطة. أن يحصلوا على ما يريدون بلا ثمن.. حتى جاء يومًا يطلب كمية من البنزين لملء تانك عربية "الباشا" الملاكي. كنتُ على وشك أن أطرده لشدة غيظي من طلبه السخيف. قابلَ ثورتي بابتسامة هادئة. نجح في امتصاص غضبي واستدرجني في الحوار بصبر ومهارة حتى قال لي:

- هذا البلد ليس لنا. إنهم أصحابه منذ نصف قرن. هم يتصرفون على هذا الأساس.

- من هم؟

- العسكري يا بشمهندس بجميع صنوفهم.

تولدت بيننا صداقة لم أتوقعها بكل المقاييس. حزنت علي فقده ووقفتُ إلى جانب أم فؤاد أقدم لها كل ما احتاجته من عون بعد رحيله. أصبحت "كافثيريا الشاطئ" سنين طويلة هي ملجئي وملاذي حين أشعر بالضيق والاختناق. لم يكن ارتباطي بالمكان نابعا من عشقي للبحر وتوحيدي الأبدي معه فقط، بل لأنني أحببتُ أم فؤاد حبا رائعا فريدا في طبيعته. كنتُ في حاجة إلى امرأة من هذا النوع في حياتي. في حديثها ونبرات صوتها ونظرات عينيها وضحكها وبكائها، أرى شقيقة حبيبة لم تلدها أمي التي لم تنجب غير الذكور. أتمنى أن ألقى رأسي على صدرها أحيانا، ولا أقول شيئا ولا أحاول أن أفهم شيئا، فالناظر في الأقدار كالناظر في عين الشمس يبهره ضوءها ولا يقف على كنهها.

إلى البحر.. لا ملاذ لي غيره. على شاطئ مهجور خلعتُ ملابسني بأكملها ومارست عُرِّي المحبب دون خشية من أن يراني عابر مُتطفل. أسبحُ تحت الماء. أغتسلُ من آثار مغامرتي الفاشلة. أعودُ إلى روحي وتعود إليّ. أحدثُ نفسي بصوت عالٍ لا يسمعه أحد. لا أكتفي بالابتسام وإنما أضحك وأقهقه على تفاصيل ما حدث. ذلك الاتساع اللامحدود أقدسّه. يُقربني من رحمة الله. تذوب فيه أفكار المتقاتلة. لا يعنيني أمس ولا يوم ولا غد، فهل تفكر سمكة في ذلك؟ صلاة الطبيعة تطهر أعماقي. تُمتعني بلحظات صفاء لا يمحوها الزمن من الذاكرة.. وأخرج من البحر مولودا جديدا، ولا بد من وضع حدّ قاطع

لارتباكي في مواجهة الحياة، فالأمانى الحلوة لا تموت إلا في نفوس الكسالى.

في المساء جلستُ أستمع إلى نشرة الأخبار لأتابع نتائج المحاكمة العسكرية للمسئولين عن هزيمة الجيش الكبرى التي أسماها عبد الناصر بالنكسة. لم أصدّق ما سمعته. مجموعة من صغار الضباط وبعض مساعديهم هم المسئولون! لم يكن بمقدوري أن ألغي وظيفة عقلي، لكنني تمكنت من الترويح عنه باجترار أحداث يوم جميل لا يُنسى...

كان لقاءنا كالمعتاد في كازينو الغزال على الشاطئ. اصطحبتُ سميرة شقيقتهما نرجس التي جاءت لتشاهد الحب في عيوننا. قلتُ لها فجأة:

- يوم الخميس القادم إن شاء الله.

تساءلت سميرة بدهشة طفلة رغم اعتيادها كثرة مفاجآتي:

- إيه؟

- يجب أن ترتدي أجمل ثيابك في ذلك اليوم.

اندفعت الدماء إلى وجنتيها وأدرتُ وجهي أقرب أمواج البحر المتعانقة.

- مراد.

تعمّدتُ ألا أجيبها ولم أغيّر وجهتي عن عمدٍ. دفعتُ بسبابتها إلى
ذقني في الاتجاه المضاد حتى أنظر إليها. كانت مترددة وهي تفعل ذلك
كمن يقدم على عمل مُحجّل لا يحقُّ له أن يفعله. ضحكتُ من أعماقي
وواصلت إصدار أوامر:

- وأن تضعي فلة بيضاء على صدرك.

استبدّ بها الشَّغف بينما نظرت إليّ نرجس بعينين تشعان بريقًا
غامضًا أخاذًا. قلتُ بهدوء:

- سأحضر ومعي أبي وأخي الأكبر.

صاحت مندفعة:

- عندنا؟!!

أنا الذي يحقُّ له الشَّغف، فتلك لحظة عمري. بلغ تأثرها مداه
فسألتها:

- هل أسألكِ معروفًا لا أنساه لك مدى الحياة؟

- نعم.

- هل تقبليني زوجًا لك؟

تشجّعت هذه المرة فمدت يمينها بأكملها ودفعتني برفقٍ جميل على
خدي الأيمن فقلتُ لها بابتسامةٍ نابعة من الروح:

- الله.

ثم أدركتُ لها خدي الأيسر على الفور..

- طبقي تعاليم السيد المسيح.

- لن أضربك لأنني أحبُّك.

كادت تطير في الطريق إلى سماءات أعلى من سماواتي. ربما كانت
بفطرتها أكثر إدراكًا مني لمعنى السعادة في تلك اللحظات.

بعد أيام أضعُ قدمي على أعتاب بيتها، أحبُّ بيتي إلى قلبي على
وجه الأرض. أريد أن أنثر معها على الدنيا ورود المحبة والسلام. إن
أقصى آمياتي اليوم أن تبقى نظرتي إليها مهما يطل العمر كيوم أن وقعت
عليها عيناى لأول مرة. أريدُ للزمن أن يتوقف عند هذه اللحظة.

كنتُ بسذاجتي أتطلّع إلى المستحيل...

لا أستطيع أن أستوعب أبدًا كيف ارتكب بي الزمن جريمته الأزلية
بهذه السرعة المخيفة دون أن أشعر به. أنا أعرفُ أن كل شيوخ الدنيا
يقولون الكلام نفسه، ولكنني لستُ أقوله وإنما أغنيّه على إيقاعٍ من
الدهشة يخلو من الحزن، ذلك لأنني لا أصدقه.

سميرة تجلس أمامي في صمتٍ جميل وقد تدلّت على جبهتها خصلة
بيضاء. انتهى الكلام ولم يبق إلا الصمت. تزوج من الأولاد من تزوج
وسافر من سافر وبقينا وحدنا نجتُر الذكريات. دورة عبثية: نحبُّ،

ونتزوج، وننجب، ويكبر الأطفال ويتزوجون، وينجبون، ونرى أحفادنا أو لا نراهم ثم نموت. إنني مندهش، فما جدوى ذلك كله؟

لو تركت نفسي لتأملات المهندس مراد سيضيق مني المعلم مراد، خلاصي وملاذي ومنقذي. إنه ما زال جنيئاً بحاجة الحُضن والرعاية والحنان حتى ينمو ويكبر. عليك بالاختيار بين ما تجلبه لك الكتب والسياسة من همٍّ وغمٍّ، وبين ما يفسح لك به صدر أم فؤاد من فضاء تنطلق في سمائه محلقاً فوق أمواج البحر والحياة. خضعت لعقلك فلم تجن شيئاً. لم ينفعك السُّكر ولا المخدر ولا التصوف ولا السحر ولا حتى الوقوف على حافة الموت كي تفر من معاقل عقلك. أصبحت صفرًا متجمدًا. آن الأوان لأن تطلق روحك من محبسها بعد أن شُلت إرادتك بفعل الملل. لا تعباً بتحذيرات الشيخ قناوي ودع طيور الحرية تعربد في سماء حياتك وتملؤها بالأناشيد، وإلا فإنك تفقد إيمانك وتموت، ولا إيمان بغير حبٍّ، ولا حب بغير إيمان.

لو سألتني غصون: لماذا أحبُّها؟ سأقول لها في مقدمة إجابتي: إن الحب لا يعرف كلمة لماذا، وبعد ذلك أنقض قولي فأقول لها: لأنك أضفتِ إلى حياتي حياةً جديدة. كنتُ أحسب أن سنواقي قد انتهت فإذا بها تبدأ بك، فهي من خلقتك وإبداعك وابتكارك. أنت صانعتها الحقيقية. الله بعث بك إليّ لتمنحيني إياها بروحك وقلبك وعقلك وجسدك. أي عطاء إلهي أكرم من ذلك؟ وأي حبٍّ عظيم يكنُّه الله لي! الله خلاصي في السماء وأنت خلاصي على الأرض.

- قَبِّلني يا مراد.

وأُقَبِّل شفتيها الشهيتين مُحتويا سُفلاهما الممتلئة وعليهما الصارخة
بالفتنة معاً، فيمتزج الرِّضابُ وترتقي بي إلى فردوس النشوة، وأخفُّ،
وأطيرُ، وأعلو، وأُعَرِّدُ، وأرقصُ، وأغني.. ثم أتلاشى.

لم تتطرق المحاكمة إلى أسرار طائفة المشير وسهرات الخمر
والرقص وتغلغل الجاسوس الإسرائيلي في قلب سلاح الطيران
المصري. جندي وملازم هما المتسببان في النكسة! يا أخي أحه
إسكندراني ومن قبلها شجرة طويلة عريضة عميقة مُنغمّة..

ويرقص القلب طرباً حين أضع قدمي على مدخل البيت. بيت
حبيتي. تفتح لي الدنيا ذراعيها بابتسامة واعدة. أعدُّ الثواني وأنا أصعد
الدرج. ما أروع نبضات القلب لإشراقة الحياة! بروحي شغفٌ جارف
لرؤية الجدران التي تحيط بكيان حبيتي. الغرف التي تمشي فيها. المقاعد
التي تجلس عليها. الفراش الذي تأوي إليه في المساء. الأمُّ التي أنجبتهَا
والأب الذي جاءت من صلبه. أخوتها الذين يشبهونها. أعانق الكون
فيعانقني بالشوق نفسه وأدخل. بعد قليل يُعلنُ حبنا على الملأ ويتتهي
زمان الخوف والحذر والحشية من عيون الرقباء.

كان السُّلم مضاء والباب مفتوحاً على مصراعيه، يحفُّ به نور
شفاف، تنصدره ابتسامة ملائكية رائعة على وجه أمها الذي لا يقلُّ
جمالاً عن وجهها.

- أهلاً يا مراد.. تفضل يا بني. تفضلوا.. أهلاً وسهلاً.

لوحات جميلة معلقة على الحوائط موقّعة بالتوقيع نفسه. عرفت فيما بعد أنه توقيع أبيها. صافحني خالها بحرارة شديدة كما لو كان يعرفني من قبل. الطيبة والحزن متأحيان على وجهه. مات بعد ذلك بعدة أشهر مقهوراً باستشهاد ابنه الوحيد في حرب اليمن.

بعد قليل حضر رجل وسيم أحمر الوجه والشعر يبدو في الأربعين وقد تفجرت الصحة من وجهه. يرتدي حُلَّةً كلاسيكية كاملة. قالت لي سميرة إنهم اضطروه إلى ارتدائها رغم أنه لم يكن يرى ضرورة لذلك.

بابتسامة راقية تقطر حياء وقف إلى جوار الباب وطرق عليه طرقتين مستأذناً في الدخول كما لو كان ضيفاً. كنتُ مُستمعاً بابتهاج شديد إلى حديثه الخجول. لم أصدق أنه أبوها.

كانت نظراته مُنصبّة باهتمام كبير على وجه أخي الأكبر حسن الذي كان مُتأنّقاً للغاية، وهو الذي لا يظهر في محيط أسرتنا إلا مرة كل عدة أعوام. صافحتني نرجس. تفجّرت من عينيها علامات تفكير عميق لم أتبيّن علاقته بهذا الموقف. بدت لي ملامح وجهها وكأنها حزمة من أسلاك حاسب آلي.

فجأة قال أبي-وهو رجل طيب يقول أي شيء في أي وقت لأي أحد-مشيراً إليّ:

- مراد ولد طيب ومطيع.

لا شك أنه تقديم عظيم! على أثره تحولت نظرات صهري المنتظر عن أخي إليّ. بدا متردداً حيران في معرفة أينما هو هذا الولد الطيب المطيع الذي جاء يطلب يد ابنته. تبادلَ حسن ونرجس نظرات يصعب تفسيرها. رأيتُ في عينيها تحدياً وفي عينيه خوفاً. ماذا تتحدّى نرجس وممّ يخاف حسن؟ لم أدع ذلك الأمر يشغلني عن لحظات عمري المصيرية.. ثم مرّق طيف جميل في الممرّ المواجه لغرفة الاستقبال. أين أنتِ؟ أدفعُ حياتي ثمناً لرؤيتك في التوّ واللحظة لتشهدني فرحتي بك وأشهد فرحتي بك. قالت الأمّ الجميلة:

- تعالي يا سميرة. لا تحجلي. إنه مراد.

ضجّوا جميعاً بالضحك. كانت ملامح وجوههم تعبر بالتجربة عن اعتياد مثل هذه المواقف المتكررة في حياتهم، بينما كان الموقف عندي جديداً وناصباً ومثيراً. كان الأول في حياتي والأخير.

التقيتُ بها في الأراضي المقدسة منذ ما يقرب من عام أو يزيد. كنا في الحرم النبوي الشريف بانتظار أذان صلاة العصر. كان الزحام شديداً. لاحظت حيرتي في البحث عن مكان. أفسحت لي مكاناً بجوارها. كان بيدها كيس صغير تخرج منه حبات من الفستق وتأكلها ببطء ورقة ووداعة. بعد قليل انتهت إلى وجودي فقدّمت لي كل ما بيدها. قلت لها بالإنجليزية:

- هذا كثير.

أجابتني باللغة نفسها:

- معي أكثر.

عاودت فتح الكيس. كنت أحسبها إيرانية كبقية المجموعة الجالسة من حولنا فسألتها: كيف تستطيع أن تقرأ القرآن بلغته الأصلية؟ قالت وهي تبسم بهدوء:

- لأن اللغة العربية هي لغتي الأصلية.

أصابتني إجابتها بالخيرة والدهشة حين تابعت ببساطة:

- أنا مصرية.

أدركت في هذه الدقائق القليلة أنني أمام إنسانة معطاء وخفيفة الظل أيضًا. وجدتُ بنفسي رغبة في المزيد من استكشافها.

- وهل أتيتِ إلى هنا وحدك؟

- مع أبي يصلي في الفندق لأنه مريض.

- وفي أي فندق تنزلان؟

- في الفندق نفسه الذي تنزل به.

قالتها بعفوية وكأن الأمر يخلو من مفاجأة. أضفت المشاكسة إلى بنود صفاتها في معجم الاستكشاف الفضولي الذي استبدت بي الرغبة في فتح المزيد من صفحاته.

بعد الصلاة استأذنت مني في حسم لتعود بمفردها إلى الفندق.
أدركتُ كم هي واثقة بنفسها وتعرف تمامًا ماذا تريد.

عندما رويت لسميرة ما حدث لي في القاهرة قالت من خلال
دموعها:

- اللعنة على الفلوس وأصحابها. ماذا كنتُ أفعل لو سجنوك؟

قلت لها إن أحوال البلد غير مطمئنة وإن المستقبل لا يبشر بالخير.
سألتها: هل من المعقول أن يكون المتسبب في هزيمتنا و"وكستنا"
ضابط صغير وصف ضابط؟ وهل من المعقول أن تتفرغ الحكومة -كما
يقول رئيسها- لتنفيذ خططها الاقتصادية في سبيل رخاء مزعوم وترك
اليهود يحتلون أرضنا ويهدرون كرامتنا؟ يقول سيادته: "خسرنا المعركة
ولم نخسر الحرب" يا سلام!

قلتُ لها: إنني ذهبتُ إلى الكلية لاستخراج شهادة الماجستير حين
اندلعت مظاهرات الطلبة بعنف لم أشهد له مثيلاً من قبل. اعتقلوا
محافظ المدينة داخل أسوار الكلية. تبادلوا اختطاف الميكروفون في
المدرج الكبير وصدورهم ملطخة بالدم المنبعث من أثر طلقات الرش
التي استخدمها البوليس لتفريقهم. كانت جموعهم الهادرة تهتف
بسقوط وزير الداخلية خلال استماعهم إلى الخطب الحماسية الملتهبة من
المصابين. أقاموا محطة إذاعة موجهة من خلال ميكروفونات كبيرة إلى

الجماهير في الشارع. اشتبكت الجماهير مع البوليس وانهالت عليه رميًا بالطوب والحجارة وازداد الموقف اشتعالًا. ضربوا ضابط بوليس كبيرًا عندما بصق في وجه أحد زعماء المظاهرة. ألقوا به أرضًا وبالغوا في الإساءة إليه جزاء لفعلته. بكى المحافظ وهو يقول لهم بإشفاق حقيقي:

- أنتم أولادي.. اهدؤوا حتى نتفاهم.

لو لم أنصرف في الوقت المناسب لقبضوا عليّ بتهمة أنني "مهندس" أو أنني عنصر غير طلابي ساهم في إثارة الطلبة وتحريضهم، مثلما حدث مع صديقي عبد الحليم هاشم الذي تخلص من تعذيبهم بالانتحار في المعتقل.

لست أدري لماذا قلت لها هذا كله، ولا لماذا حددت لها الأسبوع الأخير من نوفمبر موعدًا لعقد القران. قررت أن أحسم الأمر وأتوكل بأن أحتاط من غدر الزمان وتقلبه بحد أدنى من الفعل. أخفينا عن أبيها أنني مُستدعى بعد أسبوع من توقيع العقد، وليكن العالم ملكًا لنا في ظلّ الهزيمة أو النصر، فإبراهيم النحراوي لن يعود، ونساء بني صهيون تستحم عاريات في قناة السويس أمام جنودنا الممنوعين من إطلاق النار على الضفة الشرقية، وفاروق النجار محبوس في زنزانة بمكان مجهول لأنه ألقى بين أصدقائه-المخلصين-بنكتة سياسية عابرة، والله أعلم ماذا يفعلون به الآن، وأي نوع من التعذيب يمارسونه معه.

من الملف رقم (٢)

"تذكر منظمة هيومان رايتس واتش أن وسائل التعذيب في مصر تتضمن الضرب بالأيدي والأقدام والأحزمة والعصي والأسلاك الكهربائية والتعليق في أوضاع ملتوية ومؤلمة مع الضرب واستخدام الصدمات الكهربائية والاغتصاب والعنف الجنسي. وقد رصدت الجمعية المصرية لمناهضة التعذيب أكثر من ثلاثين حالة وفاة نتيجة التعذيب في أقسام الشرطة وحدها في الفترة ما بين يونيو ٢٠٠٤ ومايو ٢٠٠٥، بينما لم يحاسب معظم الضباط عن جرائمهم حتى اليوم. وأكدت المنظمة أن العام التالي قد شهد تراجعاً ملحوظاً فيما يتعلق بالحقوق في إبداء الرأي والتعبير خاصة على صعيد حرية الصحافة والصحافيين، سواء بصدور أحكام بحبسهم أو بالتحرشات التي يتعرضون لها من الجهات الأمنية التي تعمل في ظل قانون الطوارئ منذ ربع قرن، تعرض

فيه ما يقرب من مائتي ألف مواطن للاعتقال، منهم عشرون ألفاً في السجون الآن.

وقد ركز تقرير المنظمة المصرية لحقوق الإنسان السنوي لعام ٢٠٠٥ على ظاهرة العقاب الجماعي الذي طال قطاعات واسعة من المواطنين، تضمنت اعتقالات عشوائية واسعة النطاق، واحتجازاً لرهائن، وحظر تجول، وإطلاق النار بصورة عشوائية، كما أشار التقرير إلى اعتقال أكثر من ثلاثة آلاف شخص في العريش وطابا بعد التفجيرات الغامضة التي حدثت هناك..."

وكان عبد القادر يلقي على مجموعة الأدباء قصيدة أمل دنقل:

أبانا الذي في المباحث/ نحن رعاياك/ باقٍ لك الجبروت/ وباقٍ لنا
الملوكوت/ وباقٍ لمن تحرس الرهبوت، حين قدمت لهم المشروبات
وجلست بينهم أستمع إلى بقية القصيدة التي رفعت ضغط دمي إلى
الذروة. لم تكن تحية بينهم ولم يعرف أحد سبب تغييبها وهي التي تداوم
في غير انقطاع على حضور الندوة. أمر هذه الفتاة يُحيرني. تُثير في نفسي
تساؤلات عديدة، فهي تجمع بين الحجاب والاختلاط بالرجال
والتحاور معهم في جرأة وثقة حول أشد الموضوعات حساسية لأُنثى.
في صوتها معنى الرجولة وفي مواقفها قوة وصراحة ووضوح. هي
سليلة أسرة ينتمي معظمها إلى جماعة الإخوان المسلمين. الحجاب الذي
ترتديه ليس تقليدياً. مجرد "إيشارب" تغطي به شعرها، وجلباب واسع
طويل لا يبرز مفاتها، خاصة وأنها تعدُّ من الجميلات. لم تتزوج مع أنها

- في ظني - تجاوزت الخامسة والثلاثين. لم أتعجب كثيرًا فمصر أصبحت مليئة بملايين العوانس بسبب الفشل الاقتصادي السياسي المريع الذي نعانينه. سألت عنها صديقًا يعمل معها في إحدى شركات قطاع الأعمال المعروضة للبيع. قال: إنها محاسبة ممتازة وعلى خُلقٍ رفيع، وتعجب كيف يعمى زملاؤها عن محاسنها فلا يتقدم أحدهم طالبًا يدها. ازداد تقديري لها حين أيقنت أنها تفجر طاقاتها المضغوطة في أنشطتها الأدبية والنقابية عوضًا عن أن تجلس خاملة في انتظار العريس.

بعد قليل فوجئنا بها تدخل إلى المقهى مصطحبة معها فتاة تصغرها قليلًا. قدّمتهما إلينا وهي ممسكة بيدها في مودة وحنان قائلة:

- الشاعرة إيمان عازر، من أعز صديقاتي.. كانت مترددة في الانضمام إلى الندوة ولكنني شجعتها.

بعد إتمام التعارف دعتهما تحية إلى إلقاء بعض قصائدها التي لاقت الإعجاب والترحيب من المجموعة.. غير أن نوفل عبد الحميد أراد أن ينتهز الفرصة لاستعراض ثقافته فقال بنبرات تقطر خبثًا وكأنه يُلقي خطبة:

- جميل أن تنضمَّ إلينا شاعرة مسيحية، فالدين لا يعوق تواصلنا؛ لأن التاريخ يقول إن الوثنيين اضطهدوا المسيحيين في البداية ثم بعد ذلك اضطهد المسيحيون الوثنيين، ثم اضطهد المسيحيون المسيحيين المخالفين لهم في شكل العقيدة، واليوم يضطهد المسيحيون المسلمين على مستوى العالم ورغم ذلك فمصر ستبقى بخير لأنها لا تعرف التعصب.

تمنيت أن أعرف المزيد عن تحية، وفكّرت بجدية في البحث عن زوج مناسب لها.

ليكن العالم ملكًا لنا في ظلّ الهزيمة أو النصر، وليسعد القططي بخُذعته الدنيئة التي حاول بها تدمير مستقبلي بلا مبرر، وليشرب محمد النجار طلاءه الأسود قبل أن يعرف مني سرّ تبييضه.

على رصيف القطار بمحطة سيدي جابر، تجمّع العساكر بامتعتهم الأميرية وكنتُ واحدًا منهم. لستُ أدري لماذا كنتُ سعيدًا حينذاك، كما لم أحاول أن أجهد نفسي في البحث عن سبب لهذه السعادة. اصطحبني محيي مودعًا. كان الراديو يذيع بيانًا لرئيس الجمهورية. قال عبد الناصر: إنه أصدر عفوًّا عن الطلبة الذين قُبض عليهم في مظاهرات ١٩٦٨. علمتُ بعد ذلك أن بعضًا من زعمائهم لم يشملهم قرار العفو، وإنما حلّقوا لهم رؤوسهم على "الزيرو" وجندوهم تجنيدًا إجباريًا.. وتحرك القطار إلى القاهرة.

٨٣٣٢١١٧ جندي مؤهلات عليا مراد عامر يا فندم. أنتمي إلى جد أجدادي الفرعون الأكبر مثلما أنتمي إلى أمي وأبي ووطني وحيبتي. النوم على رمال الصحراء تجربة جديدة لا تخلو من متعة. السهر مع نجوم الليل وصمت الجبال لا يقلُّ في روعته عن ممارسة طقوس العبادة. يطول الانتظار ويطول معه صبر السنوات المر.

تنحصر المسألة ببساطة في قطعة من الأرض ضاعت في ليلة حمراء
حفلت بهزّ النهود والمؤخرات واستنشاق دخان المخدر وسقوط أحفاد
الفراعنة في قاع العبث. تلك الأرض يجب أن تُنتزع، فهذا قدر لا مهرب
منه. يجب أيضًا أن أتغافل عن شطب اسمي من سجل الدكتوراه وأن
أقطع صلتي بعوالم محيي والنجار والقططي. القططي وحده له عندي
وضع خاص، فأنا لن أدعه يفلت من عقابي مهما يطل الزمن. لن
أستريح إلا بعد الاهتداء إلى دافعه الخفي لتحطيمي وهو الذي لم
يربطني به أي سبب يوقع به ضررًا ليبرر موقفه مني. كل ما بيننا كان
مجرد ارتباط وقتي يزول بزوال سببه. لا أصدق أنه وشى بي بدافع
الحرص على الإنتاج الوطني من السرقة أو ما شابه ذلك. هذا النموذج
الشاذ من البشر لا ينبغي أن يُترك دون حساب.

الذي لا أستطيع أن أتغافل عنه هو أن نبيلة قد ارتدت ملابس
الحداد الكريهة، وأن وليدها الجديد دائم الصراخ والعويل، وأن أمي
مُعذّبة، وأن أبي المضرب عن أي فعل قد أضرب عن الكلام أيضًا، وأن
سميرة تتفنن في مشاركتي الصبر والانتظار.

كم هو رائع صمت هذه الجبال الرائعة المحيطة بي من كل الجهات!
الإحساس بالزمن بين الأسلاك الشائكة منعدم تمامًا. يتعاقب الليل
والنهار في صمت. الأسوار التي أقبع بداخلها تبعد كثيرًا عن أسوار
الموت الحقيقي في مواجهة القناة. قيل إن كتيبتنا هي كتيبة
الوساطات.. ذلك لأنها تعسكر قريبًا من القاهرة بعيدًا عن الموت.
المخلوق الذي كان يمكن أن يكون واسطتي خرج ولم يعد.

انهمك قائد الكتيبة في إلقاء محاضراته عن الدروس المستفادة من النكسة. ألقِ نظرة متفحصة على وجوه العساكر. تبلدُّ أصيل لا مثيل له. رغبة هائلة مستمرة في النوم. أدمغة تخلو من أي شيء. انتظار قلق للحظة توزيع التعيين الأميري من العدس والفاصوليا والباذنجان الأسود. معظمهم عاش حياة الحرمان في قراهم بالصعيد والأرياف. هذا الطعام الأميري الذي يعافه المجندون من أبناء المدن، يقبل عليه العساكر العادة (غير المؤهلين) بشراهة يُحسدون عليها. استوعب العساكر الجامعيون حياة الجندي الجافة الصارمة في وقت قياسي. تحرروا من "دلح" المدينة ورخاوتها وميوعتها. نجحوا في تطوير الجيش أكثر مما نجح في تطويرهم. تدربوا بسهولة على أجهزة القتال الحديثة، بل قاموا بتطوير بعضها بنجاح. تجمعاتهم الليلية بعيداً عن الجنود العادة كانت مصدر متعة لي، إلا أنها كانت في الوقت ذاته نذير خوفٍ وقلق.

فَقَدَ القائد أعصابه فجأة. مرَّ على الطابور بعصية. سأل جندياً ريفياً فاتحاً فمه دون سبب وكأنه يعاني دهشةً أبدية:

- ما اسم قائد الجيش المصري يا عسكري؟

لم يعرف. ظل فاتحاً فمه. احتفظ القائد بتماسكه وهو يتميز غيظاً. سأل آخرين غيره فلم يعرفوا. ارتسمت المأساة على وجهه. أجابه جندي باسم محافظ المنوفية التي جاء منها. صرخ القائد وكان خفيف الظل:

- ألطم على وجهي؟!

أمر بتكدير الكتيبة حتى يقوم عساكر المؤهلات بتلقين الآخرين
اسم قائد الجيش ومن باب الاحتياط اسم رئيس الجمهورية.

تجاوزت مع جندي من الوجه القبلي محاولا الاقتراب من مخه.
سألته عن تاريخ حدوث ما اصطلح على تسميته النكسة-عنوان
المحاضرة-فقال إنه عام ١٩٧٦، فلما رأيتُ الأمر كذلك تجرأت فسألته
عن الجيش الذي انتصر في هذه المعركة فأجاب بثقة العارف:
- الجيش المصري طبعًا.

رغم تلك الثقة فقد تجلت على وجهه علامات حيرة بائسة، وبدا
كأنه يتوسل إليَّ أن أذهب بعيدًا عنه وأتركه لحاله. خُيِّلَ إليَّ أنه لا فائدة
ولا أمل.. الأمر الوحيد المتاح هو الانتظار. ٨٣٣٢١١٧ جندي
مؤهلات عليا مراد عامر يا فندم. لست أدري لماذا الإصرار على هذه
الأنفدم. كان الهجوم في الأصل على "الشقيقة" سوريا ولم يكن على
مصر. يا جدي الفرعون ألا تلهمني المشورة من أغوار خلودك الأبدي.
لا بأس، ليسقط منا الآلاف، لتصرخ النساء كما صرخن من قبل بسبب
"الشقيقة" اليمن. الفائزة الوحيدة هي أم فاروق النجار صاحبة
الزغرودة المميزة، فهي لا تُعنى باليمن أو سوريه أو حتى مصر، ويقال
إن الفرح والحزن شيء واحد عند من يفكر بعمق في مغزى الحياة
والموت.

أتحمنا الجندي الثري الأنيق سليل الأسرة الإقطاعية رضا البنداري
بدجاجه ولحمه المشوي وتفاحه وعصائره يوم عودته من إجازة وقال في
تبريره للنكسة:

- ما حدث كان ثمنًا لنهب أموالنا ومصادرة ممتلكاتنا في غيبة من القانون.

اندفع مختار مرسي- في غياب البنداري- مهاجمًا مقولته بشراسة فقلت له:

- يا قلة أصلك يا أخي. أنت بالذات كنت أكثرنا شراهة في التهام طعامه.

أجاب في حرقة:

- إنه لا يستطيع أن يتخيل معنى أن تسكن أسرة من ستة أفراد في غرفة واحدة. من مثله يعاقبون أولادهم حين يغيبون في الشارع، أما نحن فنعاقبهم لو عادوا مبكرًا قبل موعد النوم.

-

- هل تتصور أنني قضيت ليلة أفكر في ابتكار وسيلة أعلق بها سريرًا بالسقف في فراغ الغرفة حتى أتيح مساحة من أرضها لنوم جزء من الأسرة، وحتى يتمكن الأولاد من المذاكرة وتناول الطعام؟

- إذا كنت تكن لهؤلاء الناس مثل هذه الكراهية فلماذا تقبل الجلوس إلى موائدهم؟

- صدقني أنا لا أكره أحدًا، لكن من حقّي أن أعيش أنا الآخر حياة آدمية.

- وهل منعك أحدهم يا أخي أن تعيش كما تريد؟

كدنا نشتبك في حوار عنيف لا معنى له. أثرت الصمت فالمشرحة لم يكن ينقصها مزيد من القتل. تأملت كثيرًا فيما سمعته تلك الليلة. أنا لا أستطيع الحصول على شقة ولو غرفة وصالة، فكيف لا أخاف ولا أحزن؟

ما إن رأيت سالم عطية سالم حتى انفرجت أساري. هو دائم التحفز للسخرية من أي شيء حتى من نفسه. كلما يراني بجوار مختار يشبهنا برقم عشرة، فمختار طويل جدًا بالنسبة لي لأن جسمي ربع. سالم لا يستطيع أن يكتب أكثر من اسمه وإن كان مولعًا بالتفرج على الصور في الجرائد اليومية. قال ضاحكًا:

- لو علم مختار بحكايتي لحمد ربنا على ما هو فيه.

يسكن سالم في عشة بناها بيديه على ضفة ترعة المحمودية بالقرب من مصنع النسيج الذي يعمل به. وضع لها رقم ٥٥ بالإنجليزية! قال إن هذا الرقم يمنع الحسد ويدفعه إلى الضحك من استحالة وجود شيء في حياته يحسد عليه. عقدته في حياته هي التغيير المفاجئ لمحافظي الإسكندرية. كلما جاؤوا بمحافظ جديد وضع يده على قلبه ورابط كأسد هصور أمام عشته خوفًا من وصول "البلدوزر" في غيبته لإزالة المباني غير الشرعية المقامة على ضفتي الترعة ومن بينها عشته.

قال إنه حتى هذه الساعة لم يتغير المحافظ الأخير ووصفه بأنه "رجل جدع لأنه لم يفكر في إزالة بيوت الفقراء، الظاهر أن أمه كانت على قد حالها".

من الملف رقم (٣)

في هذا الملف يا إخواني سأعرض عليكم نبذة مختصرة من تقرير رسمي حكومي يعقبه استعراض مختصر لرؤية بعض من رموز المقاومة الشريفة لواقعنا الحالي من خلال أحاديث أجريت معهم بجرائد صوت الأمة والدستور والكرامة. هذه الرموز يعرفها الشعب ويُقدِّرها حق قدرها ويحترم كلمتها، ولكني سأنوه عن كل منها -لمن لا يعرف- بكلمات قليلة من المؤكد أنها لا توفِّيها حقها من التعريف الأكمل، أما تحية بسيوني فإنها في رأيي تعبر عن رؤية قطاع كبير من أفراد الشعب العاديين الذين لا يدلون بأحاديث للصحافة ولا تظهر صورهم بالجرائد.

الجهاز المركزي:

يقول تقرير الجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء-وفقا لما نشر ببعض جرائد المعارضة- إن ما يقرب من ١٢ مليون مصري يعيشون في العراء

بلا مأوى، في المقابر والعشش والجراجات والمساجد وتحت السلام.
القاهرة وحدها بها ١.٥ مليون مصري يعيشون في المقابر. يتضح من
التقرير أن الدولة قد تخلت عن مسؤوليتها في توفير مسكن مناسب
للمواطن العادي، وأهدرت كل الإمكانيات المتاحة لها من مال الشعب
بوضعها في يد الأثرياء الذين لا يحتاجون إلى سكن، والدليل على ذلك
هو المليارات التي ضاعت في إنشاء مناطق سكنية فاخرة لا تتناسب مع
مستوى دخل الفرد العادي. تحولت وزارة الإسكان إلى وزارة تخدم
الأغنياء فقط، وتتجنب تقديم أي خدمة للفقراء.. هذا وقد نسبت لهم
شائنة إلى السيد وزير الإسكان وطالبه أحد نواب مجلس الشعب
بالكشف عن مصادر ثروته الفادحة، وهو الذي جاء إلى الوزارة-كما
صرح النائب- "يا مولاي كما خلقتني"، لكن طلب النائب لم يلتفت
اليه.

تحية بسيوني:

- إنهم يحضرون دائماً بالليل. يعتقلون أبي بمناسبة وبغير مناسبة،
ويضربونه ويهينونه، ثم يفرجون عنه. يدخل المعتقل ويخرج منه دون أن
يعرف السبب.

قلتُ لها والحسرة تملأ قلبي:

- لستُ أجد كلاماً أعبر لك به عن أسفي وقلة حيلتي.

- ليت جُرمهم قد توقف عند هذا الحد!

- ماذا فعلوا أيضاً؟

- رفضوا قبول أخي في كلية الشرطة رغم اجتيازه جميع الاختبارات بنجاح.

مهدى عاكف:

قال رئيس مجلس الشعب إنه لا يوجد ما يُسمى كتلة الإخوان المسلمين في المجلس، وأن من يقول ذلك سيُحال إلى لجنة القيم.
... مهدى عاكف هو المرشد العام للإخوان المسلمين.. سأله محرر جريدة الكرامة:

- من يدير مصر الآن؟

- مصر يديرها الآن الجهاز الأمني ولا يديرها سياسيون، والجهاز الأمني متسلط لا يحترم القانون أو الدستور، وهو في النهاية يأتمر بأوامر الساسة الذين يتسلطون على الشعب ويقهرونه في كل مكان.

- ما سرُّ التضييق الأمني على الإخوان؟

- لا يوجد سوى أن هذا النظام استبدادي يقهر الشعب، وكلمها ضعفت قبضته ازداد بطشه.

- تقول بعض التحليلات السياسية إن هذا الحصار الأمني الغرض منه إجباركم على قبول صفقة التوريث وأنكم ستُدْعون في النهاية..

- لا يستطيع أحد أن يجبرنا على شيء لا نقبل به، وموضوع التوريث مرفوض رفضاً باتاً، سواء بالمادة ٧٦ أو غيرها، فنحن نرفض أن يأتي جمال مبارك وريثاً تحت أي شكل، وإذا أراد أن يدخل انتخابات فبعد دورة أو دورتين من ترك أبيه الحكم.

وفي حديث آخر له قال: إننا نحن الإخوان لا نريد الصدام مع السلطة حرصاً على الوطن وليس خوفاً من جحافل الأمن التي تحميها. لقد فقدنا علي يد الحزب الفاسد كل معاني الهمة والنخوة للدرجة التي جعلته يقوم بتسليم الجاسوس الإسرائيلي دون أدنى مفاوضات لإخراج الأسرى العرب بسجون إسرائيل والذين يتجاوزون العشرة آلاف، ورغم أن عزام قد خرج بنصف المدة -حسبما قالوا- فإن الإخوان ما زالوا في السجون رغم أنهم قضوا نصف المدة.

تحية بسيوني:

-تصور يا بشمهندس...ربع مليون قرار اعتقال في عشر سنوات!

فهمني هو يدي:

- كانت أصداء هزيمة ١٩٤٨ هي السبب في إشعال ثورة ١٩٥٢ هل ترى أننا مقبلون الآن على أجواء ثورة مماثلة خصوصاً أن الأوضاع الاقتصادية والسياسية في عهد مبارك أسوأ؟

أجابه:

- المسائل اختلفت كثيرًا، فسلطة الدولة الجبارة أيام الملك فاروق لا يمكن قياسها بسلطة القمع والطغيان في عصر مبارك، وأستطيع أن أقول لك إن إطالة أعمار الأنظمة المستبدة باتت ممكنة من خلال وسائل كثيرة، القمع في الداخل والرهان على الخارج، لكن الثورة ممكنة والغضب الشعبي قادم وكل الاحتمالات واردة... يعني لو قام الغضب سوف تحدث فوضى كبيرة ويسقط النظام حتى لو تدخلت أجهزة النظام القمعية.

- وماذا عن عزوف الجماهير عن الالتحام بكل حركات التغيير؟
- هذا جزء من السلوك والتركيب الاجتماعي للشعب المصري الذي لا يتظاهر ولا يتجمهر إلا نادرًا.

- لكن الشعب المصري تحرك بقوة في انتفاضة يناير ١٩٧٧.

- لقد مرَّ على هذه الانتفاضة أكثر من ثلاثين سنة، ومن ثم فهي استثناء يؤكد القاعدة، فالشعب المصري ليس كالشعب الفرنسي أو الأوكراني، ومحاولة تجميع المصريين في مظاهرة ضد الحكومة من أصعب ما يكون.

...فهمني هويدي كاتب صحافي ومحلل سياسي كبير.

تحية بسيوني:

الشيء المؤلم والمحزن أن الشعب قد استكان للقهر واستمرأه ولم يعد يريد أن يتحرك حتى الآن، ولكنني لم أفقد الأمل، فلا بديل عن الثأر ولو على جثتنا جميعًا.

عزيز صدقي:

إن أي شخص يتابع الأحداث الجارية من الممكن أن يتوقع أن العد التنازلي للحظة انفجار الشعب قد بدأ، فكل يوم حوادث قطارات وانتشار أمراض وغلاء أسعار وحبس صحفيين وتعديلات دستورية مفصلة على نجل الرئيس وقمع للمظاهرات داخل الجامعة، وجميع هذه الأحداث مُقدِّمة للحظة الانفجار التي أتوقع أن تحدث عندما يستمر الرئيس وحزبه في مسلسل التوريث، وستكون لحظة انفجار الشعب هي لحظة تولي جمال مبارك الحكم.

... عزيز صدقي أبو الصناعة المصرية، ومؤسس قلعة القطاع العام الصناعية في عهد عبد الناصر.

مراد عامر:

سألني النادل العجوز:

- لماذا تعلق صورة حسن نصر الله بالمقهى دون غيره؟

فقلت له وكانت دماغه حاضرة:

- لأن زمن انتظار صلاح الدين وعبد الناصر قد انتهى.

٨٣٣٢١١٧ عريف مؤهلات عليا مراد عامر يا فندم.. وأفندم هذه كلمة تركية، وقد خلق الله الأتراك والعثمانيين والإنجليز والفرنساويين والفرس واليونانيين والرومان ليحتلوا أرضنا على مراحل تاريخية مختلفة. في تلك السنوات لم تكن عبارة "lands occupied" قد ابتكرت بعد، لتُشير الحيرة المتعمدة والجدل المقصود، فهل هي أراضٍ احتُلت أم الأراضي التي احتلت؟ هذه العقول الاستعمارية البغيضة تتفنن في خداعنا وتستخف بعقولنا وقدراتنا. الكلب الاستعماري الكريه الذي صاغ هذا القرار، والذي سقط اسمه من ذاكرتي، كان يعلم جيدًا أن الحق يقتضي التعريف حتى يُجسم الأمر.. آه من الضعف والاستكانة والاستسلام والتخاذل. يبدو أننا نستحق ما يفعلونه بنا، فمن رَضِيَ بالأدنى حُرِّم الأعلى.

في تلك السنوات كانت هناك أيضًا "مراكز قوى"، لكن التعبير نفسه لم يكن قد ظهر بعد إلى النور، وإن كان هتك الأعراض وتعرية النساء من ملابسهن الداخلية أمام ذويهن، والنفخ والكهربة ونزع الأظفار ووضع الأوتاد الصلبة في المؤخرات أمرًا واقعا. الذي يحزنني أن الذين يرتكبون هذه الأفعال الخسيسة هم أناس من أبناء الشعب نفسه وليسوا أجراء من جهنم الحمراء، لكن السمة الغالبة عند معظمهم هي السادية والنفس المريضة، فمتى يأتي اليوم الذي أشعر فيه بالأمان فأرى على جبينك المشرق تاج الجمال يتلألأ فوق طرحة زفافك البيضاء؟ يجمع الخلق على أنه حيث لا سلام ولا أمان فلا حياة ولا

حب، ولكنني أرى أن الحب هو الحل الوحيد لمسألة الحياة.. أقرأ الآن خطابك الأخير على ضوء شمعة، فالغارات ما زالت تجريبية.. معه حق صهري الطيب الخجول حين يتبرم من موقعي. خدعته وعقدتُ قراني عليك وأنا مُهدّد بالموت.. لكن أين وطنيتك يا رجل يا طيب؟ أين إيمانك؟ إني هنا لأدافع عنك وعن ابتك، وإن لم يعجبك هذا القول الإنشائي فإنها قالت لك في حسم وقطع بأنها تموت ولا ترتبط برجل غيري، أما أنا فقلت لنفسي ما أحلى الحب يا ناس! وما أجمل أن يوجد علينا المستقبل بأيام نعم فيها بالحرية في وطن تسوده العدالة ونهناً في ظله بالرفاهية والاستقرار! إنني متفائل.

من الملف رقم (٤)

أنا لم أراجع عن وعدي بتقديم ملفاتي لكل من يطلع على مذكراتي ويهتم بأمر هذا الوطن، فما حدث منذ أربعين عامًا أراه نعيمًا ورخاء ورفاهية بالقياس إلى ما يحدث اليوم. إجمالي ديون مصر اليوم ٦٥٠ مليار جنيه. نحو ٤٠٪ من الشعب يعيش في فقر مدقع، منهم ٩ ملايين أسرة تعيش على دخلٍ يُعادل ٦٠ جنيهًا شهريًا. تم تهريب ٣٠٠ مليون دولار للخارج، وأكثر منها خطفها رجال الأعمال المسيطرون على الحكم. الجنيه المصري انهار إلى أقل من سدس قيمته. أنا أنقل هذا الملف من إحصائية قام بتجميعها شباب الحركة المصرية من أجل التغيير والتي اشتهرت باسم "كفاية". كانت ديون مصر في بداية عهد مبارك ٢٨ مليار جنيه تضاعفت اليوم إلى عشرات الأضعاف. سجل شعبنا أعلى نسبة إصابة بالسرطان في العالم، وأكمل الاكتئاب على ما يقرب من ٣٠٪ من شبابه الذين أصبحوا يعانون الضغط والسكر والذبحات

الصدرية والارتقاء، وفتكت الأمراض النفسية بستة ملايين آخرين.. بينما يجلس ٢٩٪ من القادرين على العمل على المقاهي بسبب البطالة والخصخصة. أكثر من ٩ ملايين شاب وشابة منهم أربعة ملايين تجاوزوا الخامسة والثلاثين وما زالوا جميعًا غير قادرين على أعباء الزواج.

بدأ النظام منذ ربع قرن بالإفراج عن الذين اعتقلهم السادات في سبتمبر ١٩٨١، وانتهى بما يقرب من ١٧٠ ألف معتقل ترددوا على المعتقلات خلال هذه المدة، وبقي منهم بالسجون حتى الآن ٢٢ ألفًا. كانت البطالة بعد حادثة المنصة تمثل ٥٪ من القوى العاملة للشعب، زادت اليوم إلى ٢٩٪. أكثر من ثلاثة آلاف شاب سنويًا سقطوا في براثن الانتحار طبقًا لأرقام وزارة الداخلية، بينما هرب الآخرون إما إلى المخدرات ينفثون فيها إحباطهم بما قيمته ٦ مليارات جنيه سنويًا، وإما إلى الجماعات الدينية المتطرفة بحثًا عن خلاص وهمي.. الفشل الكلوي والكبدية دمر حياة أكثر من ٢٠٪ من الشعب من جراء الأسمدة السرطانية المستوردة بلا رقيب أو ضمير. النتيجة أن أصبح أقل من ١٠٪ من الشعب يمتلكون أكثر من ٤٠٪ من ثروته. هكذا انتكس الشعب وغرق في اليأس والإحباط. نسي الحب والتراحم والتسامح والشهامة، لا بفعل الصواريخ والقنابل والمدافع، ولكن باستمرائه الصمت على حكامه الذين قتلوا بداخله الرغبة الصادقة في الحياة، بحيث لم يعد قادرًا على الاعتراض أو الاحتجاج الصامت في مظاهرة

سلمية تحشد لها الداخلية جيوشاً مجيشة من عساكر الأمن المركزي وضباطهم، يقفلون الشوارع ويعطلون الطرق غير عابئين بمصالح الناس.

تفاقت الرشوة والمحسوبة والبلطجة وتعاضمت إرهاب السلطة وامتهان آدمية المواطنين. أُلغيت أدوار الجمعيات الأهلية والنقابات المهنية وتدهور التعليم، وأصبحت مصر بلدًا طاردًا لشبابه الذين تعرضوا للموت، إما غرقاً وهم يهربون منه عن طريق البحر في سفن صغيرة غير شرعية، وإما خنقاً في الصحراء وهم متلاصقون داخل عربات مقفلة بلا تهوية.. غير أن شاباً من أسيوط عمره خمسة وعشرون عاماً قد واتته الشجاعة فعاقَلَ الحراس ودخل من باب القصر الجمهوري المطل على شارع العروبة بمصر الجديدة، حين جرى وراءه الحراس وأمسكوا به، قال: إن الرئيس وعدنا في برنامجه الانتخابي بالقضاء على البطالة وأنا أريد منه أن يجد لي عملاً، علماً بأنني متخرج في كلية التجارة منذ عدة أعوام وليس لي نشاط سياسي، ولم أجد عملاً إلا ليوم واحد في محل كشري.

سَخِرَ منه الحراس وأشبعوه بالطبع ضرباً على قفاه-على الأقل- وحولوه إلى مباحث أمن الدولة التي حولته الي نيابة مصر الجديدة، حيث قرر رئيس النيابة إيداعه مستشفى الأمراض العقلية مدة ٤٥ يوماً للتأكد من صحة قواه العقلية حيث إنه طلب مقابلة الرئيس..

حين أفكر في حياد وتعقل، أدرك أن حبي لغصون هو لذة لا بد أن يعقبها ألم، وشهوة لا بد أن تورث الندم.. أنجذبُ بشغف إلى ابن حزم وكأنه يخاطبني وحدي دون البشر: "اعلم يا مراد يا ابن عامر أعزك الله أن للحب حكمًا على النفوس ماضيًا وسلطانًا قاضيًا وأمرًا لا يُخالف وحدًا لا يُعصى وملكًا لا يُتعدى وطاعة لا تُصرف ونفاذًا لا يُرد، وأنه ينقض المبرر ويحل المبرم ويحلل الجامد ويحلل الثابت ويحل الشغاف والممنوع، فلا يملك الإنسان لنفسه حينئذ صرفًا ولا عدلًا، وهذا من أبعد غايات العشق وأقوى تحكمه على العقل، حتى يمثل الحسن في تمثال القبيح والقبيح في هيئة الحسن، وهنالك يرى الخير شرًا والشر خيرًا، وكم مصون الستر مسبل القناع مسدول الغطاء، قد كشف الحب ستره وأباح حريمه وأهمل حماته، فصار بعد الصيانة علمًا وبعد السكون مثلاً، فسهل ما كان وعراً، وهان ما كان عزيزاً، ولان ما كان شديداً" ..

وهذه الغصون التي أشغفها حباً عمرها من عمر ابني عادل. كثيرات من معارفي وأقاربي ممن هن في مثل عمرها ينادونني بلقب "العم مراد"، فهل يُعقل أن يعشق رجل امرأة في عمر ابنة أخيه، وأن يحلم بها في الليل، ولا يتوانى عن ذكرها في النهار؟ نعم يُعقل. أنا ما زلتُ عند قولي القديم: "ما أحلى الحب يا ناس"! الذي تغير فقط هو المحبوب لكن الحب باقٍ؛ لأنه مُخلَّد على الأرض بأمر السماء. منذ بدء الخليقة والحب يرتبط بمشكلة. آدم وحواء تحابا فعوقبا. الذي خلقهما خلق لهما الشجرة لكنه حذرهما من الاقتراب منها. الحب أنساها

الإنذار. هو كان يعلم مسبقاً بما سيحدث وإلا لما أنزلهما إلى الأرض
لتحقيق مشيئته. حبي لسميرة ارتبط بمشكلة المال والحرب. حبي
لغصون ارتبط بمشكلة الجمود والتحجر. انتهت الحرب، كما أنني لم
أعد أعاني مشكلة نقص المال، أما الجمود والتحجر فما زالا يجثمَان على
كل الصدور، بما فيها صدري الذي ضاق بالماضي وقرّر أن يطوي
صفحته إلى الأبد.

٨٣٣٢١١ رقيب مؤهلات عليا مراد عامر. مصري والصبر صفة
وراثية أزلية أبدية في دمي. دونها تنتفي فرعونيتي ومسيحيتي وإسلامي
وعروبتني.. حتى أطرد اليهود من أرضي أنا على استعداد لأكل الزلط
وابتلاع الرمال وشرب البول ونزف الدم.. والنزف جاء منه الاستنزاف.
مصطلح جديد لكنه رائع هذه المرة. يتسلل رجالنا في الظلام عابرين
كل العوائق والموانع والحواجز، فترتجف أوصال العدو لمباغتتهم. يعود
الرجال ويروحون ويحيي غيرهم ويروح وأحياناً لا يعودون. يطول
الانتظار ويعيش عنكبوت اليأس في القلوب ونعتاد الخندقة والتبلد
والتمزق، وليالينا طويلة عنيدة ملتحفة بالصمت، عازفة عن الإفصاح
ولو بلمحة عن الغيب. نحاول تقصيرها بحكايات الحب نتبادها أنا
ومختار وسالم عطية والبنداري.. حب العشش الصفيحية وضفاف الترع
المهملة والأزقة والحواري والغرف الضيقة، وحب القصور الشَّبعي
المتخمة المطمئنة.. في هذا الموت الأصفر يحلو الكلام عن الحب.

فجأة تفتقت عبقرية قائدنا المهام عن تعييني حكمدارًا للسجن
الكتيبة. أصبحت سجانًا! لم تمض أيام قليلة حتى صرتُ واحدًا من
المساجين. فاجأني حضرة الصول صباح يوم جميل سكنت فيه رمال
الصحراء وأشرقت الشمس وصفت السماء، وكان باب السجن مفتوحًا
على مصراعيه، والمساجين يغنون في رقصة جماعية-أشاركهم فيها
الرقص والتصفيق والقهقهة-أغنية تسخر من تمجيد المسؤولين لموقف
الجنرال ديجول المؤيد لنا، بينما كانت طائرات المستير الفرنسية الصنع
تعربد في فضائنا بين الحين والآخر كيفما يحلو لها. نظرت إليه في بلادة-
لا هي طبيعية ولا هي مصطنعة-وهو يزأر في وجهي:

- ما هذا يا رقيب؟!

لستُ أذكر إن كنت قد ذكرت من قبل أنني في كثير من الأحيان لا
أومن بجدوى أي شيء، وفي هذه الحال يمكنني أن أقول أو أفعل أي
شيء.

- العساكر تنظف الكتيبة يا فندم.

- أتسمي هذا الرقص وهذه المسخرة نظافة يا رقيب؟

- يا فندم..أصل..ال..

- لا أصل ولا فصل..عندك مكتب أمام قائد الكتيبة.

طارت مني شريطة من شرائطي الثلاث التي كانت تزين كتفي،
فعدتُ عريفاً من جديد أحمل على كتفي شريطين فقط.

في السجن تحاورنا حول شخصية قائدنا. أحببتُ فيه ذكاءه الشديد وتفانيه في عمله، أكثر مما أحببت خفة ظله. تحاورنا حول الأمم المتحدة ومجلس الأمن ومؤتمرات القمة العربية والأفريقية والكونية والمعرفة والهجوم والحل السلمي وما أخذ بالقوة.. تحدثنا عن انتهاء مرحلة الصمود وبداية مرحلة الردع ثم الاستنزاف واللاسلم واللاحرب.. كلها كلمات مجردة من الفعل المؤثر. كدتُ أصاب بالصمم لكثرة زنها وطنينها في عمق طبلة أذني. أمريكيان وروس ومصريون وسلام عالمي ودخان سجائر تحجب سقف العنبر والليل طويل والجنود المؤهلات يلعبون القمار لقتل الوقت ويسخرون من طول أنف ديجول ويسبون أم جونسون.. ولقد سمعت كما سمع غيري أن "جرجس" سائق عربية التموين كان يصطحب "صفوة" منهم إلى منطقة صحراوية نائية علي وشك أن تشهد قيام بنايات عسكرية كبرى. بالقرب من هذه المنطقة تلقى الوحدات العسكرية المجاورة قمامتها ونفاياتها. تتجمع أكوامًا فوق أكوام، فتأتي "نادية هلاهيلو" -لست أدري من أين- لتجمعها علي مراحل فوق عربة خشبية صغيرة متهاكة يقودها حمار هزيل أجرب، لست أدري أيضًا إلى أين يذهب بحمولته. يقف طابور العسكر الذين اصطفاهم جرجس في الظلام، وأحيانًا في وضح النهار لو أتاحت الفرصة. كل ينتظر دوره مع هلاهيلو. العسكري بعشرة قروش لا غير. تنتهي نادية من مهمتها وتذهب بقمامتها وقروشها، ويعود العساكر بوساختهم مبتهجين.. وقد سمعت أيضًا أن هناك ضاحية نائية يطلقون عليها اسم "العزبة" يقيم بها عمال البناء والخفراء ومعظمهم من وجه

قبلي. هناك تشتعل الجوزة ويحكي الجنود القدامى عن قصص انسحابهم وعن أصدقائهم الذين تناثرت شظايا أجسامهم على تراب سيناء، وعن كبار قواد الجيش الذين كانوا يستعدون للحرب من خلال جلسات تخضير الأرواح. تقصيتُ عما سمعت من أخبار فتين لي صحتها. ازداد اتساع شرخي وحاولت العودة إلى الصلاة. كنتُ أستجيبُ لنداء الشيخ صقر حين يحضر إلى مخيماتنا وعنابرنا قبيل الفجر يوقظنا للصلاة. يتلقى من الجنود الغارقين في نومهم سيلاً من أقذع الشتائم. قال أحدهم يوماً وقد أبرز رأسه من تحت غطاءه دون أن يتحرك أو ينفعل:

- لك علي أن أصلي ولكن ليس قبل أن يعيد الله إلينا سيناء.

يسهرون طويلاً يمزقون أوصال الوقت الكري، يبدو عليهم الانهماك والتركيز الشديد وبأيديهم أوراق "الكوتشينة". تنطلق ضحكاتهم حين يقول أحدهم: إن عجوزاً قد اصطدم بضابط في الطريق العام فاعتذر له الضابط مبرراً خطأه بأنه كان يجري، فقال له العجوز:

- مسكين يا بني..أما زلتَ تجري من ٥ يونيو حتى الآن؟

قررت أن أفضح نفسي أمام شلة البار، فأبوح لهم بعشقي وأستمع إلى ما يقولون وهم مخمورون، وليكن ما يكون. صحيح أن كلامهم لا يُعوّل عليه في شيء في مثل هذه الحال، لكنني أجده أحياناً يقطر حكمة وفلسفة. قررت أن أقول لهم إنني أحب امرأة شابة وأعشقها، وأنني

سأموت مجنوناً لو لم تبادلني الحب بالحب والعشق بالعشق. كنت على استعداد لأتقبل منهم الضحك والسخرية، ورضيت أن أكون مادة فكهة لسهرتهم، علني أسمع كلمة ترضيني قد تنفلت من أحدهم تحت تأثير الكحول. لكنني ما إن جلستُ بينهم حتى وجدتُ نفسي أراجع عن قراري دون أن أهتمَّ إن كان هذا التراجع عن جبن أم تعقل. بادرنى عبد الله السعيد بقوله في سخرية خبيثة ولكن ظريفة:

- أهلاً يا معلم.. نورت القعدة.

قال رفعت مُعَقَّباً:

- لا يحقُّ له هذا اللقب ما دام يلبس مثلنا.

تساءلت فادية متهكمة في خبثٍ أشد:

- ماذا تقصد يا رفعت بيه؟ كلنا نلبس ما يلبسه الآخرون في هذا البلد الجميل.

ثم انفجرت في ضحكة عفوية حين قال عبد الله:

- أنا فاهم.. لكنني أقصد أن يلبس جلباباً بلدياً.

جعلني هؤلاء السكارى أفكر بجدية في الأمر. أحمد فؤاد نجم ومحمد مستجاب يلبسان الجلباب البلدي ويظهران به على شاشة التلفزيون. لم ينتقص الزي الشعبي شيئاً من قيمتها الأدبية في الشعر أو القصة. تساءلت: هل يتفق أن أرتدى الجلباب البلدي وأجلس مع

غصون التي ترتدي الجينز في مكان عام يليق بها؟ إن فكرة الجلباب تستهويني بشدة. سبق أن تبادرت إلى ذهني هذه الفكرة لحظة مضى عليها ما يقرب من عشرين سنة. كنتُ واقفًا أمام المرأة في دورة مياه بأحد الملاهي الليلية في أوروبا. لم أعد أذكر اسم البلد على وجه التحديد. الذي أذكره أنني كنت مخمورًا وأنا أتبول. كنتُ أرثدي قميصًا وبنطالًا ملونين. تصورت نفسي في جلباب بلدي في اللحظة نفسها، وربما صورت لي الخمر أنني كنتُ أرثديه بالفعل. كان لونه رماديًا أنا متيقنٌ من ذلك، وإلا لما نسيت لوني القميص والبنطلون.

طابور الصباح وتحية العلم والضبط والربط. في هذا الطابور يحلو لي أن أدندن في خفوت بموسيقا شعبية معروفة. بينما نحن منهمكون في تحية العلم، روى لي مختار في عجالة هامسة حادثة مؤسفة بطلها سباك شاب وفتاة صغيرة. قطع عليَّ استرسالي مع النغم قائلاً: إن هذه الحادثة هي السبب في النكسة. هتفنا: تحيا جمهورية مصر العربية ثلاثًا ثم سألته: من أين جاء بهذه الوساخة على الصبح؟ ذكر لي اسم جريدة حكومية أكرهها لأنها تنشر كل يوم بلا استثناء صورة كبيرة لمسئول سياسي ضخم الوجه تفح معالمة بالغباء والبلاهة، وقد وضع ذقنه فوق كفه وبحلق بعينه في الفضاء محاكيًا أفذاذ العباقرة، وتحت صورته أعمدة طويلة عريضة من كلمات كالغشاء، ساذجة جوفاء لا تمتُّ إلى واقعنا بصلة.. وكنت قد سمعت جدتي تقول يومًا:

- لا تأخذ من الحمار الضعيف إلا الضراط القوي.

كل ما نملكه هو الكلام عن "مصرنا العزيزة" دون فعل. تهرب الكثير من الأغنياء من المساهمة بشيء من ملايئهم المكدسة، بينما تبرع الموظفون التمساء-إجبارياً- بيوم من راتبهم الشهري للمساهمة في إزالة آثار العدوان. تفشت بين الجنود روح مازوكية كريمة فراح كل منهم ينسب هزائمه السابقة والحاضرة في الحياة إلى هزيمة الجيش، وينسب هزيمة الجيش إليها.. وقال إمام المسجد: إننا تخلينا عن الله فتخلي عنا، وقال البعض: إنهم سعداء بهزيمة الجيش شماتة في تسلط الضباط وإحساسهم المتعالي بامتلاك البلد بما فيها ومن فيها. كانت الهزيمة عن جدارة واستحقاق، فهل كانت تستحيل إلى نصر لو لم يضاجع سباك فتاة صغيرة جاءته إلى دكانه وطلبت منه أن يفعل بها مثلما رأت أباها يفعل بأماها كل يوم في الغرفة نفسها التي تنام بها مع إختوها وأختاتها؟ هل كانت الهزيمة تستحيل إلى نصر لو وجد سالم ومختار ومراد سكناً آدمياً ودخلاً يتيح لكل منهم حياة كريمة؟ من الصعب على ذاكرتي أن تضعف أمام تلك الفتاة التي ضُبطت في وكر مشبوه، وحين قبضوا عليها ثارت عليهم لأنهم تسببوا في تأخير عقد قرانها، إذ كانت بسبيل جمع آخر مائتي جنيه-بعلم خطيبها- لدفع خلو الشقة.. أما سميرة فما زالت توصيني بالمواطبة على الصلاة. تقول: إن الدين هو أيسر السبل لخلاص الإنسان. لست أدري كيف توصلت إلى هذه الحقيقة رغم أنها لا تُعنى كثيراً بالمعرفة. إنني أحسدها على حالها فما وراء المعرفة غير الغم والقلق، فضلاً عن التردد في اتخاذ أي موقف من أي شيء في الحياة.

ملاحظة مهمة:

أعتذر لكل من يقرأ مذكراتي عن انسيال أفكارى في كثير من الأحيان بلا ضابط ولا رابط ولا قانون يخضع للترابط بين الأحداث أو لتسلسلها الزمني، لافأنا لا أكتب رواية، ولا أعرف شيئاً عن فن الحكمة القصصية. إنني أفضفض عن نفسي يا ناس طالبا الرحمة من الله حتى لا أختنق.

عودة:

وصلني خطاب عاجل من مدحت: "أنقذني يا صديقي العزيز.. نرجس حاولت الانتحار"..

لم أكن محترف حصول على إجازات كشأن معظم الجنود، لكنني رأيتُ أن الوقت طويل والانتظار أطول، وأن المعركة قد تأجلت إلى أجل غير مسمى. لا بأس إذاً من العودة إلى الاندماج في الحياة المدنية. أرى أهلي وأصدقائي، أجالس حبييتي وأبادلها القبلات وأحاديث الأمانى. قال مدحت:

- أنا عاجز عن اتخاذ قرار في حياتي حتى الآن.. حتى قراري بالزواج وقبول تحدي أبي لم يكن قراري أنا. في البداية كان هذا العجز يؤلمني ويشعري أنني إنسان مشلول الإرادة تقتصر أفعالي المحدودة في الحياة على كونها مجرد ردود أفعال لأفعال أخرى تفرضها عليَّ الظروف. أما الآن فلم أعد أشعر بالعجز أو الألم، بل أصبحت أستمري

الاستسلام. إن الاستسلام للحياة لتفعل بالإنسان ما تريد، شيء مريح للغاية وإن كان لا يختلف كثيرًا عن الموت. وما دام التمرد على الموت شيئًا مستحيلًا، فلا معنى للتمرد على الاستسلام. رغم ذلك يُحِيلُ إليَّ أنه قد يأتي عليَّ يوم أرفع فيه راية العصيان على الدنيا بكل ما يكمن في نفسي من عنف مضغوط.

وقالت نرجس:

- لا أريد هذه الحياة التعسة. لماذا أنقذتموني؟

لم يعرف أحد سر محاولتها الفاشلة. لم يكن عجز مدحت عن تدبير سكن مستقل للزوجية مبررًا كافيًا يدفعها للتخلص من الحياة وإلا لانتحرت نصف بنات مصر. كانا يقيمان بمنزل أسرتها. خطر ببالي سبب لا معقول، ربما كان هو الدافع إلى ذلك. لماذا لا يكون النكسة؟ ثم قلت بعد اندثار الخاطر إنه لا يُعقل أن تنسى نرجس إحساسها بالضيق والذل لمعيشتها المشتركة مع أسرتها كبيرة العدد وهي المعيدة بكلية الآداب وزوجها وهو الطبيب المحترم، فتنتحر حزنًا على ضياع سيناء.. ولا يعقل أيضًا أن تتنازل عن تطلعاتها المتعطشة للرفاهية والثراء فتقتل نفسها تضامنا مع أرواح الشهداء، أو أن تتحرر من غيرها الشديدة من شقيقتها وشقيقات زوجها بلا مبرر معقول، فتفعل بنفسها ما فعلت. سألت سميرة:

- لماذا فعلت ذلك بنفسها؟

كانت حيرتها بالغة. بكت وهي ترجوني أن أساعدها في الكشف
عن سبب شقاء أختها. قلت لها:

- سأحاول ما بوسعي مع مدحت، لكن ذلك لا يمكن أن يتم قبل
حدوث المفاجأة.

- أي مفاجأة؟!

بعد مُضي أسبوع وجدتني واقفاً أمامها بالزي العسكري قائلاً:

- ها هي المفاجأة أمامك الآن.

- لا أفهم.

- نُقلت إلى الإسكندرية.

لم تهالك نفسها من الفرح. تعانقنا بقوة. سألتني بشغف:

- وماذا عن رغبتك الدائمة في الذهاب إلى الجبهة؟

- تبخرت تماماً.

حين قلت لقائد الكتيبة في صحراء المأظة:

- أريد أن أتزوج.

قال لي بابتسامة ساخرة:

- كيف وشكواك عن الإفلاس لا تنقطع؟

- عثرنا على شقة بمعجزة.

بمحض المصادفة سألت سميرة طالبة من طالباتها-وقد لمحت ديلة خطوطها-إن كانت تبحث عن شقة خالية. لم تصدق سميرة أذنيها حين وعدتها الطالبة بأن تقدم لها الشقة دون دفع خلو أو مقدم إيجار، محبة فيها. لم تصدق عينيها أيضًا وهي تتفرج على الشقة مع الطالبة وأبيها المقاتل المعماري الكبير. أرسلت إليّ برقية عاجلة. حضرتُ على الفور.

من حارة ضيقة أحببتها بعمرى كله، إلى شارع كبير يموج بحركة الناس والعربات وتحفُ بجانبه الأشجار المعمرة. يا إلهي هل تتحقق معجزاتك بهذه البساطة التي تفوق كل التوقعات والأحلام؟ وقَّعت العقد بأصابع ترتعش فرحة وذهولاً. لم أجد معنى لكل ما سبق أن عانيت من قلق وتوتر أمام هذا الموقف القدري العجيب. كانت الطالبة تحبُّ سميرة حبًّا شديدًا فأحسنّت التعبير العملي عن هذا الحب. قالت نرجس لسميرة بوجه مخطوف اللون وعينين منطفتين:

- مبارك يا سميرة..العقبى لي.

وقالت لي حماتي الجميلة الوجه الدائمة الابتسام كطفلة:

- أنت ابن حلال مصفي. ما رأيت شابًا في حسن نيتك.

لم يبق إلا أن نتزوج فتزوجنا. لو لم أقترض خمسمائة جنيه من محيي - رغم تشاؤمي منه- لتأجل الزواج عامًا كاملاً.

في الإسكندرية كان قائد وحدتنا الجديدة زميلًا لي بالكلية قبل أن يلتحق بخدمة الجيش العامل. منحني إجازة طويلة حتى أشبع اغترافًا من غسل الحب. لم تكد تمضي أربعة أيام على زواجنا حتى راحت عربية نقل الجنود تجوب شوارع الإسكندرية وأزقتها لتجمع الجنود من إجازاتهم، إذ أعلنت حالة الطوارئ فجأة لوفاة جمال عبد الناصر.. فلوس محيي حلت بركتها! أمام منزلي قال القائد:

- اتركوا "مراد" لعدة أيام أخرى فإنه في مهمة.

كنا ساعتها في السنيما. أطفئت الأنوار، وفُتحت الأبواب على النبأ الصاعق. اجتاحتنا طوفان من المشاعر الغامضة المغلفة والمبطنة بالخوف من المستقبل. فكرت من جديد في طلب الانتقال إلى الجبهة. خرجنا إلى الشارع. كان الشباب يكون ويتساقطون على كراسي المقاهي كالذباب الدائخ. بعد مُضي سنوات عديدة سبَّ هؤلاء الشباب عبد الناصر وأرجعوا كوارث البلاد إلى حماقته ودكتاتوريته.

بصعوبة بالغة استوقفنا عربية أجرة أقلتنا إلى المنزل.. أدخل الرجل اليهود إلى مصر ورحل فنسي الناس كل حسناته. كان قد تخلى قليلًا عن ثوريته قبل رحيله فقبل "مبادرة روجرز" الأمريكية. لكن مبادرة عزرائيل كانت أقوى وأسرع، فلحق بنظيره حورمحب الذي كان ينتظر لقاءه منذ آلاف السنوات. فرعونية هذه الأرض لم تتبدل رغم تواتر الفرس واليونان والرومان والعرب والأتراك والإنجليز عليها. رغم ذلك فقد حزنّت على هذا الرجل كثيرًا. قلت لسميرة: إن البلد في حاجة

إلى دبلوماسي مُحَنَّك أو بالأحرى "صايع" لينفذها من ورطتها الكبرى.
الأرض محتلة والعرب يذبحون بعضهم البعض في الأردن. الملك
حسين يقتل الفلسطينيين بفلسطينيين.

سميرة خائفة وحزينة. توترت أعصابها ولم تستطع تناول العشاء.
حاولت التسرية عنها بذكر الواقعة التي لا تُنسى حين قال المأذون ليلة
عقد القران:

- قبلتُ نكاحها على مذهب الإمام أبي حنيفة.

كان من الضروري أن أردد وراءه ما يقول. لم يكن أمامي وقت
أفكر فيه في مسألة النكاح سواء على مذهب أبي حنيفة أم غيره، خاصة
وأ أنني أسمع لأول مرة أن للنكاح مذاهب، وأن ذهني لم ينصرف إلى
كلمة النكاح بمعنى الزواج، وإنما تشبث بالمعنى الآخر. كنتُ أرغب
بشدة في الضحك من أعماقي، لولا رهبتي من وقار الكبار الحاضرين
الذين يستمدون بعضًا كبيرًا من قيمتهم في الحياة لمجرد وجودهم في
مثل تلك اللحظات. اكتفيتُ بابتسامة مأكرة لكن سميرة فهمت ما
وراءها.

ضحكت سميرة لذكر هذه الواقعة. واصلت مداعباتي لها وفي
القلب همٌّ كبير. لم نستطع تحطيم حواجز الخوف والحزن والقلق إلا
بعناق طويل دام تجددته حتى ساعة متأخرة من الليل.

أنا والله قد احترت ما بين شاعر يقول:

نقل فؤادك حيث شئت من الهويما الحب إلا للحبيب الأول

وآخر غيره يقول:

دع حب أول من كلفت به ما الحب إلا للحبيب الآخر

ما قد تولي لا ارتجاع لغيبه هل غائب اللذات مثل الحاضر

طالت حيرتي سنين عديدة حتى جاء يوم الحسم، حين وقفنا في منتصف الصالة بشقة العرس الجديدة ينظر كل منا إلى الآخر فيما يشبه الدهول، وكأنه اكتشاف سري غامض برق في مخيلة كل منا في لحظة واحدة بأن الرجل عجوز والمرأة في ذروة الشباب. لا يستطيع أحدنا أن يغير هذه الحقيقة، وإن كانت الحقيقة قادرة على أن تغيرنا. أعقب لحظات الصمت انفجار متبادل في الضحك بغير سبب. كلما سأل أحدنا الآخر عن سبب ضحكك لم يجد هناك إجابة. عندما استنزفت لحظات الضحك نفسها تعانقنا فكانت قبلاتها أحلى من العسل. حملتها كعصفورة ووضعتها على الفراش برقة. كان في عينيها ضعف المرأة الجميل، وفي نظراتها استسلام للأقوى. لم يتبني هذا الشعور ليلة زفافي على سميرة، لذلك لم تخطر ببالي فكرة أن أحملها إلى الفراش. عندما كنت في السويد كنت أحمل "كارينا" ذات العشرين ربيعاً على يدي وأجري بها في الشارع وهي تصب زجاجة البيرة فوق رأسي بينما هي تصرخ ضاحكة في مجون. كنت أكبرها بعشرة أعوام.

نظرات سميرة كانت بها قوة تقطر كبراً لا يعرف ذلك الانكسار
المثير الذي يحرك كوامن الرغبة في الرجل. احتويتها في صدري ورحلت
أحتضنها برقة وشغف. تشبث بي في قوة طاغية وقد أسبلت عينيها
وأطبقت على ظهري بكل ما ملكت من طاقة حتى كادت أن تقصمه.
أرض متعطشة إلى الري متحننة إلى الخصوبة والنماء.

- على مهلك يا غصون. اطمئني، الليل أماننا طويل.

قالت وهي تلهث:

- شوقي إليك يتجاوز الجنون.

ذهب كل منا ليغير ملابسه في غرفة بعيداً عن الآخر. تسللت إلى
الحمام لأتناول حبة من عقار منشط حتى تأخذ الدماء مجراها بقوة في
مكانها المقصود. استخدمت "بخاخة" الإسبراي المخدر لحساسية
الأعصاب حتى تطول فترة المتعة. أعادل فعل الزمن في الدم
والأعصاب والأعضاء بالعقاقير، فلا بديل عن ذلك وإلا ضاع التكافؤ.
غصون واقعية. لو أطلعتها على هذا السر لما وجدت فيه ما يدعو إلى
الدهشة أو السرية. لكن هاتفاً خفياً ألحَّ عليَّ أن أحفظ بسرِّي حتى
تعتقد أن قوتي ذاتية، وأن قدرتي ما زالت قدرة شاب. حتى لو اكتشفت
هذا الأمر فيما بعد، فإنها ستتجاهله لأسباب ترجع إلى طبيعة تفكيرها
البراجماتية.

جلسنا نتناول عشاء خفيفاً. دخنت سيجارة ملفوفة أمامها. سألتها
ماذا تحبين أن تسمعي: هيفاء وهبي أم أم كلثوم؟ قالت: عبد الحليم

حافظ، لم أكن أتوقع هذا الاختيار بحكم سنّها، قلت: ما رأيك في موسيقا هادئة؟ قالت: هذا أفضل. أدّرت الراديو على محطة الموسيقى وخفّضت من حدة الضوء، كنت منتشيًا هادئًا رائقًا أختزنُ طاقتي البدنية، مسيطرًا عليها حين اللحظة المناسبة. كانت طاقة جسدها متفجرة كزلزال عنيف مشوق بجنون إلى أنين المتعة وغيوبة الشبق. أطلت من عينيها رغبة تلقائية فطرية ساحقة ماحقة يستحيل السيطرة عليها. تحت قميصها الأزرق الزهري صرخت مفاتنها بصوت مسموع. يا إلهي كل شيء فيها صغير جميل قوي متماسك مشدود صلب فتني لم يخضع بعد لندالة الزمن. جردتها من ملابسها على مهل شديد مثير. راحت في غيبوبة ساحرة. ظللتُ أداعبها وألاطفها بروح شابٍّ وخبرة عجوز حتى أقودها إلى برزخ أسرارها العميق. أشعلت سيجارة ثانية حتى أوقف من حدة اندفاعها. قالت في غضب به دلال:

- أنت أناني.

- أنا؟ لماذا يا حبيبتي؟

- تدخن وحدك وتتركني.

- لكنك لا تدخين.

- أحبُّ أن أفعل ما تحب. أريد أن أشاركك في كل شيء.

أعطيتها سيجارة مماثلة. اعتدلت مستندة إلى وسادة وراحت تدخنها بشراهة المدمنين. لم تسعل ولو مرة واحدة، حتى أنني لم أشك في أنها كانت مدخنة قديمة.

احترقت معاجم الكلمات في دخانها ولم أسمع سوى صهيل خيلي
يجلجل في كون من الربيع. استهواني شعور بأنني أجامع فتاة مراهقة لا
امرأة ناضجة سبق أن عرفت متعة الرجل.. رغم أن جسدها مدملج
مخروط بدقة فإنها تعدُّ في نظر من يراها طفلة لصغر حجمها وشقاوة
عينها. أين جسد سميرة الذي أنهكته السنوات من هذا الجسد الفتى
المُعربد!

كان اللقاء مثيراً ممتعاً فوق ما تصورت، وتملكني زهو شديد.
عانقت الشهوة روحينا حين ارتجف الجسدان معاً في لحظة واحدة هي
سر الحياة. الذي أثار دهشتي وضاعف متعتي أنني وجدت نفسي أمام
امرأة حقيقية ناضجة مجربة ساخنة ملتهبة شديدة الجنون والشبق، على
عكس ما أظهرته لي عيناها من قبل، وما أظهره لي وقارها الطبيعي، وما
كشفت عنه حواراتها معي من تأدب شديد وترفع دائم عن نطق كلمة
إباحية خارجة. لقد تجاوزت كل تلك الحدود، وانطلقت منها امرأة
فاجرة عربية مجنونة بالعشق، تفعل أي شيء وتقول أي شيء، فقد
ارتوت الأرض واخضرت واقتربت السماء وأمطرت.

ونحن في ذروة النشوة كنت أرى في عينها عينين أخريين غير
اللتين عرفتهما من قبل. رأيت فيهما شغفاً خالصاً مزوجاً بنظرة عتاب
جميلة مثيرة، وكأنني أسبب لها ألماً جميلاً تلتذ له وتطلب منه المزيد. رأيتُ
فيهما وهما مسبلتان خضوعاً وخنوعاً ونشوة، وهما مفتوحتان دهشة
وشوقاً وجوعاً وحثاً فائقاً على الاستزادة وعدم التوقف حتى الموت.

طفلة مشاكسة صهرت في امرأة هي، أم امرأة أُذيت في طفلة. أيًا من كانت فهي اللذة عينها وهي المتعة ذاتها وهي الانعتاق من الصراعات والتألم الشروخ ودواء النفس المحيرة والإرادة المذبذبة، وهي الخلاص من الفتور والملل. تدفق ماء الحياة من دمي عندما تدفق ماؤها يحتضن مائي بين الفجر والظلمة، حين تخاطب جسدانا بلغة الروح وارتقينا أعالي الجنان.

في لحظات الاسترخاء كان صوت أنفاسنا المرهقة يبدد صمت الغرفة. فوجئتُ بها تقبل قدمي، ثم تصعد بشفتيها إلى كل جزء من جسدي فتقبله بحنان وعرفان. قالت لي كما لو كانت تحلم:

- هذه هي المرة الأولى في حياتي التي أذوق فيها لذة الجسد الحقيقية.

انتابتنني دهشة عظيمة وأنا على يقين من أن الجنس هو جنة الله على الأرض في جميع أديانه.

- كيف؟ قلت لي إنك وزوجك كنتما متحابان.

- لا تسألني: كيف؟ الذي أقوله هو الحقيقة.

- ألم يكن زوجك...؟

- كان طبيعياً جداً.. ولكنني لم أكن كما كنت اليوم.. ولا مرة واحدة!

لولا الحبة والبخاخة لما شربنا معاً من النهر السماوي فارتوينا وانتشينا، ولما سمعت هذا الكلام، بل لكانت فضيحتي بجلاجل مع هذه الفرسة الجامحة المحبوبة.

- لماذا؟

- لا معنى لكيف ولا لماذا..إنني أحسُّ بطعم الحياة لأول مرة.
يكفيني هذا لكي أحمد الله وأشكره مع كل نفسٍ يتردد من أنفاسي.

شعرت بقلبي يدقُّ بعنف. كان الجهد فوق تحملي. ما زال مفعول
العقار ساريًا في جسدي وما زالت الرغبة متأججة. كان من الطبيعي أن
تهدأ ضربات القلب بعد قليل، لكنها استمرت في عنفوانها. فكرت في
أكثر من صديق مات فجأةً بهبوط في القلب في مثل هذه الظروف.
قررت الاكتفاء بهذه الجرعة من السعادة المكثفة، عليَّ أن أعاود
الارتشاف من رحيقها في اليوم التالي.

طلبت منها أن تعد لي فنجانًا من القهوة. كنتُ في اشتياق شديد إلى
تدخين سيجارة ولكنني خفت فامتنعتُ. خفت ضربات قلبي وعادت
إلى نظامها الطبيعي، فحمدتُ الله. يقولون إن القهوة تزيد من ضربات
القلب. اختلف الأمر معي وكأنني شربت مُهدئًا. تركت نفسي
للاسترخاء الهنيء وقد أفرغت عقلي وذاكرتي من كل شيء في الحياة دون
هذه اللحظات المترعة بالحبور، ويبدو أنني غفوت قليلاً، حين فوجئتُ
بها تنقض عليَّ محيطة بعُنقي، تعتصر شفاتها شفتي لتلقي بي مرةً ثالثة في
أتونها المُلتهب..عُدنا إلى عناق الأسرار وغرقنا في برزخ الخلود. قرب
الفجر فقدت الإحساس بجسدي. أفقت من النوم ظهر اليوم التالي.
ذهبنا لتناول الغداء في مطعم سمك. التهمت بشراهة كمية كبيرة من
الجمبري والدنيس. مكسبي من المقهى يسمح لي الآن أن أنفق-بعد

عمر طويل -ببذخ على ملذات الحياة المشروعة دون خوف أو تردد. أما ما يُقال عن الكولسترول وانسداد الشرايين فتلك أمور لا تعنيني، فطالما أنا هنا فالموت ليس هنا، وعندما يكون الموت هنا فلن يكون لي وجود. المسألة لا تحتاج إلى عناء في التفكير. إني أمتع بيومي كأنه جميع عمري، فليس لي إلا الساعة التي أحيها، ولا نفع لي بالماضي ولا علم لي بالمستقبل، المهم أن أعثر على وسيلة أكبح بها جماح هذه الطائشة الصغيرة التي كتبت لي على آخر الزمن. من المستحيل أن يستمر الحال هكذا. النهاية الحتمية هي انطلاق سهم موتي ليسقط بين أحضانها.. وشرعت في ترويضها غير هياب من التصريح بالحقيقة.

- غصون يا بنتي.

انطلقت ضحكاتها في دلال ممزوج بإعجاب خفي:

- وهل يفعل رجل بابنته ما فعلت بي أيها المتوحش؟

- يا غصون.. يا بنتي.

بنفس الدلال قالت:

- نعم يا بابا.

- لو كان بيدي لما امتنعت عنك لحظة، ولكن ضعي اعتبارًا للسِّنِّ.

- أتجرؤ وتدعي الشيخوخة وقد كنتَ تطحنني كالثور؟

لا فائدة!

عدتُ إلى بيتي القديم بعد أن اتفقنا على ألا نتصل بي هناك. يوم أعلمتُ سميرة بنأ زواجي المزمع من غصون، تلبسها كبرياؤها العنيدة. استوعبت الصدمة من خارجها بقوة فولاذية، أما ما كان يمر بداخلها فيعلم به الله. اكتفت بالخصام والهجر، لكنها كانت تؤدي واجباتها الزوجية الأخرى على أكمل وجه. أما أن ألامسها مجرد ملامسة فذلك كان من المستحيل. قلتُ لنفسي بركة يا جامع، لأنه ليس من المعقول أن ينهد حيلي هنا وهناك. فليكن يوم سميرة هو يوم راحتي من غصون. وليكن يوم غصون هو يوم نجاتي من عبوس سميرة وصمتها وعنادها. أغرقتها بالمال والهدايا بعد أن تيسر حالي، علَّها تصفو ولكن دون جدوى. حاولتُ أن أقنعها بمنطق الدين فلم تستجب، بل إنها صاحت في وجهي:

- أنت خلاص..جننت..تفتح قهوة وتزوج واحدة في عمر أولادك. ألم تنظر في المرأة وترى شعرك الأبيض؟ أهذه أفعال تليق برجل في عمرك ومركزك؟!

أربت على صدرها حتى أهدئ من روعها، لكنها تزيل يدي عنها بعنف:

- لا تلمسني..كفاية عليك الدكتوراة.

- أنت عندي أحلى وأطعم من مائة دكتوراة.

- كذاب..لو كنت صادقاً طلقها.

سقط منها كبرياؤها في لحظة صدق. فشل مخطط الكبر وأصبحت امرأة عادية تكيد لضرتها. بادرت بالهجوم وإن كان بغير اقتناع داخلي خشية العاقبة المعروفة:

- أنت زوجتي مثلها ولي عليك حق من واجبك أن تؤديه، وأنا لم أخالف الشرع في شيء فلماذا تخالفينه بالامتناع عني؟

- افعل بي ما تريد...ستنام مع جثة!

نجحت بالصبر والحيلة في إلانة قناتها. ارتاح بالي قليلاً وانزاح عن صدري بعض من همي بها.

تعطرت ونامت بجواربي بعد أن خلعت ملابسها الداخلية في آلية سريعة. أعطيتها ظهري ونمت. في الصباح ذهبت إلى المقهى وطلبت من غصون بالتليفون أن تعد لي حماماً مشوياً.

ما أن دخلنا الشقة حتى قذفت بنفسها بين أحضاني وجسدها ينتفض بالرغبة. لمحت المائدة معدة بها طاب من طير وفاكهة.

- انتظري حتى نأكل يا مجنونة.

- أنت أولاً ثم الطعام.

- أنا ميت من الجوع.

- لو أكلت ستفقد لياقتك.

يذهلني أمر هذه العاقلة المختلة. حين تتخلص من عبء جسدها وتنساه، فإنها تنطلق في الحديث عن الفن والحياة والشعر والفلسفة في

تدفق سلس أخذ ممتع. تسحرني به فتجذبني إلى عالمها الجميل وقد تملك مني الانبهار بعقلها وروحها وعذوبة لفظها. يُحْيِلُ إِلَيَّ أنها خلعت جسدها وتحولت إلى روح. أبادِلُها الحديث في متعة ما بعدها متعة وكأنني أُقَلِّبُ في صفحات مجموعة من أحبِّ الكتب إلى نفسي.. ثم أفاجأ بهذه العقلية المنظمة تصرُّ علي أن تغسل لي قدمي في المساء بالماء الساخن المذاب فيه الملح ثم تحففهما.. أو تأتي من خلفي فجأة لتدلك لي رقبتي بخبرة طبيب متخصص.. أو تجرى مسرعة لتحضر لي مداسي المنزلي حين أفتقد مكانه الذي تركته فيه، مصرة على أن تضعه بيديها في قدمي. المثير في الأمر أنها تفعل ذلك بتلقائية ودونما أدنى افتعال. مفهومها عن فن إرضاء الرجل أنا عاجز عن إدراكه. لا تسألني: أين كنت لو غبت عنها؟ ولا تتذاكى عليّ لمعرفة شأن من شئوني الخاصة بذلك الأسلوب النسائي المباحثي الخبيث. لكنني عندما أتكلم في مثل هذه الشئون بمحض إرادتي فهي تستمع إليّ جيداً وتشاركني بكل جوارحها، حتى لو كان الأمر متعلقاً بعدد الرواد الذين ترددوا إلى المقهى، أو باعتراض الأصدقاء على جلبابي البلدي.

بعد عدة أشهر لم يكن هناك بُدٌّ من السيطرة على هذا السيل المتدفق من العاطفة الذي أنكج جسدي فقررت مصارحتها وأنا على يقين من أنها ستفهم الموقف. فوجئت بها تقول لي:

- وما الغريب في ذلك؟ إن كثيراً ممن لم يتجاوزوا الأربعين يتعاطونها. كنت متشككاً ولكنني تأكدت الآن أن هذه الشيطانة الملائكية الصغيرة تعرف كل شيء وتتكتم.

- لكنني تجاوزت الستين، والحياة ليست كلها...و..ولماذا لا تغني
لي الآن يا غصون بصوتك الجميل؟

لم تتردد الساحرة في تلبية رغبتني. قامت على الفور وأحضرت
عودها الذي لم يفارقها أو تفارقه منذ صباها. احتضنته في حنان حتى
خُيِّلَ إليَّ أنه ذاب في جسدها، وراحت تعزف عليه بأناملها الفنانة: يا
شادي الألحان أسمعنا رنة العيدان.. واطرب من في الحان.. واحسبنا من
ضمن الندمان.. الله على الموسيقى والطرب الجميل.. الله على فيض
الإحساس المرهف الذي يتدفق من لسانها وحنجرتها وعينيها
وخلجات وجهها. اليوم أشعر أنني إنسان، وأني أول آدمي يرى جنة
الله على الأرض.

لا أدري كم من الزمن غبتُ مسحورًا في عالم الجمال؟ حتى أفقتُ
لرؤيتي دموعًا تتساقط في صمت من عينيها كحبات لؤلؤ منشور، وقد
توقفت عن الغناء دون أن تتوقف عن العزف. من السكر صحت على
الإفاقة وبى ذهول وشجن، فأخذتها في حضني وكأنها حفيدتي.

- لماذا تبكين يا غصون؟

- أخاف أن أموت وأتركك وحيدًا من بعدي.

لم يسعفني العقل باستيعاب مدلول كلماتها، إذ تبادر إلى سمعي
ومنطقي وفهمي أنها تقول:

- أخاف أن تموت وتتركني وحيدة من بعدك.

أَيَّا كَانَ مَا قَالَتْهُ أَوْ مَا سَمِعَتْهُ أَوْ مَا فَهَمَتْهُ، فَإِنْ حَالَ الْمَوْتُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَسْلُبَنِي الشُّعُورَ بِنِعْمَةِ الْغِنَاءِ، كَمَا أَنَّهُ لَنْ يَسْتَطِيعَ أَنْ يَمْنَعَنِي مِنْ اصْطِحَابِهَا مَعِيَ إِلَى الْبَرْزَخِ، أَوْ يَحْرِمَنِي لَذَّةَ الْوَصْلِ بِهَا بَعْدَ مَوْتِي، فَاللَّهُ جَمِيلٌ أَخْفَى عَنَّا الْمَوْتَ لِأَجْلِ أَنْ يَعْلَمْنَا بِهِ، وَحَتَّى لَا نَنْسَى نَشَاتِنَا الْأُولَى مِنْ قَطْرَةِ مِيَاهٍ.. ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ ٥٨ ﴿أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾.. وَتَمْنَيْتُ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ أَنْ يَكُونَ لِي نَسْلٌ مِنْ حَوْرِيَّتِي الْأَرْضِيَّةِ الْقَابِعَةِ فِي حُضْنِي وَالتِّي لَا أُدْرِي كَمْ مِنَ الْعُمْرِ سَاطِلٌ أَنْعَمَ بِقَرَبِهَا.

فِي وَحْدَتِي الْعَسْكَرِيَّةِ الْجَدِيدَةِ بِالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ عَرَفْتُ الصَّحَافِي "الواصل" رَبِيعَ أَبُو الْمَجْدِ. تَقَاطِيعَ وَجْهِهِ تُذَكِّرُنِي بِتَطْلُعَاتِ نَرْجِسٍ. مَقَالَاتِهِ الْمَطْوَلَةُ بِالْجَرِيدَةِ الْقَوْمِيَّةِ الَّتِي أَكْرَهَهَا يَتَصَدَّرُهَا اسْمُهُ بِالْبَنْطِ الْكَبِيرِ الْمُمِيزِ.. عَرَفْتُ مِنْهُ أَنَّ صِلَةَ حَمِيمِيَّةٍ تَرْبِطُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَبْدِ الْحَمِيدِ بِيهِ الْعِيسَوِيِّ وَالِدِ الدَّكْتُورِ مَدَحَتِ. تَحَدَّثَ كَثِيرًا عَنْ شَخْصِيَّةِ هَذَا الرَّجُلِ الْغَامِضِ. يَرَى فِيهِ مِثْلًا أَعْلَى وَصَاحِبَ مَدْرَسَةِ خَطِيرَةٍ فِي فَنِّ الْحَيَاةِ. مَدَحْتُ نَفْسَهُ لَمْ يَحْدِثْنِي عَنْهُ بِهَذِهِ الْإِفَاضَةِ.. لَكِنْ الْاِثْنَيْنِ رَدَدَا أَمَامِي، كُلُّ عَلَى حِدَةٍ، مَقُولَةُ الْعِيسَوِيِّ الشَّهِيرَةِ:

- "الْعَقْلُ لَا يَحْقُقُ إِلَّا الرِّبْحَ وَالنَّجَاحَ، أَمَّا الْعَاطِفَةُ فَلَيْسَ وَرَاءَهَا إِلَّا الْخِيْبَةُ وَالْفَشْلُ وَالْخُسْرَانُ".

حِينَ مَاتَ أَبُوهُ لَمْ يَتْرِكْ لَهُ عَوْنًا وَلَا سِنْدًا مِنْ مَالٍ أَوْ عَقَارٍ، وَإِنَّمَا أَوْرَثَهُ مَسْئُولِيَّةَ أُسْرَةٍ مَعْدُمَةٍ. بَدَأَ حَيَاتَهُ خَادِمًا وَكَاتِبًا وَسُكْرَتِيرًا

خصوصياً لعجوز أعزب يمتلك ثروة ضخمة من العقارات. أنقذه من الجوع بأن تنازل له عن واحد منها قبل وفاته. لم يقنع العيسوي بالعقار اقتحم ميدان التجارة فبدأ بعمليات نقل الرمل والزلط، ثم اتجه إلى الاتجار في السوق السوداء بكل سلعة تختفي أو توشك على الاختفاء إلى أن استقر أخيراً على الاستيراد والتصدير، حيث نجح فيما بعد في تكوين ثروة طائلة، معلناً تحديه لقدره، منطلقاً في سباق جنوني نحو وهم كبير.

بعد لقاء حافل بالمتعة والإثارة، عاد العيسوي يوماً ليجد سيده قد فارق الحياة قبل أن يتمكن من التأثير فيه بشكل أو بآخر. كان بمقدوره أن يحصل على معظم التركة، فسيده مقطوع من شجرة، والحديث ما زال للربيع، لكن ثديي امرأة لعينة وفخذيها أضاعوا منه فرصة العمر. كان بمقدوره أن يشكو فقره حينذاك ويبيكي قليلاً أمام الرجل الطيب المعطاء الذي أحبه، فينجح في استدرا عطفه، لكن انسياقه وراء عاطفته حرمة من فرصة البكاء، فآلت معظم التركة إلى الحكومة والجمعيات الخيرية.

ساهمت حكايات ربيع التي لا تحوم إلا حول الثراء والمجد والنجاح في ملء فراغي رغم عدم استجابتي لها. حاصرت ضياعي في انتظار ما لا يجيء.

ذات ليلة أفشى العيسوي سراً من أسرار عمله لصديق في لحظة من لحظات تورم الذات وانتفاخها، والتي كانت تصيبه حين يسكر. تحدث بفخر وغرور عن عبقريته في تدبير مكيدة ضد أحد منافسيه، فما كان من

الصديق إلا أن تعاطف مع خصمه فأفشى إليه بالسر وأنقذه من الخراب الذي كان سيحيق به.

ضاعت الصفقة على العيسوي وانتهى معها اعترافه بكلمة "الصدقة" فأصم قلبه وعقله وبصره ومسامعه عن مدلولاتها.

تبين لي أن ربيع على دراية كافية بتفاصيل حياة العيسوي العائلية، فهو يعرف أن مدحت وحيد أبويه، وأن له شقيقتين متزوجتين من ثريين من كبار رجال الأعمال، اختارهما لهما العيسوي بحذق ومهارة بعد حسابات وتوازنات دقيقة طبقاً لمقاييسه وموازينه لأمر الحياة. الذي لا يعلمه ربيع أن نرجس تغار منها غيرة عمياء، من وحي مقارنتها الدائمة بين أحوالها وأحوالهما.. مجتمع السادة الأقوياء الأثرياء أصحاب الصوت المسموع والأوامر النافذة، هو المجتمع الذي تتوق نرجس إلى الاحتواء بحصونه المنيع، ولكنها عاجزة عن الارتقاء إليه.

من نفسه المنطلق خطط العيسوي لمدحت معالم حياته اللاحقة كما تصورهما بجميع أبعادها: بعثة إلى الخارج علي نفقته للحصول على درجة علمية عليا، ثم إنشاء مستشفى كبير يعمل مديراً له، وفيلا فاخرة بالقاهرة، والزواج بفتاة من اختياره ذات حسب ونسب!

كان لا بد للانتظار أن يطول، فالسادة الحكام القدامى كانوا غير راضين عن السادات، استهانوا بعقله واستخفوا بذكائه وبدؤوا يخططون للإطاحة به، لكنه تغدى بهم قبل أن يتعشوا به. لم تكلفه المسألة سوى عربة جمعهم فيها من منازلهم ومكاتبهم وألقى بهم جميعاً في

السجن، وأسأهم "مراكز القوى"، فأضيف إلى معجم لغتنا الثري مصطلح سياسي جديد لم يستخدمه الفراعنة ولا العباسيون من قبل. توقف الزمن وغنى مطرب مخنث "نحن للسيف" ولكن لا سيف ولا يحزنون، وإنما انتظار لا نهاية له.. ويطرق العيسوي مع ابنه كل أبواب الإقناع ولا فائدة. يسلك معه كل سبل الإنذار المستتر والتهديد السافر دون جدوى. الولد مأخوذ بسحر البنت، وسحر الحب لعنة محببة- أعرفها- تشل الإرادة وتلغي المقاومة.. وعينا نرجس ناريتان رماديتان ثاقبتان نفاذتان، يحلم بهما مدحت ليلاً ونهاراً.

تخلى عنه أبوه. رفع يده وقلبه عنه. تركه نهباً لمصير مجهول دون أن يشعر بذنب أو ندم، وكأن الأمر لا يعدو أن يكون مقايضة تجارية، أو صفقة خسرها. بحيلة خبيثة نجح في استدراجها معاً إلى مكتبه بمقر عمله، لا إلى منزله - حتى لا تدخله نرجس - فظن مدحت أنه تراجع عن عناده، وظنت نرجس أنها قادرة بشخصها وبقدراتها الخاصة على التأثير عليه لإثناؤه عن عزمه.

• سؤال خطر ببالي الآن:

- ما علاقة ما أكتبه الآن عن نرجس بالنكسة أو الشرخ؟

الحق أنني لست أدري تماماً، ولكنني أترك لكم حرية الإجابة لأنفسكم أو الامتناع عنها.

• عودة:

قال لها العيسوي أمام مدحت ممعنا في إذلالها معاً:

- عائلتي لا تصاهر إلا عائلة في مستواها.

لا تعرف نرجس أنه بدأ حياته خادمًا!

تشتعل روح نرجس بشرر التحدي لهذا الرجل الذي يقف سدًا منيعًا دون أحلامها. راهنت بعمرها علي حُبٍّ مدحت لها تهاديًا في تحديها لأبيه وعندًا له ردًا على هذا الإذلال وليكن ما يكون. طلبت من مدحت أن يسرع في إجراءات الزفاف. أقاما بمنزل أسرتهما. طبيب بالتأمين الصحي ومعيدة بكلية الآداب وورطة كبرى، ثم محاولة يائسة للانتحار.

قالت لي نرجس:

- أريد أن أشعر برجولته ولو لمرة واحدة.

للرجولة مقاييس عديدة. ترى أي مقياس تشير اليه الزوجة التعسة؟

- ما هو المطلوب منه الآن على وجه التحديد؟

- أريد أن أعيش معه بمفردنا ولو في غرفة تحتوي علي حصيرة ولبنة غاز.

وقلت لمدحت بصراحة:

- افعل شيئًا يا أخي.

- ليس أمامي سوى العمل بإحدى الدول العربية.

- افعل ما شئت حتى تنقذ علاقتك.

قال متنهداً:

- بكل جوارحي أحببتُ إنسانة شديدة القسوة والعناد..لست أدري لم يحدث ذلك!

يقولون في التراث إن من أوقع الأمور في الدين وأنهكها للجسد وأتلفها للمال وأضرها بالعقل وأزراها للمروءة وأسرعها في ذهاب الجلالة والوقار هو الغرام بالنساء. حيرني ما في هذا الكون من ظلم وفوضى. يحبُّها فتملي عليه إرادتها وعلى أبيه..وأنا أقول لسميرة إن الحب شيء لا ينبغي أن يفهم لأنه لا علاقة له بالعقل. بعد الزواج ومرور السنين أصبح كل ما يفهم وما لا يفهم معجولاً بالفتور والملل. ماتت الآمال الجامحة واندثر التطلع الوثاب إلى مستقبل باهر. استرخى الزمن بفعل الهزيمة، ولا عجب أن يصير كل شيء في النهاية إلى زوال. حين نقلت سميرة إلى مدينة أخرى-قبل أن نتزوج- قلت لها في إحدى رسائلي:

"حين أستلم منك خطاباً فإني لا ألقى حواف الظرف التي أقطعها لفتحه واستخراج رسالتك، لكنني أعيد وضعها داخل الظرف لحفظها من الضياع. أنا لا أقطع وهماً يصلني بك، فكيف ألقى ورقة صغيرة لامست أنسجتها المجهرية الدقيقة أناملك الرقيقة؟! إنني أتشمم الظرف والرسالة بحاسة كلب بوليسي أتقن تدريبه، ثم ألتهم الرسالة بنهم لا يفوقه نهم في كل مرة من المرات العشرة أو العشرين" ..راحت

هذه الكلمات. ذبلت بسرعة لم أكن أتوقعها. وقالت نرجس من خلال دموعها:

- لم أعد أطيع أن يلامس جسمه جسми.

ويبقى سرُّ محاولتها الانتحار غائصًا في ظلمات المجهول، ويزداد التقارب بيني وبينها في تسلسل غير منظور ترعاه سميرة وتؤكد له لعل نرجس تحظى بسلام داخلي يطمئن من نفسها البركانية المتأججة بنيران لا تُطفئها أنهار الدنيا.

زوجتي تثق بشدة بقدرتي على تحقيق هذا الأمل. أشياء غامضة لا حصر لها تشكل معالم هذه الحياة، أقربها أنني حصلت على مسكن بفضل مصادفة أصرَّ القدر على أن يمنحها لي وأنا المفلس الأكبر، وأبعدها ذلك البرزخ الهلامي الذي يفصل بين النيات والأقدار منذراً بالويل من يفكر في اقتحام غياهبه.

كنتُ في صباي مفرطاً في الأمل، تغمرني سكينه هائلة، فلا أشعر بذرة خوف من الأيام. صافية كالبللور كانت مياه البحر في نفسي. يطل عليه بيتنا المحاط بالبلاب في نهاية حارة جوده المواجهة للشاطئ. لم تكن السكينة تغمرني وحدي، فقد كان عبقها يغمر مكونات البيت بكل ما يحيط به من عالم خارجي، وكل ما يحويه من مخلوقات تعيش بالفطرة. كنت أحبُّ الاختلاء بنفسني كثيراً لأهيم في ملكوت من خيالات عجيبة تتراقص في مخيلتي. أقف في ميدان عام أخطب في جماهير حاشدة.

أرقصُ عاريًا على قمة هرم خفرع. أجوب شوارع أوروبا بعد أن أعبر
المانش.

يوم ذهابي للاشتراك في مسابقة بطولة الإسكندرية للسباحة،
المقامة بنادي سبورتنج، كنت أقارنُ في الطريق بين بيتنا العتيق
"المكحكح" الجميل، وبين البيوت الأنيقة والعمارات الشاهقة التي يمر
ترام الرمل بمحاذاتها يمينًا ويسارًا. رغم المقارنة فقد كانت الطمأنينة
تسكن نظراتي المبهورة. لم تسفر المقارنة عن مشاعر حزن أو حسد أو
أدني شعور بالدونية، وإنما عن أمل راسخ-لست أدري كيف أو لماذا-
في مستقبل يتيح لي السكن في بيت مثل هذه البيوت. الله يُجِبُّني لا شك
في ذلك، وإلا ما أهداني ذلك البيت الذي كنت أحلمُ به، من حيث لا
أدري ولا أنتظر.

الله يجبني أضعاف ما أحبُّه ولولا حبه لي لما أحببته. لا شك في
ذلك، وإلا لما أنعم على مراد ابن حارة جودة الضيقة بالمبيت أسبوعًا في
شيراتون زيورخ بسويسرا. الحكاية وما فيها أنني كنت جالسًا في بيتي
ذات يوم، حين جاءني زائر غريب يُدعى سامي. عرف عنواني عن
طريق صديق لي التقاه في القاهرة فدلَّه عليَّ. كان يتحدث معه عن حاجة
المؤسسة التي يعمل بها مديرًا عامًا إلى مهندس كيميائي متخصص في
صناعة الطلاءات بأنواعها المختلفة. ها هي المصادفات القدرية تلعب
دورها في حياتي للمرة الثانية. كان هذا الصديق هو إسحاق منقريوس.
جاءه سامي في الجريدة لينشر إعلانًا عن التخصص المطلوب. تشعب
الحديث حتى توقف الزمن فجأة عندما ذكر له إسحاق اسمي لكوني

مهندسًا مجتهدًا حسن السمعة، تنطبق عليه شروط الوظيفة تمامًا. سامي كان لديه ارتباط عمل في الإسكندرية. أراد أن يضرب عصفورين بحجر فقرر لقائي لعله يجد في شخصي ضالته، ولقد وجدها بالفعل وكان سروره بالغًا أنني تعلمتُ دراسة جدوى المشروعات الصناعية خلال بعثتي العلمية إلى السويد من قبل الشركة التي أعمل بها.

- سوف نشترى مصنعًا كبيرًا لإنتاج الطلاءات والورانيش.

- وكيف سيكون عملي؟

- في المرحلة الراهنة ستشترك معنا في إعداد دراسات الجدوى لاختيار المصنع المناسب.

جاءني في عام ميت من أعوامي الرتيبة التي لم أعد أذكر شيئًا من معالمها الاجتماعية أو السياسية لشدة تشابه أيامها وشهورها ودقائقها وثنائها. كل ما أذكره أنني كنت في هذا العام -كغيره من الأعوام- ثورًا يدور بساقية ولا يصدر خوارًا. قلتُ له بصوت واهن وقد برق بذهني خيال محمد النجار:

- أنا لا أستطيع ترك وظيفتي.

- إذا فأنت تُضَيِّع على نفسك فرصة العمر.

أصابني الثبات بالتحجُّر. أصبحت كائنًا آليًا لا يتجدد. قال لي الرجل: إنني سأتناقض أجراً كبيرًا وسأزور المصانع في أكثر من بلد أوروبي. لم أستطع أن أتخلي عن صغريتي وجمودي. قال لي:

- خذ إجازة شهراً أو شهرين واعمل معنا ثم اتخذ قرارك.

تحدثنا في الفنون والآداب. جاء ذكر اسم صديق فنان هو حمدي سالم، وإذا بهذا الصديق هو زوج أخت سامي. قال: إنه سيزوره بعد انصرافه مباشرة ليتناول معه الغداء ويستريح قليلاً قبل مواعده المهم. لا أعرف ما دار بينهما عني من حديث بعد ذلك، ولكنني لم أذهب إليه بمكتبه بالقاهرة طبقاً للموعد المتفق عليه. تبين لي أنني لم أعد أمتلك العزيمة لحجز تذكرة من محطة السكك الحديدية حتى أركب قطاراً يُقلّني من الإسكندرية إلى القاهرة. أصبحت صفراً مكعباً فماذا ينتظر من صفري لا يساوي أكثر من نقطة. سألتني سميرة يومها في ذهول:

- ما الذي جرى لك؟ أين راحت طموحاتك؟ لماذا تضيع على نفسك مثل هذه الفرصة؟

لم أجد ما أقوله لها لأنه لم يكن لديّ سبب حقيقي أتعلل به. التأم شرخ الوطن وكنت أحسب أن شرخي قد التأم هو الآخر. السبب إذاً من داخلي وليس من الخارج، لكنني لست أعرفه.

فوجئت بحمدي سالم يطرق بابي. لم أكن قد رأيت منذ فترة طويلة. قال لي بعشم:

- يبدو أنك عقدت تحالفاً مع الفقر. ما حكايتك يا رجل؟ لماذا لم تذهب إلى سامي؟

- حلمت أن القطار الذي كنتُ سأحجز به اصطدم بقطار آخر.

- أنا لا أهدر.

- وأنا أيضًا لا أهدر.. أنت الذي لم تقرأ الجرائد.

- ما علاقة الجرائد بهذه (الهلفطة)؟

- القطار تصادم بالفعل وقتل عدد كبير من ركابه.

نجح حمدي في السيطرة على الأعيبي السخيفة غير المبررة. قال إنني استمرأت العجز والخنوع للواقع "لماذا لا يكون لديك عربية يا أخي؟ لماذا لا يكون لديك رصيد بالبنك تستند إليه وقت الحاجة؟ لماذا ترضى بمرتبك الهزيل وقد فتح الله أمامك بابًا واسعًا للرزق الحلال؟" تصاعدت حدة اعتراضه على موقعي المائع، وفي نهاية اللقاء قال لي وهو يحاول السيطرة على غضبه:

- أنت حر.. افعل ما شئت.

اتصل بي سامي في اليوم التالي فبررت له تخلفي عن الموعد بمرض مفاجئ، واتفقنا على موعد آخر. في الطريق إليه رحت أزرع في نفسي الحماسة لما أنا مُقدم عليه. المبنى ضخم أنيق ذو طوابق ستة. كل طابق تشغله إدارة من إدارات المؤسسة بشركاتها المختلفة. اصططحني سامي إلى الطابق الثالث حيث مكتب المهندس حسام عبد الهادي رئيس مجلس إدارة المؤسسة. استقبلني الرجل بوجه بشوش. أحبيتُ لحيته الرقيقة المهدبة. انعكس على صدري ارتياح شديد لنظراته الساهمة. تمنيت أن أعمل مع هذا الرجل وانتهى الأمر. دعاني وقد اصططحب معاونيه

لتناول الغداء في فندق من أفخم فنادق القاهرة المطلة على النيل . اتفقنا على أن أحصل من عملي على إجازة قصيرة بصفة مبدئية حتى تتضح لي الأمور . كان قد أعطاني ملفات لثلاث شركات تعرض عليه شراء ماكيناتها وطلب مني المفاضلة بينها . منحني أسبوعين أنجز خلالها دراستي ثم أعود إلى القاهرة لمناقشتها معه . في نهاية الأسبوعين اتصل بي سامي . طلب مني أن أستقل طائرة من مطار النزهة بالإسكندرية . أخبرني أن عربية من عربات الشركة ستكون بانتظاري في مطار القاهرة لتُقلني إلى فندق "السلام هيات" بمصر الجديدة والذي سأقيم فيه طيلة فترة بقائي بالقاهرة . وعلى باب الفندق تذكرت حارة جوده وحارتي في حوض السباحة بنادي سبورتنج . لماذا لا تثق بنفسك قليلاً يا رجل فتدرك أنك جدير بأفضل مما ارتضيته لنفسك . فتحت ستارة غرفتي الفاخرة . كانت تطلُّ على حمام السباحة . على الفور التقطت عيناى صوراً مكبرة لنساء شبه عاريات يستلقين بجوار الحمام على مقاعد طويلة ، ونساء أخريات يسبحن في الماء . قررتُ أن أنتهز أقرب فرصة لأستحم في هذا الحوض الجميل . اتصل بي سامي في الفندق وقال لي : إنه يدرس تقريرى واتفق معي على اللقاء بالمؤسسة في السادسة مساء . وجدت أن أمامي متسعاً من الوقت للمتعة والراحة . أول شيء فعلته أن نزلت من الفندق واشتريتُ "مايوه" لأنزل به الحمام .

وأنا ألعب كطفل سعيد في الماء لاحظتُ أن رجلاً يتناول غداءه على إحدى الموائد المرسومة من حول الحوض . أعجبتني الفكرة .

كنتُ أتعجب من جرأتي وأنا أطلب من النادل طبقاً من الجمبري المشوي وآخر من السبيت وزجاجة نبيذ أحمر. أنزل لأعوم قليلاً. أصعدُ لأكل قليلاً وأعَبُّ من النبيذ عباً، ثم أنزل من جديد. يا أعمى هذه هي الحياة تبتسم لك فبادلها الابتسام. رأسك خفيف وروحك طائرة وقبلك يرقص فرحاً. انزل إلى الماء. عُدْ فكل واشرب وانتشِرْ وعاولد النزول إلى الماء. ما أجمل محبتك ورضاك يا الله. حمدي سالم كان محققاً. أنا حمار.

نمتُ نومًا عميقًا هادئًا هانئًا على الفراش الوثير. أخذت حمامًا وتناولت فجاجاً من القهوة وفي الخامسة والنصف حضر السائق ليصحبني إلى المؤسسة.

ناقشني سامي في مكتبه حول بعض النقاط الواردة بتقريرتي وأبلغني أن المهندس حسام مبسوط جداً من دراستي للعروض الثلاثة. في السابعة دخلنا إلى مكتبه. ترك مقعده وجلس بجوارني على أريكة وناقشني في التفاصيل بعقل خبير في مهنته رغم أنه في مثل عمري. قدّم لي ظرفاً مغلقاً وقال:

– مكافأة رمزية وسيكون بيننا اتفاق فيما بعد إن شاء الله.

تناولت الظرف في حياء وشكرته ووضعت الظرف في جيبي. كان كل همي في الحياة أن أختلي بنفسني في الفندق لأعرف كم يحتوي الظرف من الجنيهات. ما إن دخلت الغرفة حتى ألقيت ما بيدي وسارعت بفتح الظرف. خمسمائة دولار! لا أذكر كم كانت قيمة الدولار بالجنيه المصري في ذلك الوقت، ولكنني أذكر جيداً أنني طرْتُ من الفرحة بهذا المبلغ

وقررتُ شراء أجهزة عديدة تنقص البيت لاستكمال ما تيسر من أسباب المعيشة المريحة.

استمر تعاملي مع هذه المؤسسة على فترات متقطعة كنت أحصل خلالها على إجازات من الشركة. تأقلمت على حياة الفنادق الفاخرة لكثرة تنقلي بينها. كنتُ أتناول العشاء مرة في المطعم الإيطالي حيث الأصناف المتعددة من المكرونة والأسماك ومرة في المطعم الشرقي حيث لحمه الرأس والمبار والراقصة الشرقية التي تهز أردافها بكرم شديد. في النهاية وقع الاختيار على شركة سويسرية. نزلنا بشيراتون زيورخ. كدتُ أجنُّ فعلاً من انبهارى بالمنظر الطبيعية الخلابة والحياة المرفهة الناعمة ونظافة الطرقات وجمالها وهي مزدانة بالخضرة في كل مكان. كنت قد قرأتُ رواية فرانكنشتاين لماري شيلي. ظلت مظاهر المطاردة بين البطل والوحش المسكين الذي صنعه لاصقة بخيالي لروعة وصف الكاتبة للمساقط المائية الهائلة وجبال الألب والبحيرات الثلجية والهضاب الشاهقة. فجأة وجدتُ نفسي واقفاً بين أحضان هذه المشاهد على الطبيعة وجهاً لوجه. يا أخي إذا كان الله يحبك إلى هذا الحد فكيف لا توفيه حقّه من الطاعة والعبادة؟ في مساء اليوم الأول اتجهت إلى جبل عملاق يشغل مساحة هائلة، دُقت على جوانبه طريق دائرية عليها أسهم تشير إلى مواقع المطاعم والملاهي والمقاهي، محددة الفترة الزمنية التي تلزم للوصول إليها مشياً أو بالسيارة.

انتهى بي المطاف إلى مطعم يطل على أشجار شديدة الاخضرار ورودها حمراء ومن حولها شلال طبيعي تسقط مياهه في جدول عريض

تحف به الأشجار والأزهار. اللجنة بعينها كانت أمام عيني. بصعوبة
بالغة فهمت مني النادلة العجوز أنني أريد سمكاً مُدخّناً. لم تكن تعرف
الإنجليزية، فاللغات المتداولة في سويسرا تتراوح بين أربع هي الفرنسية
ونوعين من الألمانية ولغة أخرى لا أذكر اسمها تشبه اللاتينية.
استخدمت معها لغة الإشارة وقد استدعت زميلاتها لمعاونتها في فهمي،
واشترك في الحوار والترجمة الفاشلة جيراني على الموائد المجاورة، وكنا
جميعاً نضحك من القلب. شعرتُ بانسراح غير عادي فتركتُ نفسي على
سجيتها وانطلقت في تهريج بالكلمات والإشارات وجعلت من المكان
مسخرة بحق. جاءت صينية كبيرة مليئة بالسموكد سالمون محاطة
بشرائح البصل المستديرة. أخذتُ أنهلُ من جمال الطبيعة وأسحبُ الهواء
إلى صدري بشبق للحياة، وأرتشف البيرة في نهم لم أعرفه من قبل. كلما
انتهت زجاجة جاءت لي النادلة خفيفة الظل بزجاجة أخرى فأقول لها:
لا أريد.. كفاية! ثم آخذ منها الزجاجة على الفور فتنفجر في الضحك..
وكانني في حلم أعاد ملء عيني بالجمال الإلهي المحيط بي، فلا أكاد
أصدق أنني جالس بشحامي ولحامي في مثل هذا المكان من العالم. الله
أنت يا جميل! في غرفتي وقفت متأملاً مغزى شعوري العلوي بالبهجة.
كنت نشوان بغير سكر.. هائماً في عشق الذات الإلهية التي أبدعت هذا
الكون.. كيف كنت أجهل أن في الدنيا هذا الجمال؟ كيف كانت حماقتي
ستحرمني هذه اللحظات الفردوسية؟ "لو هرب ابن آدم من رزقه
لركب الرزق البرق فأدركه".. الآن حان وقت أجهل صلاة في حياتي
لخالق هذا الكون. أخذت حماماً ونويت الصلاة. لم أعرف أين اتجاه

القبلة ولم أحاول ولم أسأل. الله في كل مكان. تذكرت قبلة سيدنا الحسين التي أوليتها ظهري. كنت أصلي وأنا أدرك تمامًا أنني واقف في حضرة جلالته بكل الحب والخشوع. حان وقت النوم. تنهتُ إلى المائدة الصغيرة المستديرة بوسط الغرفة والتي أراها لأول مرة. طوق جميل من الورد الطبيعي الملون يحيط بسلةٍ من الخوص مليئة بالتفاح والموز والفراولة، وفي وسطها بطاقة ترحيب بزيارتي للفندق. نظرتُ إلى السريرين المتواجهين. قررتُ أن أنام على الأرض. يا الله متى أزور بيتك المكرم؟!

وكانه استمع إلى ندائي فأجابني في الوقت المناسب.. وهأنذا الآن على بُعد خطوات من البيت العتيق..

دفعني حبي للتجريب أن أطوف حول الكعبة من أحد الطوابق العلوية لمجرد أن أعرف كم يستغرق ذلك من الوقت مقارنة بالوقت الذي يستغرقه الطواف حول الكعبة مباشرة. الواقع أنني لم أنزل من الفندق بهذه النية. كنت محتفظًا بورقة كتبت فيها سميرة احتياجاتها من العطور والملابس وما إلى ذلك. نزلت متجهًا إلى السوق، لكنني غيرت وجهتي إذ وجدت نفسي مدفوعًا إلى هذه التجربة بقوة. انتهيت من الطواف وكنْتُ منهكًا. توجهتُ إلى محل بالسوق لأتناول العصير وأدخن سيجارة. رأيته خارجة من المحل نفسه وهي تحمل كيسًا به مشترياتنا. رأيتني أمامها جالسًا على الرصيف المواجه للمحل. لم تكن

المرّة الأولى التي نلتقي فيها. سبق أن التقينا في مطعم الفندق وحدثتها طويلاً عن عملي وأسرتي.

صافحتها وطلبتُ لها مشروباً. أفسحت لها مكاناً بجواري وسط زحام الملايين من مختلف الأجناس البشرية وألوانها من المسلمين. كانت ملاكاً طاهراً طائراً مُحلّقاً في زيها الأبيض الناصع وابتسامتها الأسيانة وعينيها المستسلمتين. تحدّثنا حول أعجوبة الحمام الذي يحوم حول الكعبة ولا يستقر فوقها ولا يتوقف عن الطواف. دون مقدمات سألتها:

- لماذا تحجين؟!

- سؤال عجيب.. لأنّتم الركن الخامس من أركان الإسلام.. هل عندك سبب آخر؟

- نعم. أنا جيئتُ لكي أُكفّر عن ذنوبي وسيئاتي، كما جيئتُ لسبب آخر أكثر أهمية.

- لا بد أنك تعلم أن الوقوف بعرفة يخلق منك إنساناً جديداً محرراً من كل الذنوب والسيئات.

- أتمنى هذا، لكن بداخلي شياطين كثيرة أخشى أن تعاودني بعد العودة.

- هذا يتوقف على إرادتك في أن تختار بحسم بين حزب الله وحزب الشيطان.

أنا لا أميل إلى هذه التقسيمات القاطعة. جورج بوش وهو أصولي صهيوي مسيحي يقسم العالم إلى معسكرين: معسكر الخير ومعسكر الشر، وابن لادن وهو أصولي إسلامي يقسمه إلى فسطاط الإيمان وفسطاط الكفر، وكلاهما إرهابي.. أما غصون فتقسمه إلى حزب الله وحزب الشيطان، وكأن للحياة لونين لا ثالث لهما هما الأبيض والأسود.. أنا أرى العالم رماديًا، والإنسان أكثر رمادية منه.

- أليس غريبًا أن تتحدث دكتورة في الفلسفة كما يتحدث العوام؟
- ربما يكون بعض العوام أصدق إيمانًا من العلماء والفلاسفة، لأنهم يؤمنون بالفطرة.. لم تقل لي ما السبب الأكثر أهمية.
- نظرت بتأمل في عينيها الحانيتين وقلتُ لها ما لم أقله لنفسِي أو لمخلوق غيري من قبل:
- إني أعيش صراعًا مرهقًا بين عشقي حياة لم أعشها، وخوفي من عذاب الآخرة. أنا إنسان متردد، ملكاتي الذاتية تحارب بعضها البعض.
- دعني أبسط لك المسألة أكثر من ذلك.
- تفضلي أرجوك.
- ربما تقصد أنه الصراع بين حب الدنيا والزهد فيها طمعًا في المنزلة عند الله.
- الأمر أكثر تعقيدًا من ذلك، ولكن دعينا نعتبره كذلك، أليس حُلٌّ للتحرر من هذا الصراع؟

- إنه معضلة الإنسان الكبرى في كل زمان ومكان، لكن أمره
محلول في القرآن والسنة، بل في جميع الأديان.

- أعرف ذلك ولكنني لا أستطيع الحياة في غير البرزخ الواصل
الفاصل بين النقيضين، والنتيجة هي الرقص على السلم.

- يبدو لي أنك مغرم بتعذيب نفسك بلا طائل، رغم أن رائحتك
تفوح بالطيبة والصدق وحسن النية.

- كيف عرفت؟

- ما عرفته منك أنك تمارس عملاً محترماً وتكسب من حلالٍ
وتعيش مستوراً، وأنت متزوج ولديك ولد وبنت، وأنت وزوجتك
متحابان، كما أن صحتك بسم الله ما شاء الله.. ماذا تريد من الدنيا أكثر
من ذلك؟

تجاوزني في يسر وبساطة بنديّة واضحة دون افتعال، وكأنها هي
التي أوشكت علي الستين وأنا الذي في الثلاثين، وكأنها ألقت بي على
الأرض من قمة جبل شاهق.. لم يكن أمامي إلا أن أهرب. قلت لها:

- إلى أين أنت ذاهبة الآن؟

- إلى الفندق.

- هل تمانعين في مصاحبتني لشراء بعض متطلبات زوجتي من
السوق؟

فكرت قليلاً ثم قالت بابتسامة جميلة:

- بكل سرور.

تمرُّ الأيام كثيبة جوفاء. يعود محيي إلى الظهور من جديد. يكتشف بحضوره أنني غائب. ما عدتُ أرغب في أبحاث لأجل العلم أو المال. اندفعتُ إلى تعاطى الموسيقى والأدب بنهم واشتھاء. قال وهو يضغط بيده على معدته المريضة:

- لن تجد الخلاص في الفن وحده.

- لعلني أجد فيه السلوى.

- العمل المكثف وحده هو الذي يقضى على ملالة الزمن.

- وما جدوى العمل لمن فقد الحافز؟

وتطول سهراتي مع أحمد قمر. يعزف على القانون أحياناً وعلى العود أحياناً أخرى. تصدح الموسيقى بين جدران المنزل الصامتة. ندخن كثيراً سجائر عادية وغير عادية. يسبّ لي في زوجته التي يحبها منذ طفولته وحتى لحظة السباب وبعد انتهائها. يمحق الطرب رتابة الانتظار. تصلني شفافية الفن بالفنان الأعظم فأصلي له. أشعر بانسجام توازناي الداخلية التي أصابها الخلل ونخر السوس في قلبها. الكحول مفعوله مؤقت والتصوف بعيد المنال والانتظار قدر.. "ونحن نعيش يا عصفورتي يا خضراء العينين أحلي أيام عمرنا. قد نكون علي دراية

بذلك أو لا نكون. أما الحقيقة نفسها فشيء رائع. فلننعم بأيامنا ولنستحلب حلاوتها قطرة قطرة قبل أن تنطوي في عالم الذكريات. انها السعادة التي تختصر الزمان الى لحظة كالبرق، عبثي من يمسك بها ويتشبث، فما أحلى حياة الحب! وما أحلى حب الحياة! كم أحبك أيها الخالق الفنان! علمتني أن أستقطر من تلك الحياة المستعصية على الفهم لحظات هناء لا تفنى ولا تزول".

كان من الطبيعي أن أدع ما للعقل للعقل وما للقلب للقلب. لكن حيرتي من أمري تزايدت، فلا أنا عرفت أين أقف بعقلي، ولا متى أقف بقلبي أمام ما يدور حولي من وقائع وأحداث. هزيمة هي شر هزيمة. اليهود أمامنا على ضفة القناة. نساؤهم تستحم عاريات. ممنوع إطلاق النار. الجنود أصاب الصدا أرواحهم. جذوة حبي لسميرة تنطفئ. نرجس تحاول الانتحار ولا تطيق ملازمة جسد زوجها. مجموعة من الانتهازيين يحاولون قلب نظام الحكم فينتهي بهم المآل إلى السجن. خليفة عبد الناصر يتمتع بخبث شديد. ألا يلهمه الله يوماً وسيلة ينقذنا بها من الانتظار؟ لولا مصادفة عابرة لما اختلف حالي مع سميرة عن حال مدحت مع نرجس، وربما جاء يوم تقول فيه سميرة لمدحت عني:

- لم أعد أطيق ملازمة جسمه لجسمي.

أوسخ شيء في هذه الحياة هو الانتظار. انتظار أي شيء حتى لو كان كارثة، فلتقع وننتهي، لأنه إذا كان الموت أسوأ نهاية للحياة، فالانتظار أكثر سوءاً منه.

عندما اقتربَ وقتُ إحالتي إلى المعاش تجلّلت لي الدنيا في صورة غائمة مُضَبَّبة يغشاها ظلام. حتى في أحلامي كنتُ أهان وأُضرب وأصرخ وأسجن وأظلم وأجوع وأتعرى، وأقع في مهاوٍ سحيقة ولا معين. يطاردني مجهولون فأظُلُّ أجري بين جبال ووديان وبيوت قديمة وعمائر منهارّة في طرقات ضيقة موحلة انفجرت فيها مواسير صرف المخلفات الآدمية وفاحت برائحة العفن. أدوس فيها وأنا حافي القدمين وتلقى على أم رأسي من أماكن غير مرئية أكياس من القمامة ممزقة، ثم أجري يمينًا ويسارًا في فزع، وأنبطح أرضًا حتى أتفادى طلقات رصاص طائشة تحيط بي من كل مكان. وعندما كنتُ أعثر على ملجأ ألوذ به حتى أستريح قليلًا، كانت الحشرات الحقيرة تُهاجم جسدي ولا أستطيع إزاحتها عنه. أصبحت حياتي مزيجًا كئيبيًا من الخوف والحزن والقرف، وكأنها صورة كربونية من أحلامي التعسة، أو كأن أحلامي صورة كربونية من حياتي التعسة على مشارف الستين.

داهمني شعوري التقليدي بلا جدوى أي شيء. هذا زمان فات وانقضى بلا معنى، فلماذا يختلف عن زمن في علم الغيب سوف يجيء وسوف أتثبت به رغم يأسِي منه؟

لم أعرف كيف أنجو من حصار ذلك الشعور العبثي القاتل، بل إنني استعذبتُ الحصار فأذعنْتُ له وتوقفت عن فعل أي شيء. أصبحت الدنيا صفرًا مثلي تمامًا. أن أتهافت عليها أو أن أزهد فيها فالنهاية واحدة. لكن لا بد أن أحد الموقفين أنسب لي من الآخر. ولما

كانت حصيلة التهافت على مدى ستين عامًا صفرًا، فإني رأيت أن الزهد في الدنيا تجربة جديرة بأن تعاش ولو على سبيل الاجتهاد والمحاولة، خاصة وأنني أعاني جوعًا روحيًا شديدًا.

رغم ارتياحي النفسي للشيخ خليل القناوي فإن حصيلته المعرفية لا ترقى إلى القدرة على حل مشكلة كهذه، فهو قلب أكثر منه عقل، والأمـر بحاجة إلى إعمال الفكر واستدعاء كل ما أتيح من مخزون ثقافي ومعرفي حتى يقف في مواجهة تلك المعضلة الكبرى.. معضلة التصادم بين الدنيا والآخرة.

على أي حال فقد بدأت التجربة-معتمدًا على نفسي فقط- بشجاعة أحسد عليها. كنتُ أنا شيخي ولا شيخ غيري. قررتُ أن أتجه بكلي إلى الله ولا أعبأ بشيء. تمنيتُ أن أكون ربا نبيًا خالصًا أخرقُ حجاب الحس وأدخلُ من باب القدس وتسكن نفسي إلى راح المحبة وتسطع في قلبي أنوار ملكوتية شعشاعية فأصير من أهل المحبة. أمضيتُ أسابيع قليلة فارقت فيها لذة الطعام والشراب والجنس والقراءة والسهر والرقص والغناء والطرب والأصدقاء والأعداء. لم أشأ أن تكون المفارقة قاطعة مفاجئة، وإنما أخذت نفسي برفق فصرت أتردد في الفراق عسى أن يصير ذلك اعتيادًا. باءت المحاولة بفشل ذريع إذ وجدت نفسي مشدودًا إلى الأمل والتمني والطموح، وكأنني سوف أعيش مائة عام على الأقل. في البداية ظللت مذبذبًا بين هذا وذاك فلم أحظ بغير صفتي المعتادة، وظللت قابلاً في برزخي بين دنيائي وآخرتي كتمثال أصم، وبدأت أفكر

كثيراً في الموت حتى أصبحت حياتي غمّاً وكدراً. في النهاية لم أجد أمامي مفراً من العودة إلى الدنيا ولو ظللت بها صغرياً لا أقدم ولا أحجم، دائماً بين بين.

هأنذا قد أحلت اليوم إلى التقاعد وعدتُ إلى مأساة الانتظار القاتل. المرة الأولى كنت أنتظر العبور، أما هذه المرة فلم يبق ما أنتظره إلا الموت البطيء. لو استسلمتُ للانتظار مرة أخرى فالموت الفوري أهون وأكرم وأشرف. لكنني أحب الحياة. أحبها لدرجة المرض بها، ولذلك فلن أنتظر مرة أخرى، ولا بديل عن انقلاب في حياتي وليكن كيفما يكون. أنا لست على استعداد كي أنضم إلى شلة المعاش ليكون مقرراً عليّ أن أستمع إلى أمجاد كل متحدث وعنترياته وذكرياته المنصرمة، عن نجاحه في العمل ومهارته في الإدارة ورفضه تقاضى رشوة هائلة كانت كفيلة بتغيير مجرى حياته، وعن انتصاراته على خصومه في صراعات عاتية تعرض لها. لا أحد يتحدث أبداً عن فشله في عمل ما أو عجزه عن تحقيق هدف ما. الكل منتصر على الزمن، بينما الحياة سلسلة متعاقبة من الانتصارات والهزائم.. هل أضطرُّ أنا الآخر إلى سرد المصاعب التي واجهتني وكيف تغلبت عليها بحنكتي وذكائي وقدراتي الخاصة التي ينبغي أن أؤكد أنها غير عادية حتى أجذب التفات الجميع واهتمامهم بها أقول؟ الحق أنني لست مضطراً إلى ذلك ولن أكون، بل سأولد من جديد. سأذهب لاستنشاق نسيمات الحرية التي حرمتها ولن يكون هناك

انتظار بعد اليوم. سأقدم علي أي فعل دون خوف أو تردد مهما كان.
سأعملُ وأحبُّ وأسهرُ وأكسبُ صداقاتٍ جديدة، وربما بدأت في
مشروع تجاري طويل الأجل لا أعرف شيئاً عن ملامحه حتى الآن، فيما
عدا أنه لن يمتَّ إلى الهندسة بصلة فقد كرهتها. سأغني وأرقصُ وأبتهجُ
لسماع الموسيقى وقصائد الشعر، وأهيمُ حُبًّا في جمال البحر حين يهدأ
وحين يثور. لن يوقفني شيء عن الانصهار في الحياة والتعامل بفن
وحذق مع ألعيبها الخسيسة، والصبر على شدائدِها ومكائدها،
والضحك منها حتى البكاء.. ولكن كيف ومتي يحدث هذا كله؟ لست
أدري.

لو كنتُ وثنيًا لعبدتُ البحر. أراه أعظم وأجمل وأقوى من الشمس
والقمر والنجوم والجبال والرياح والأنهار. أيام طويلة مرت على المنوال
نفسه. خشيتُ على انتفاضتي من الذبول. أذهب إلى الشاطئ. أجلس
على كافيتريا أم فؤاد مستأنسًا بصدرها الواسع الكبير. أستغرق في
التفكير فيما ينبغي أن يكون المخاض. قلتُ لها: إنني أكاد أُجنُّ من
القلق. هي تجيد الاستماع، تلمع عيناها العسليتان ببريق التفكير في إبداء
رأي أو اتخاذ موقف أو تقديم عون، كما لو كانت عدة رجال مجتمعين.
قالت لي بثقة:

- ربك كريم.. كلنا ننتظر.. انزل البحر وبكره تفرج.

لم أكن أنزل البحر لأعوم وأنا السباح الماهر. كنتُ أستلقي بظهري
على الماء وأترك نفسي على هذا الوضع زمنًا طويلًا قدر استطاعتي دون

حراك، كما لو كنت جثة غارقة طفت على سطح البحر. أستمعُ إلى هسيس الماء وهو يدغدغ جسدي وأسبح في سماء الله. أليس هو المدير لأمر الكون، فلماذا لا يدبر أمري؟

أخرج لأجفف نفسي وأعاود الجلوس مع أم فؤاد. أتأمل قدرتها الفائقة على إدارة عملها بفطرة المدير الناجح، وكيفية تعاملها الحنون القوي مع البشر. أخرجتني من أزمتي بأن أدخلتني في أزمتها. فؤاد بدأ في تحوُّل مخيف. ربِّي ذقنه. راح يتحدث كثيرًا عن الحلال والحرام. المجتمع عنده فاسد كله، كافر منحل، يعمُّ في الفوضى وتعمُّ فيه. الحكام ظالمون مستبدون لا يراعون الله في الشعب الذي يحكمونه. انقطع عن عمله وانضم إلى جماعة غامضة أقام معها. لم يعد يأتي إلى الشاطئ لمساعدتها ولا حتى إلى البيت إلا قليلًا. عندما يأتي فمتعللاً بصلة الرحم فقط. فُصل من عمله لطول تغيبه دون إذن. كنتُ أستمعُ إلى شكواها وأنا الذي بحاجة إلى من يستمع لشكواه. شكواي من حلم يداعبني ويراوغني ولا أعرف ما هو ولا كيف ولا متى يتحقق. يبدو أنني "هجاجص" كبير. أقول ولا أفعل. أتمنى ولا أتحرك. لا أختلف عن مصر الآن في شيء. إعجابي بأم فؤاد دفعني إلى الإصغاء إليها باهتمام وحسن نية. قالت:

- فكرت أن أشتري له مقهى يُديره ويرتزق منه لكنه رفض.

- وهل من المعقول أن يتحول فؤاد من اختصاصي اجتماعي إلى قهوجي يا أم فؤاد؟

- ولمَ لا؟ أَلستُ أقوم بالعمل نفسه وأعيش منه؟
- سكتَ طويلاً ثم سألتها بعفوية:
- ما حكاية هذا المقهى؟
- صاحبه مضطّر إلى السفر.. والمقهى لقطعة.
- الله يحول الأسود إلى أبيض بكلمة من حرفين لا ثالث لهما...
- من هو؟
- أنت لا تعرفه.. ولكن فيمَ اهتمامك بهذا الأمر؟
- لا أحد يعرف أين يختبئ القدر، ولا متى تجيء ضربته...
- لا أعرف.. مجرد كلام لقتل الوقت.
- قالت بحزم قائد جيش كبير:
- أنا أعرف.. اشترِ المقهى يا بشمهندس.

انتشر الخبراء الروس في الجيش المصري كالسرطان. مواقع صواريخهم على الأرض المصرية محرمة على المصريين. لن تضرب بها العدو إلا حينما يريدون هم لا عندما نريد نحن. انتقل محيي إلى موقع عسكري جديد في مرسى مطروح. دعاني للاستمتاع بجمال الشاطئ مع زوجتي رغم أنه كان عام الحسم كما أسماه أنور السادات. حصلت على

إجازة طويلة من قائد وحدتي الجديدة نظير مساعدتي له في أبحاثه العلمية للحصول على الدكتوراه. استأذنت مدحت أن أستضيف معي مدحت ونرجس فلم يمانع.

لم أوفق في تصفية الجو بينهما وانعكس ذلك علي سميرة بالحزم والتعاسة. فوجئت بصوت خافت يهمس في نفسي فرحاً لفشلي في مساعي. تتبععت مصدر الصوت لكنني لم أهتد إليه. حاولت أن أصل إلى سبب ملعون يدعو إليه فلم أعثر له على أثر في ظلمات لا وعيي. أي وحل عفن هذا الذي يلوث نفسي دون أن أدري.. كان الضباط الروس وعائلاتهم يعيشون أسعد أيام حياتهم في هذه البقعة الساحرة من شواطئ مصر. منظر خلاب، طعام فاخر، سكن نظيف، تكية لا صاحب لها، راحة أحلى من الحلم بعيداً عن السكن الواحد والملبس الواحد والحزب الواحد، حيث لا قيمة لفرد منفرد ولا اعتبار.

في ملهى "السيروكو" على قمة الجبل العالي المطل على المرسى بأكمله، صدحت الموسيقى وتبودلت الأنخاب، وراحت المأكولات والمشروبات وجاءت. سميرة لا تحب الرقص. بقيت مع مدحت إلى المائدة. رقصت مع نرجس التي ابتسمت لأول مرة منذ جمعتنا السهرة. لم تنجح الابتسامة في إخفاء مشاعرها وانفعالاتها المتداخلة. الحزن. الصدمة. الشقاء. انهزام الإرادة الفولاذية أمام عناد المال والجاه. التلميح إلى شيء مجهول لكنه مثير حتى الجنون. اقتربت مني، انطلقت كلماتها ناعمة نافذة، التصقت بي، لم تعبأ بمدحت أو سميرة، اختلست

عيناى القلقتان نظرة غير بريئة إلى المائدة. سميرة تبتسم فى سعادة، إنسانة بسيطة، رغباتها من الحياة قليلة، مدحت زائغ البصر كعادته، مسكين، حاولت مفاتحتها فى الأمر من جديد، قالت بثقة ذات مغزى:

- أرجو ألا تفسد هذه الرقصة الرائعة.

- الوفاق ضرورى لاستكمال رحلة حياتكما معًا.

نظرت إليّ بعيني ثعلب:

- أشكُّ فى ذلك.

- لماذا؟

- هناك أسرار لا يُباح بها.

ازداد التصاقها بي. كانت على وشك أن تضع رأسها على صدري وتنام. تضاعف توترى وارتباكى. إنى أخشى هذا النوع من النساء. لست أطمئنُ إلا للمرأة الوديدة المسالمة التى يسهل قراءة نظراتها. عدتُ إلى المنزل مضطربًا تكتنفينى مشاعر غامضة مترعة بالقلق والدهشة والذهول.

فى الصباح اختليت بسميرة على الشاطئ. حاولت استعادة ذكرياتنا الجميلة على شاطئ المنتزه... كنا نجلس فى صمت جميل على مقعدين متجاورين، أحيط كتفها بذراعى. أمامنا راديو ترانزستور تنساب منه موسيقا كلاسيكية ساحرة. جعلنا عيدي ميلادنا عيدًا واحدًا. بقايا

شمعة صغيرة أطفأناها معًا. كان الصمت بيننا أروع تعبير عن الحب الذي يسرى في دمائنا ولا يحتاج الي أي كلام يقال..متى تصحو الأحلام من رقادها، ولم لا تعاود جذوة الأمنيات المنطفئة الاشتعال قط؟

في الغروب جلست وحدي بالشرفة أتأمل تسلل قرص الشمس الأحمر إلى الماء. جال بخاطري مشهد جنازة عبد الناصر. كثير من الشباب السائرين في الجنازة لا يصدقون أنه مات. ربما كانوا يعتقدون في خلوده. أنفث دخان سيجارتي شاردًا وراء لحظة صفاء هائلة أتشبث بها فربما تسفر عن شيء ذي نكهة. أرتشف الشاي الذي أعدته لي سميرة قبل أن تنشغل في إعداد بعض الحلوى للمساء..جمهرة من الأطفال الحفاة وبعض المسنين وكثير من نسوة المنطقة يحتلون الساحة المواجهة للمنزل. يتلقفون علب المأكولات والعصائر المحفوظة التي تُلقى إليهم من بعض الشرفات بمنازل الروس، الذين فوجئوا بقرار ترحيلهم من مصر. سبحانك يا رب!

تفجرت مظاهرات الطلبة احتجاجًا على انتهاء عام الحسم دونما حسم، وبقيَ اليهود علي ضفة القناة. قرون الاستشعار المصرية لا تخطئ. يتمتع بها العلماء والجهلاء على السواء، فالهند تضرب الباكستان والروس الخبثاء يورطون السادات، فلا حسم ولا قرار دون الرجوع إليهم. قال الرجل وهو في غاية من الحرج إن الحسم لم يتحقق لأن جو العالم يكتنفه "الضباب". هكذا انتقلنا من عام الحسم إلى عام الضباب. تهافت النسوة والصبية على اختطاف اللعب الملقاة. أي شيء وكل شيء يمكن أن يحدث في هذه المنطقة المنحوسة من العالم. عشت وشفت

الروس يتصدقون على الرعاع من أموال الرعاع أنفسهم. "زغرتي ياللي مانتيش غرمانه". مضطرون إلى الرحيل عن أرض أبي الهول خلال أربع وعشرين ساعة. تمرد عليهم السادات بعد أن زهق منهم فقرّر طردهم من البلاد. انبهرت بقراره وارتفع ضغط دمي حماسه وفرحة. اهتز جمودي وتحرك سكوني واستنفرت إرادتي. اتصلت على الفور بقائد وحدتي بالإسكندرية. سألته بصوت مكهرب بشحنة متفجرة بالحماسة:

- هل أقطع إجازتي وأعود إلى الوحدة فوراً؟

أجابني ببرود قاتل:

- استكمل إجازتك ولا تنس الشاي الليبي الذي أوصيتك به.

تصورت أن القائد لم يستوعب القرار الخبيث. ربما خيّل إليه أنه مجرد مقدمة لإحدى المسرحيات السياسية التي برع فيها السادات واعتدناها منه، فليس من المعقول أن يكون قد اتخذ قراراً فعلياً بالحرب. إما إنه مجنون وإما إنه قد انتهى في السرّ من وضع ترتيبات محكمة لعبور ذلك المانع المائي الرهيب الذي طالما هددونا بإشعاله بالنابالم لو فكرنا في محاولة اجتيازه. إن كان الأمر كذلك فلا بد أنه أعد العدة لتدمير خط بارليف الحصين الذي قالوا باستحالة تدميره ولو باستخدام القنابل الذرية.. لماذا إذن يطرد حلفاءه؟! لعله لم يجد بديلاً عن مغامرة انتحارية يستعيد بنجاحها كرامة شعبه، أو يحكم بفشلها على هذا الشعب بالفناء.

فوجئت بعربة "بوكسفورد" تقف أمام المقهى وينزل منها وائل -
ضابط المباحث الشاب- بمفرده، تاركاً زبانيته بالعربة. دخل عليّ بوجه
مرهق فيه بشاشة مصطنعة. دعوته لتناول فنجان من القهوة فجلس
بجواري وقال متردداً:

- كيف حالك يا بشمهندس؟

- نحمده ونشكر فضله.. خير إن شاء الله.

- كل خير.. لنا طلب بسيط عندك وأنا واثق بوطينتك.

- تعيش.

- كل المطلوب منك أن تعلق لافتة قماشية على المقهى تباع فيها
الرئيس مبارك.

- أبايعه؟!

- طبعاً.

المسكين يرى الوطنية في مبايعة مبارك! قلتُ له مسلحاً بالصبر:

- الذي أعرفه أن المبايعة لا تكون إلا للمرشح وحيد، لكن هناك
تسعة آخرين.

- عارفين والله.. المهم أن تعلق اللافتة.

- ولنفرض أنني لا أريد انتخابه.. أنا فعلاً لن أُنخبه.

- المهم أن تعلق اللافتة. هذه هي التعليمات الأمنية لأمة خلقه، وإن لم تكن تصدقني اسأل سيادة المقدم عادل مراد.

قال ما قاله وانصرف. المعلم مراد شيء والمهندس مراد شيء آخر. لن أنتكس مرة أخرى. قررت ألا أعلق اللافتة وليكن ما يكون. أُلقيت نفسي على مائدة الأدباء الذين كانوا يتندرون من ظاهرة تكرار اعتقال زميلهم الصحافي عبد القادر حسن، ثم الإفراج عنه بعد تأديبه في القسم بطرق عديدة أقلها سب دين أمه وأبيه. كانت تحية ثائرة بسبب تعرض المتظاهرين المطالبين بالديموقراطية إلى الضرب بالهراوات من عساكر الأمن المركزي وضباطه، وبالسنج والمطاوي من بلطجية الحزب الحاكم وخريجي السجون الذين استأجرهم من الداخلية. حدث ذلك يوم الاستفتاء الوهمي على التعديل الوهمي للمادة ٧٦ من الدستور. أطلق صحافيو المعارضة على هذا اليوم: "يوم الأربعاء الأسود" واعتصموا وتظاهروا وأضأوا الشموع في المساء أمام ضريح سعد زغلول، تعبيراً عن احتجاجهم على تزوير إرادة شعب بأكمله لإرضاء للأسرة الحاكمة. قال لها حلمي سليم ساخراً:

- أبشري، فالسيدة فرنسيس تاون مبعوثة سيدنا بوش عليه السلام تستجوب الآن وزير داخليتنا الهام حول وقائع الضرب الوحشي للمتظاهرين والقبض على الإخوان المسلمين عمال على بطلان. كان نوفل صامتاً والخزي يكسو معالم وجهه.

في المساء فاجأت صحبة البار بالجلابية التي ارتديتها لأول مرة،
ومن فوقها عباءة بنية مزركشة الخواف. انفجروا جميعاً في الضحك
الممزوج بالدهشة، وصاح عبد الله السعيد:

- انظروا.. الحاج مراد في "النيلوك"!

وقالت فادية السبع بصوتها الذكوري المتحشرج:

- إذا كان الرئيس بجلالة قدره قد خلع الكرافات وعمل نيولوك.

بوقار شديد قال رفعت عبد الفتاح:

- الحمد لله. اطمئنوا يا جماعة. بلدنا بخير والحمد لله. كل حاجة
أصبحت الآن مخطوطة في مكانها.

فهم عبد الله أن رفعت يمهد بمقولته الساخرة الطريق لنفسه حتى
نتركه يردد ماي هتف به المتظاهرون كعاداته، وكأنه هو الذي كتب لهم
شعاراتهم: كفاية فساد. كفاية استبداد. كفاية تمديد. لا للتوريث.
انتخابات حرة ودستور جديد. إفراج عن المعتقلين السياسيين وعلى
رأسهم الإخوان المسلمون. ضمان حرية تكوين الأحزاب وإصدار
الصحف. منع حبس الصحفيين الذين يثيرون قضايا الفساد. استقلال
السلطة القضائية. إلغاء قانون الطوارئ.. وما إلى ذلك مما تطالب به
حركات "كفاية" وغيرها من الحركات النشطة التي حركت الماء الآسن
في بحيرة الحياة السياسية الراكدة لأول مرة منذ نصف قرن.. لذلك نظر
إليه عبد الله نظرة تحذير حاسمة وهو يقول:

- إياك والسياسة. اتفاننا الدائم أن يكون مجلسنا للفرشة فقط.

لكن رفعت كان ينقض الاتفاق دائماً في كل مجلس، حتى لو لم يهتم به أحد.. لعبت الخمر برأسه ورغم ذلك كان واعياً بلامبالاة الشلة بما يقول. حاول استفزازهم حتى يجذب انتباههم فقال:

- صدقوني إنني لا أرى فيكم سوى مجموعة من العبيد اليائسين.

نهره عبد الله فاعترضت فادية قائلة:

- اتركه يقول الحقيقة ودعني أضف إليها أننا كذابون، نقبل الذل ونتمسح في الساحة لنداري جبننا، ونتشدق بالدين لكي نداري انحرافنا.

غضب عبد الله وكاد يقف مستعداً للمغادرة. أدرك رفعت الموقف بذكائه الفطري فقال بسرعة وبلا مقدمات:

- أنا مرة نمت مع بنت فنلندية إنما إيه.. يا سلام يا جدعان.. لوز مقشر والله.. كانت بالنسبة لي مرتبة ولحاف في وقت واحد!

أشعلت سيجارة ملفوفة وسرحت في حب الله. كنت سعيداً بجلبابي الذي أضفى شكلاً جديداً ومناسباً لمضموني الجديد. المعلم مراد. الحاج مراد. صاحب مقهى الشعب.

تركت البار وتوجهت إلى المسجد. اعتاد الشيخ خليل البقاء بالمسجد بعد صلاة العشاء فترة يلتقي فيها بأحبابه ومريديه، الذين أعدُّ

واحدًا منهم. أحبُّ سباحته ووجهه البشوش المريح وصوته الخفيض وحجته القوية وروحه المرحّة، وتحلُّره من التشدد والتعصب بدرجة رائعة. الشيخ خليل يعرف عني كل شيء. يحب الاستماع إلى أحاديثي عن أحوالي، ولا يعلق إلا حين أطلب منه.. في المسجد أتكلم معه فيما لا أستطيع الكلام عنه مع أم فؤاد. خليل هو القلب الحنون، وأم فؤاد هي الصدر الحنون.. وما الحياة بلا حنان؟ قال لي بابتسامة تقطر مودة:

- طيب القهوة وقلنا ماشي. الجلاية وسكتنا. الحشيش وغلبت معاك ولا فائدة.. أما جلوسك في البار فهذا ما لا أرتضيه لك أبدًا.

- أنا لا أشرب يا مولانا.

- لكنك تُجالِسُ السكارى.

- والله يا أخي مجلسهم جميل يشرح الصدر ويذهب الغم والكدر عن النفس.

- يا رجل اتَّقِ الله.

- اسمع.. أنا عازمك الليلة على عشوة كوارع.

- وما المناسبة إن شاء الله؟

- الكوارع ترمّ الركب، والمؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف.

في البيت قالت سميرة متهمكة ولكن في أدب:

- موضة جديدة تعلمتها يا مراد..العشاء خارج البيت.

- من ستين سنة وأنا أتعشى في البيت..كفاية!

من الملف رقم (٥)

وائل الأبراشي:

الوضع في مصر الآن لا يقبل "المنطقة الوسط" ولا يرضى بمسك العصا من المنتصف. نحن في مرحلة الفرز الحقيقي. قل كلمتك الآن وامض وتحمل الثمن، فلن يكون مقبولا من أحد أن يقول كلمته بعد أن تنتهي هذه الفترة الحساسة والدقيقة والمفصلية في تاريخ مصر. سوف يسأل على الفور: أين كنت حينما كان النظام يمارس الاستبداد ويتورط في الفساد؟ ولماذا تأخرت في أن تُحدد موقفك وتقول رأيك؟ هل فضلت الأمان والسلامة؟ هل اخترت الانتظار حتى يسقط النظام؟ الوضع الآن في مصر لا يقبل بطولية الوقت الضائع ولا يرضى بالمواقف المتأخرة. الحياد مصيبة. الصمت مصيبة أفدح. هذا زمن الفرز الحقيقي في المجتمع. انضموا إلى كتبية التغيير أو اركبوا سفينة النظام التي تغرق.

سجلوا أسماءكم في جمعية إصلاح مصر أو اقبلوا أن تكونوا أعضاء في حزب تخريب مصر.

... وائل الأبراشي صحافي نائر ومعارض للنظام والمحرر الأول بجريدة صوت الأمة.

المستشار محمود مكي:

النظام ليست لديه الرغبة في التغيير لأن طبيعة الحكم الشمولي ترفض تقييد سلطات الحاكم المطلقة. إن مبارك يرى القضاة من خلال التقارير الأمنية ولم يجلس معهم طيلة خمسة وعشرين عاماً، والشعب فَقَدَ الثقة فيه. إذا كان عليّ أن أشخص الحالة السياسية ونظام الحكم في مصر، فأنا أشخصه بأنه أشبه بمريض بالشيخوخة، والتي إذا تسللت لأي شخص، فإنه يُصاب بقصور في السمع والإبصار. أصبح من الصعب على النفس البشرية التي اعتادت تجميع كل السلطات في يدها والتحكم في كل شيء ورفض المعارضة والرأي الآخر، أصبح من الصعب عليها سماع غيرها، أما المواطن فقد أصبح لزاماً عليه أن يقوم بالتعامل مع هذا المريض بأن يعلي صوته بأعلى ما عنده حتى يسمعه، ويحاول أن يلفت الأنظار إليه حتى يراه.. وهذا هو الذي ينقذ المريض من الدخول في الغيبوبة أو الموت الإكلينيكي.

... محمود مكي نائب رئيس محكمة النقض والمعارض لتزوير الانتخابات.

إبراهيم عيسى:

هذه دولة بوليسية لا تعرف سوى طريقة ضابط المباحث الخائب الذي لا يُجيد سوى تلفيق القضايا والاتهامات، والنصب والتعذيب لانتزاع الاعترافات الوهمية. هذه دولة تتمتع بقدر هائل من عمي القلب. حين تحاول أن تقمع جريدة فإذا بها تكشف عن خيبة وعجز وترصد وترصد، وتُعري نفسها أمام العالمين "خايبة وش وظهر.. خايبة الصيف خايبة الشتا". لقد حُجزت أجهزة الدولة على جريدة صوت الأمة بقضية عبطة وملفقة ووهمية، وهي محاولة مكشوفة لإرهاب صوت الأمة بعد أن أصدروا حكماً قضائياً بسجن رئيس تحريرها وأحالوا رئيس تحريرها التنفيذي إلى محكمة الجنايات. لقد مارست الدولة أعتى وأغبى وسائلها في الترويع والتهديد ضد الصحفيين الشرفاء الذين لم ولن ينضموا إلى قطيع الموافقة والمنافقة المائلة والمهدئة حتى لو سجنوا أو حُجزوا على أموال أو ضربوا أو قتلوا.. أفهموها "بقي".. كونوا خصوصاً شرفاء بدلاً من الأعياب وحيل ووسائل الخصم النذل.

ويقول إبراهيم عيسى في مقال آخر:

ليس على حسني مبارك أن يخاف من المعارضين ولا أن يخشى من الإخوان المسلمين على عرشه وحكمه، بل أظن أن عليه أن يخاف ويخشى من القتلة ومختطفى النساء ومغتصبي البنات على حكمه وعرشه، فالقوضى القادمة في مصر لن يكون فيها معارض ولا إخواني.

سيكون فيها فقراء ومطحونون ومحرومون مادياً وجنسياً اشتد بهم الغضب إلى درجة العنف والقتل والعدوان. لن يحطموا يومها واجهات محلات أو كباريات شارع الهرم كما حدث من قبل، بل سيصعدون إلى العمارات والبيوت وسيحطمون كل شيء في طريقهم.. وأول ما سيتحطم ساعتها هو استقرار حكم مبارك.

...إبراهيم عيسى رئيس تحرير جريدتي صوت الأمة والدستور.

عبد الحليم قنديل:

إن الجهالة الأمنية النافية لمدينة الدولة توسع نفوذها في لحظة انهيار وانحطاط غير مسبوق. صارت الكلمة العليا للأمن في حكم لم تعد له من دعوى سياسية سوى أيديولوجية النهب العام. تحولت الدولة إلى عصابة نهب، وتحول الأمن إلى سلاح للكبت جرى على الأجهزة الأمنية المتضخمة الميزانيات والإمكانات. لم تعد قوات لأمن دولة أو نظام، بل تحولت عند سلاسل القيادة العليا بالذات إلى حام وشريك تأخذ نصيبها من الكعكة بحكم العضلات الأقوى، وترد الجميل لرأس العصابة بسبل الحماية إلى حد الاغتصاب.. وإذا كان طبع القوة العارية هو الاغتصاب فإنها تخدم نظاماً بالمعنى المجازي يغتصب الثروة ويغتصب السلطة، والاعتصاب بنزوع التملك المسروق خيط ممتد من اغتصاب الأرزاق إلى اغتصاب الأبدان، فعائلة مبارك تغتصب البلد، وجيش العصابة من وزير الداخلية إلى العسكري الأسود يغتصب أهلها.. عائلة مبارك تغتصب مصر، وعصابة مبارك بانفلات الغرائز الوحشية تغتصب المصريين.

...عبد الحليم قنديل أول مَنْ عارض التمديد والتوريث بحدة قاطعة وهو من مؤسسي حركة كفاية.

المستشارة الدكتورة نهى الزيني:

نحن في حالة تشبه حالة المخاض الذي يسبق الولادة، ولكن على أي صورة سيأتي المولود؟ وهل سيأتي سليماً أم معوقاً؟ لا أحد يعرف؟ المثقفون أصابهم يأس شديد من الفساد المستشري في كل مكان ومن القهر والاستبداد وتكميم الأفواه، ورجل الشارع العادي تم تجريف وعيه السياسي منذ فترة طويلة، فبعد حرب ٧٣ ثم سياسة الانفتاح بدأت عملية اللهاث وراء سراب الرفاهية أو الرخاء الذي لا يأتي إلا لطائفة محدودة تساهم بدورها في إفساد الحياة السياسية وإفقار عامة الشعب في حلقة لا تنتهي. أما النخبة الحاكمة فكل همها هو الحفاظ على مناصبها مهما تكن التنازلات أمام القوى العالمية المتغولة. إن ما يحدث في الداخل هو نتيجة لما وصل إليه وضعنا دولياً من استسلام مُخزٍ لأي شروط تفرض علينا بلا أدنى قدرة على المقاومة على الأصعدة عسكرياً وسياسياً واقتصادياً كافة.. وقد فَقَدَت مصر مكانتها العربية وحققت الصهيونية هدفها في تهميش الدور المصري تماماً، وفي كل يوم يزداد حجم الخسائر؛ لذا فالصحوة الشعبية هي طوق الإنقاذ، وهذا لن يتم بغير تضحيات يقدمها الشرفاء في كل مكان.

...نهى الزيني هي التي كشفت عن تزوير الانتخابات في دائرة دمنهور وأعلنت ذلك في الجرائد.

اقتحم مدحت خلوتي فسألته:

- ترى هل سنحارب؟

أجاب بتركيز شديد علي مخارج ألفاظه:

- سأسافر إلى الكويت خلال أسبوعين.

تملكت مني فرحة لا تعادلها إلا فرحتي بأن نبدأ الحرب بالفعل
وسألته:

- كيف؟

- حصلت على عقد عمل بأحد المستشفيات هناك.

- ونرجس.. هل تأخذها معك؟

- سنتتظرنى حين إعداد سكن، والبحث لها عن عمل مناسب.

- عسى أن تكون خطوة إيجابية لرأب الصدع.

توقعت أن تسعد نرجس بهذه الخطوة المتوافقة مع أحلامها، لكنها
تجاهلت الأمر كلية. لعلها لم تكن واثقة بجدية مدحت في تنفيذ ما اعتزم
عليه. ربما لم يطلعها على قراره حتى الآن. سألتها بفضول شديد:

- لماذا لم تخبريني بهذا النبأ السار؟

ابتسمت في لا مبالاة ولم تعلق بشيء. قلتُ لها:

- أسباب سعادتكما لا ينقصها إلا المال، وها هو في الطريق.

أجابت بالابتسامة نفسها:

- ثقتك الزائدة بمدحت تذكرني بثقتي به أيام الحب.

- ما معنى هذا؟

- مدحت اعتاد حياة مرفهة يطلب فيها فيجاب، وهأنا اليوم أدفع
الشن بلا عائد.

قالت: إنه لن يطيق الغربة ولن يحتمل حياة الجفاف والوحدة. لن
يرضى بالعمل الشاق ولن يقبل المعيشة مع أغراب مختلفي الطباع. لن
يعرف كيف يقتصد في الإنفاق وسوف يبحث عن سبب تافه يتكئ عليه
ليبرر عودته إلى مصر صفر اليدين.

خلال انطلاقتها الحماسية في سرد مساوئه، تعمدت أن تعقد
مقارنات موحية بيني وبينه، تدسها في الحديث بدهاء مخيف، فأنا في
نظرها إنسان عاقل متزن. رجل يُعتمد عليه. موضوعي يميل إلى الحذر
والاعتدال في الأشياء والمواقف. لم أعرف من أين أتت هذه الصفات
الوهمية التي لا أعرفها عن نفسي وأضفتها عليّ. أنا الحقيقي لا يعرفه
أحد حتى أنا. تذكرت الموسيقى وحلبة الرقص والتصاقها الشديد
بجسدي عن عمد. عاودتني الهواجس الشيطانية وانتابتني الحيرة،
فهرعت إلى سميرة ألوذ بجسدها الذي كان منتفخا بالحمل، فهذا الذي
يقهر نفسه أعظم من ذاك الذي يفتح مدينة.

كان صيفاً مفعماً برائحة خريفية. سافر مدحت إلى الكويت
وجاءت نرجس إلى المستشفى لتهنئتنا بالمولود عادل. لم ألمح في عينيها

صدق السعادة بمقدم الوليد. كانت تعسة حتى أذنيها. أفاقت سميرة
من المخدر وكان أول ما نطقت به اسمي. قالت لها أمها بعتاب جميل:
- تنسين من بقيت سهرانة بجوارك حتى الصبح ولا تذكرين إلا
"مراد"؟

أصرت نرجس على دعوتي للغداء، وألحت سميرة عليّ أن أقبل
الدعوة. بقيت الأم وذهبتنا -أنا ونرجس- إلى منزل العائلة. فوجئت
بمائدة معدة إعداداً خاصاً، كما لو كان من المعلوم مسبقاً قدوم ضيف
مهم للغداء، جلسنا نشرب الشاي. جثمت على أنفاسنا لحظات صمت
ثقيلة كجبل. انفصل كل منا عن زمانه ومكانه. تنهت إليها فجأة
فهالني ما رأيته، دموع غزيرة تنساب من عينيها في تدفق مثير، والويل
لرجل من دموع امرأة فاتنة. اكتفيت بالتعبير التلقائي عن دهشتي
البالغة وتأثري الشديد دون أن أتفوه بكلمة. في البداية حاولت أن
تمسح دموعها بمنديل، ثم ألقت به وانفجرت تبكي بصوت مسموع.
كان نشيجها المتقطع أشبه ببكاء صبي فَقَدَ شيئاً عزيزاً عليه. سألتها
بصوت لا يكاد يُسمع:

- ما بك؟

- لم أعد أستطيع الصبر.

- ما الذي حدث؟

- أفضل ألا أتكلم.

انتقلتُ لا إرادياً إلى جوارها. وجدت نفسي أربت على كتفها
محاولاً تهدئتها. ناديتُ على الخادمة لكي تحضر لها كوباً من الماء. هزّت
رأسها قائلة: إن الخادمة لم تحضر اليوم. أحضرتُ لها الكوب. قرّبه من
فمها الوردي الدقيق، فراحت تشرب وعيناها الحزيتان مثبتتان في عمق
حدقتي عيني، بإيجاء أثار الرعب في جسدي والهياج في عصبي. تذكرت
عادل وتمثلت في مخيلتي الشتية مشاعر السعادة الطاغية في عيني سميرة
بشجرة حبنا الأولى.

-اهدئي وصرحي لي بمتاعبك، وثقي بأمني سأكون أميناً على
سِرِّك.

لو لم أسارع بالعودة إلى مقعدي لارتمت في حضني. استأذنتني كي
تغسل وجهها وتغير ملابسها. رحتُ أعبث في أسطواناتها الموسيقية وأنا
غارق في مشاعر متناقضة تتأرجح بين القلق والترقب والتردد الذي
أدمنته حتى في مشاعري. وضعتُ أسطوانة على القرص وانبعثت
الموسيقا عالية تمزق لهفة الانتظار والتطلع إلى طلاس المجهول. نسيت
أنه لا بد من العودة إلى وحدتي هذا المساء لتسلم نوبتجية الحراسة.
أحرس ماذا ومن ماذا؟! الحقيقة إنها حراسة زائفة لشيء واحد هو
الوقت. رغم ذلك فإنه يهرب من الحراسة مهما تكن كثافتها، دون أن
يجرؤ أحد على اعتراضه.

أقبلتُ في ثوب وردي نادر الجمال. كان وجهها مختلفاً تماماً عن
الوجه الذي تركتني به..ربما كانت تبسم، لكنني لم أفهم جيداً ما أوحى

به تلك الانفراجة الرقيقة بين شفيتها. عندما جلستُ قدمتُ لها سيجارة فاعتذرت. استجمعت إرادتها وقال بنبرات عميقة:

- تريد أن تعرف مأساتي ..

- ليس لمجرد المعرفة، ولكن بغرض المساهمة في التوصل إلى حل.

- وإذا لم يكن الحل بيد أحد؟

- لنأمل في الله خيرًا.

ابتسمت بمرارة وهي تقول في يأس:

- اعلم أن مدحت عاجز عن ممارسة الحياة الطبيعية معي.

لم أصل بتفكيري حتى أقصى مداه. ظللتُ مشدوها وموسيقا عبد الوهاب تضرب في قلبي، وبينما كان عقلي يفكر في مقصدها تملكني خجل شديد. نظرتُ إليها فرأيتُ شررًا متطايرًا من عينيها يحرق الناظر إليها بقوة التحدي. هذه هي المأساة يا مراد. إن كنتَ رجلًا صادق العزيمة في البحث عن حل فتقدّم. لكنك لن تفعل شيئًا لأنك لا تستطيع وربما لأنك لا تريد. قالت: إنها باختيارها ملحت فقد وقعت على أتعس اختيارات حياتها. فلا هي طالت الحياة التي تحلم بها، ولا هي طالت أبسط حقوق زوجة فقيرة تستمتع برجولة زوجها بعد تناول عشاء تقليدي من الفول والطعمية والطرشي، ومن بعدها كوب من الشاي وسيجارة. حتى المسكن المستقل حرمت منه ردًا علي تحديها السافر لصهرها العنيد باختطاف ابنه منه. قلت لها ورأسي مُنكّس:

- الأمر يحتاج إلى تفكير وروية، ولا معنى لأن تفقدي الأمل في كل شيء.

- أنت أول إنسان أطلعه على هذا الأمر.

- ربما يأتي العلاج الطبي أو النفسي بنتيجة.

- لا أمل في علاج الرجال الضعفاء.

انكشف أمامي المستور. في كلماتها ونظراتها احتقار جلي لمدحت الضعيف دائماً أمام تسلطها وأمام جسدها الفائر. لو أحضر لها مال الدنيا فستبقى سعادتها بعيدة المنال. لم تكن نكسة يونيه - كما صورت لي سذاجتي - وإنما كانت نكستها هي الدافع إلى محاولة الانتحار حين تأكد لها أنها فقدت كل شيء.

سطع أمامي ضوء الحقيقة كاشفاً فاضحاً فازداد تعاطفي معها وتمنيت لو أفعل المستحيل لإسعادها، لا تحقيقاً لرغبة سميرة، وإنما لرغبة حقيقية تأصلت بداخلي وتجذرت. لم يكن هناك بُدٌّ من إنهاء الزيارة. تركتها دون أن أنسى تشبث يدها بيدي لحظة المصافحة الأخيرة.

بعث نور القمر من خلال أمواج البحر المتحاضنة برسالة شفرية إلى أرض معسكرنا الصغير على شاطئ البحر. على ضوئه الفضي البهيج قرأ كل منا رسالته كيفما يريد. قالت لي الرسالة: إن الحب جميل والحياة

حلوة وجديرة أن تُعاش به. لكن لا مفر من الحرب والدماء حتى نكون جديرين بها كوننا رجالاً. لا بد أن هذا الخاطر قد راودنا جميعاً-بصورة أو بأخرى-على اختلاف أهوائنا وثقافتنا ومشاربنا، فقال كل منا ما عنده بانسياب صريح. أمامنا أكواب الشاي وعلب السجائر، ومن خلفنا بقية العساكر يغطون في نوم ثقيل. الحياة لم تتوقف بسبب النكسة، والنسمات الخريفية ما زالت كعهدها تداعب أمواج البحر الرقاصة على موسيقا القمر الفضية المتألثة. نحن مجندون منذ أربع سنوات فماذا فعلنا؟ قلت:

- لا شيء!

قال ربيع الصحفي المتميز دائماً بين أقرانه:

-بل فعلنا الكثير. انتقلنا من إعادة بناء الجيش بعد تدمير البارجة الإسرائيلية "إيلات" إلى مرحلة الصمود، ثم إلى مرحلة الردع، ثم الاستنزاف.

قال إسحاق منقريوس الصحافي الحديث التخرج:

- الحقيقة إننا لم نفعل شيئاً بهذه السنوات، بل هي التي فعلت بنا، إنها علمتنا الكسل والانتظار وبلادة الذهن واللامبالاة بأي شيء.

واستطرد قائلاً بعد فترة صمت أملت بنا:

- إننا بحاجة إلى حدث كبير يهزنا من أعماقنا ويعيد إلينا رجولتنا المسلوكة.

لم تكن هناك مودة بين ربيع وإسحاق، فالثاني دمث الأخلاق مرح الطباع. كان ربيع يستمع إلى كلماته وعلى فمه ابتسامة هازئة. اندفع ممعناً في السخرية من كلام إسحاق:

- تصفيق حاد يا جماعة.

وأخذ يصفق بشدة. فوجئتُ بأنني أشاركه التصفيق مع الآخرين. لم يلبث إسحاق أن انضمَّ إلينا مصفقاً هو الآخر، لكنه تركنا لينام. جلسنا نتأمل صفاء السماء، وكلُّ منا يرقب على طريقته مناجاة النجوم لإشراق القمر، ورغاوى الموج البيضاء وهي تتكسر على الشاطئ. سألني ربيع عن مدحت فأخبرته أنه سافر إلى الكويت. قال بحماسة:

- لقد فعل العيسوي بك المستحيل لإثثائه عن عزمه.

- لماذا؟

- لأنه كان يريد أن يختصر له الوقت والطريق والجهد في بلده، بدلاً من "البهدلة" عند من يساوي ومن لا يساوي.

- وهل قرّر مساعدته الآن؟

- بشرط أن يطلق نرجس.

- وهل التقيا مؤخراً؟

- بل أرسلني مبعوثاً إليه لكن مهمتي فشلت.

- يا له من أب قاسٍ!

- أنت لا تعرفه يا مراد، إنه ذلك الصنف من الرجال الذي يقال عنه: "إن رضي باض الحما على الوتد، وإن سحق بال الحمار على الأسد".

غرقْتُ في إشفافي على مدحت، حتى أنني نسيت أن أشفق على نفسي أو على وطني.. لكن ما الوطن؟

من الملف رقم (٦)

هشام البسطويسى أحد شيوخ قضاة مصر ودعاة استقلال القضاء وكاشفي تزوير الانتخابات والذي تعرض لمهزلة سُميت بالمحاكمة التأديبية.. يقول: إن المجتمع المصري يعاني حالة الانهيار على جميع المستويات، وأن "الأصفار" تسيطر على كل المجالات، وهو يرى في حديثه لجريدة الكرامة أن هذا الانهيار هو نتيجة طبيعية لنظام حكم يقوم على شرعية الأمر الواقع التي أعطت الفرصة لقيام تحالف قوي للفساد مع السلطة الحاكمة، وأصبح المعيار الأساسي لتولي المناصب القيادية بالدولة في جميع المجالات هو معيار الثقة للثقة على حساب الكفاءة والخبرة، مما أدى إلى تدهور الأداء الإداري والحكومي وانهيارهما في جميع المؤسسات، وهو ما نجم عنه تكرار الحوادث والكوارث بشكل دائم ومستمر في جميع المجالات. وعندما يطلب من القضاة المشاركة في التزوير أو الصمت عليه، وعندما تتم حماية الذين

زوروا وشاركوا في التزوير، وفي الوقت ذاته يتم محاسبة من كشفوا التزوير بدلاً منهم، فمن الطبيعي أن يتتشر الفساد وينهار المستوى بين القضاة.

الدكتور سيد البحراوي ناقد يساري وأستاذ بجامعة القاهرة يصرح للجريدة نفسها بأن ما مضى من حكم مبارك ليس ٢٥ سنة بل ٢٥ قرناً من الزمان أعادت البلاد إلى عصور الظلام وتفاقت خلالها المشكلات حتى وصلت إلى أسوأ مدى يمكن أن تصل إليه. ويؤكد الدكتور غياب دور الدولة وأنها نعيش الآن بلا رئيس جمهورية وبلا حكومة.. فقط إدارة بوليسية على صلة مباشرة بالأمريكان، وعصابة منظمة تدير شئون البلاد والعباد.. لا يوجد الآن أي مقوم من مقومات الوطن، فالناس تعيش حياة مغيبة، والذي ينظم هذه الحياة في مصر مجموعة عصابات ناهبة، والذي يسيطر على الجميع هو الأمن.

أما عبد الحليم قنديل الذي تعرض للمحاكمة بتهمة الإساءة إلى رئيس الجمهورية فهو يقول صراحة بأنه ما لم تتم إزاحة مبارك وحكم عائلته فسوف ينتهي المشهد إلى مذبحه.. وما حدث في قلب القاهرة أيام عيد الفطر الحزين حيث ارتكبت أعظم الفواحش في الطريق العام دون أن يرف جفن للحاكم الهاجع في شرم الشيخ، ولا لوزير الداخلية القابع على بُعد خطوات في مبنى لاظوغي الرهيب، ولا لجهازه المشغول بفبركة صور خائبة لمعارضى سيده، فما دام لا أحد يهتف ضد مبارك ولا ضد حاشيته المليارديرات، وما دام أحد لا يتظاهر ضد الفقر والقهر

والبطالة والعنوسة، وما دام أحد لا يغضب لشعب مهان ولبلد ضاع دوره وانحطت مكانته.. ما دام أحد لا يهدد حكم العصابة فلا داعي للتحرك، فجيش المليون جندي أمن مركزي مخصص فقط لحماية نظام مغتصب للسلطة. إذا تظاهر ثلاثون شخصًا أحضروا لحصارهم- في ثانية- ثلاثين ألف عسكري أمن مركزي، أما ثورة الهياج الجنسي الحيواني فلا تهم أحدًا هناك وكأن لسان حالهم يقول: دعوا المجتمع يحطم المجتمع.. دعوهم يحترقون بجوع الشهوات بعد احتراقهم في القطارات وموتهم في العبارات، ولا خوف هناك فقد أقاموا منتجعاتهم وقصورهم في شرم الشيخ وفي مدن الخلاء الصحراوي وبالقرب من المطارات، وهم على استعداد لحمل الحقائق إلى حيث عواصم الشيكات مع اندلاع شرارة الخطر.

ويقول الصحافي محمد عبد القدوس الذي يجمع بين التيارين الليبرالي والديني، إنه بعدما حدث من تعديل للمادة ٧٦ من الدستور وما تؤول إليه الحكومة التي تتبنى سياسات رجال الأعمال الذين يقفون على قمة الوزارات ويتفننون في تجويع أفراد الشعب وتعذيبهم وإذلالهم، لا يمكن الحديث عن الإصلاح، فالنظام السياسي يكرس كل إمكانياته لإتمام مخطط التوريث ولا يهمه مصلحة الشعب، لذلك فلا مجال لأي إصلاح، والتغيير هو الحل الوحيد.. إن مستقبل مصر مجهول ولا يمكن التنبؤ به. والخطورة الحقيقية تكمن في تحالف رأس المال مع السلطة، مما أدى إلى حدوث انقسام في طوائف المجتمع بين أغنياء

وفقراء، مستثمرين ومستضعفين، جبهة السلطة وجبهة المجتمع، وأصبحت استراتيجية الخدمات والاستثمارات كلها مركزة في فئة الأغنياء فقط، وعلى الفقراء أن يدفعوا ثمن ذلك لأنهم سقطوا من الخريطة الاستراتيجية للنظام الذي فشل في عمل أي إصلاحات في أي المجالات. النظام الحاكم في مصر لا يهتم إلا أمنه الخاص، حيث يتم صرف المليارات على الشرطة والمخابرات والأجهزة الأمنية كافة، بينما لا تحظى الخدمات العامة أو الهيئات والوزارات التي تساعد الفقراء أو الشرائح البسيطة والضعيفة في المجتمع المصري بأي اهتمام. إن النظام يستهين بالمجتمع لدرجة الاحتقار واللامبالاة، لذلك يفتح أكثر من جبهة لإلهاء الناس عن مخطط التوريث، في حين أن الغضب الشعبي وصل إلى ذروته، ولا أحد يستطيع وقف هذا المخطط إلا الشعب، وإذا وقف الناس ضده فلن يستطيع النظام مواجهتهم.

أسامة الغزالي حرب:

تجربتي مع الحزب الوطني تؤكد أنه لا يوجد فكر حقيقي جديد بداخل لجنة السياسات التي وظيفتها الحقيقية هي تقديم جمال مبارك للرأي العام الداخلي والخارجي، والدليل أنه قبل إنشائها لم يكن لجمال مبارك أي صفة محددة.. كما أنه على الرغم من نفي النظام المتكرر لنية التوريث فإن كل الوقائع والأحداث تؤكد عكس ذلك. إن المستقبل سيئ للغاية وغير مُبشِّرٍ على الإطلاق، وأسوأ شيء هو أن حلم المستقبل أصبح معدوماً وميتاً، ليس للجماهير وحدها بل حتى للنخبة. والكارثة

أنه مهما تصل براعة المحللين السياسيين لا يمكن لهم تحديد ملامح المستقبل في ظل الظروف السياسية الراهنة غير محددة المعالم.
... أسامة الغزالي ليبرالي انشقَّ عن الحزب الوطني وفضح ممارساته.

الدكتور يحيى الجمل:

إذا ظل النظام رافضاً لأي إصلاح فقد يؤدي هذا إلى كارثة لأننا نجدهم متمسكين بالحكم الاستبدادي، وهذا الوضع سيؤدي إلى الانهيار وتآكل الدولة، فالعالم كله يتغير. أوروبا الشرقية التي كانت تعيش في ظل حكم استبدادي رهيب تغيرت. العالم لم يعد جامداً. إنه يتغير بسرعة، ولا بد أن يستجيب النظام لهذه التغيرات ويفتح باب الإصلاح. إلا أن النظام يرفض الفكرة من أساسها فهو يريد غلق الباب تماماً، وفي هذه الحالة يكون هناك احتمالان: الأول هو أن مصر ستنهار والنظام سينهار وتنتشر الأوبئة ويتسمم الخبز وتنتشر الأمراض إلى أن ينتهي البلد إلى الانهيار الكامل بسبب مظاهر الفساد المستشري.. والاحتمال الثاني يستبعده البعض ولكني لا أستبعده وهو صحوة الشعب المصري، فلا أحد يتوقع ما الذي يحدث إذا ثار الشعب، فهو الذي قام بهبات لم يكن يتوقعها أحد مثل ثورة ١٩١٩ وانتفاضة يناير ١٩٧٧.. هذا يمكن أن يحدث لأن الناس بدأت تبحث عن لقمة العيش وقرص الأسبرين والأنسولين. إن الاستبداد يؤدي بالضرورة

إلى انتشار الفساد، والاستبداد القائم يؤدي إلى فساد رهيب لدرجة أن البعض يقول إن أقوى مؤسسة في مصر الآن هي مؤسسة الفساد.
... الدكتور يحيى الجمل أستاذ القانون الدستوري ومؤسس حزب الجبهة الديمقراطي.

جورج إسحاق:

إن المقاومة لفرض رغبة التغيير تقوم على التراكمية، فلا يعقل لمجتمع ظلّ بعيداً عن الحراك السياسي منذ عشرين عاماً أن يحقق فجأة كل ما يطالب به، ولكنني أؤكد أن "كفاية" نجحت في تكريس ثقافة الاحتجاج التي كانت غير معروفة لدى الشعب المصري، ومنها الحديث عن العصيان المدني والاعتصام من أجل المطالبة بالحقوق في كل المجالات، كما أن الحركات السياسية تقوم على المد والجزر، ونحن في النهاية مجموعة ضغط تحاول تحقيق أهدافها دون سقف زمني.. أضف إلى هذا أننا نواجه نظاماً شرساً يستعمل كل أساليب القمع.

...جورج إسحاق المنسق العام لحركة كفاية.

يحيى حسين:

إن مصر تتغير منذ سنتين حيث كانت هناك خطوط حمراء تم تجاوزها، ليس منحة من السلطة وإنما أخذت بالقوة وانتزعت، وأنا متفائل وأراهن على الشباب لأن القيادات معروفة ودورها واضح.

هؤلاء الشباب دفعوا الثمن ضرباً وقهراً وسجناً، وكذلك الصحفيون الشرفاء الذين كسروا الخطوط الحمراء الوهمية، وكل القيادات المعارضة تسهم ولا شك في عملية التغيير، وقد بدأت القوى الوطنية في مصر بتياراتها كافة تتغاضى عن خلافاتها إلى حد كبير.

...يحیی حسین الموظف العام الذي فضح مهزلة بيع المسؤولين عن الخصخصة لشركة عمر أفندي بثمان بخس لغرض التربح.

الشاعر فاروق جويدة:

إنني شاهدتُ بعيني عشرات الأشخاص ينامون على الطرقات أمام غرف الاستقبال في مدخل المستشفى العريق الذي دفع فيه الشعب مئات الملايين، وكانت وراءها قصص غريبة عن العمولات والتحايل ونهب المال العام. العشرات من فقراء مصر ينامون في مدخل المستشفى، منهم من ينزف لإصابته في حادث مرور، ومنهم من يصرخ يطلب العون والمساعدة، ومنهم من كان قريباً جداً من الموت.. إن هناك أكثر من شكوى وصلتني عن سوء الأحوال وفساد الخدمة وإهمال صحة المواطنين، وإن أسرة استنجدت برجال الشرطة لإنقاذ ابنها الذي أُصيب في حادث وظل ساعات ينزف أمام مدخل المستشفى العالمي الرهيب، ولا يجد من يقدم له يد العون والمساعدة. قلتُ هذا لوزير الصحة فأجاب في كلمتين: إن مستشفى قصر العيني الفرنسي لا يتبع وزارة الصحة وليس لها سلطان عليه!

الدكتور جلال أمين:

الذي حدث في وسط البلد بالقاهرة في أول أيام العيد، من مهاجمة مئات من الشباب للنساء في الطريق العام، بمرأى من الناس بمن فيهم بعض رجال الشرطة، جعل الجميع يشعرون بأن شيئاً جديداً وخطيراً يحدث وقد بدأ يظهر للعيان، ولم نكن نظن أنه وصل إلى هذا الحد.. والمغزى الأساسي الذي خرجت به من هذا الحادث، خاصة وقد حدث بعد أيام قليلة من اكتشافنا أن مياه الشرب في عدة مدن وقرى مصرية اختلطت بمياه المجاري، مما أدى إلى دخول عشرات إلى المستشفيات ووفاة بعضهم، هو أن النظام المصري بعد ثلاثين عامًا من السياسات البالغة الاستهتار والأنانية، قد أدى إلى هبوط نسبة لا يُستهان بها من المصريين إلى ما يكاد يشبه منزلة الحيوانات. حدث هذا عن طريق تجويع نسبة كبيرة من المصريين، وإهمال تعليمهم والتراجع عن توفير فرص عمل مجزية لهم، وعن إقامة مساكن تصلح لسكنى الأدميين، وتسمح لهم بالزواج والاستقرار، وعن إتاحة وسائل للمواصلات تحافظ على كرامتهم... إلخ. تحولت هذه النسبة من المصريين والتي قد تصل إلى ٤٠٪ من السكان معظمهم من الشباب، إلى كائنات تهيم على وجوهها في الشوارع، فاقدة الأمل، وتكلم نفسها أحياناً، لا تفكر إلا في أساسيات الحياة كتوفير الطعام لنفسها ولأولادها، أو تبحث عن الإشباع الجنسي بالالتصاق بالنساء في وسائل النقل العام، والآن في الشوارع.

من الملف رقم (٧)

في ذكرى مرور عام على واقعة انتهاك عرض الصحافيات يوم الاستفتاء الأسود، تظاهرت حركات المقاومة أمام نقابة الصحفيين. كالمعتاد انهمال عليهم رجال الأمن المركزي وبلطجيتهم الذين يرتدون ملابس مدنية بالضرب المبرح بمنتهى الغلظة والقسوة، واعتقلوا كثيرًا منهم. كان من بينهم صحفي شاب يُدعى "محمد الشرقاوي". صرح زملائه الذين سربوا تصريحه إلى مواقع الإنترنت قائلاً:

"قبضوا عليّ وأنا واقف على سلم النقابة. كان عدد من يضربني يزيد على عشرين فردًا. طالت لكماتهم كل جزء في جسمي: على وجهي وظهري وصدري. وصلوا بي إلى قسم قصر النيل وأنا أنزف بشدة. في القسم اعتدوا عليّ جنسيًا بوضع جسم صلب في مؤخري. كنت أضحك بسخرية لأنهم عاجزون عن كسر إرادتي. قالوا لي في السجن:

إوعى تفتكر انك حاجة. حنضربك حقنة في رجلك وانت نايم،
والصبح نكتب على ورقة وسخة انك مت بالسكتة القلبية".

أما الصحفية الشابة "عبير العسكري" فهي فتاة في مقتبل العمر
تقوم بتغطية الأنشطة الخاصة بالحركات الاحتجاجية التي ظهرت في
مصر، فضلاً عن حركة القضاة الإصلاحيين الذين يخوضون واحدة من
أشرس المعارك من أجل استقلال القضاء عن هيئة السلطة التنفيذية.
اعتقلها الأمن المركزي ومعها خمسة آخرون وهم يتابعون مظاهرة
المحتجين على محاكمة اثنين من كبار المستشارين بتهمة الإدلاء
بتصريحات للصحافة عن وقائع تزوير شابت الانتخابات البرلمانية
الآخيرة التي أعقبت انتخابات رئيس الجمهورية. أحاط بها بعض
الأشخاص في ملابس مدنية وكمموا فمها بالقوة ثم جروها إلى حافلة
"مكروباص" صغيرة وانهالوا عليها ضرباً وشتماً بينما أمسك ضابط
منهم بالموبايل محدثاً رئيسه قائلاً: "أيوه يا باشا. البت معانا دلوقت
ورايحين بيها قسم السيدة زينب".. حاولت عبير الاستنجاد بالناس على
باب قسم الشرطة. حاول البعض تخليصها لكن رجال الشرطة السريين
كانوا يقولون لهم: "دي بنت وسخة مت..ولسّه جايينها من شقة
مفروشة".

تقول عبير: أدخلوني إلى غرفة تحقيق قذرة، وهناك تناوبوا الاعتداء
علي من جديد بالضرب والشتائم القبيحة وخلعوا حجابي ومزقوا
ملابسي وهددوني بالاغتصاب وزعموا أنهم فعلوا الشيء نفس بزميلات

المعتقلات من حركة كفاية-أساء ورشا وندى- وفي ذات الغرفة. قالوا لي إنني لن أرى الشارع بعد اليوم..ولما فوجئوا بزملائي في الجريدة يتصلون بي على المحمول انتزعوه مني وألقوا بي إلى الشارع..وخلال المسافة من قسم الشرطة وحتى كورنيش النيل واصل المخبرون ضربي وسبي على مرأى ومسمع من مئات المارة..وحين كان بعضهم يحاول التدخل يهددهم المخبرون قائلين: "دي مسجلة جرائم آداب".. وتركوني في الطريق بالقرب من الكورنيش فلجأت إلى محل ألقى صاحبه عليّ بسجادة صلاة ليستر ما تعرى من جسدي بعد تمزيق ملابسني، غير أن المخبرين هددوا الرجل فاضطر إلى أن يطلب مني المغادرة إثارةً للسلامة. أخيرًا جلست علي الرصيف أبكي مستترة خلف أحد أكشاك الكهرباء، حتى وصل زملائي ونقلوني إلى مقر الجريدة.

• اعتذار: اعذروني يا إخواني الأعزاء بني وطني..أنا أنقل إليكم نبذات مختصرة من هذه الملفات المزعجة، وأنا واثق أنكم تقرؤونها في غيظ وغضب وعلى مضض. ذلك أنكم مللتم من سماع وقراءة وقائع الفساد والانهيار كل يوم وفي كل مكان -ورغم ذلك لا جديد ولا أمل في التغيير- إلى أن أصابكم داء الاعتياد.

حتى المذكرات الأصلية تتحدث عن نكسة! شيء مقرف والله..
يخيل إلي أنكم تقرؤون هذه الصفحات السوداء في عجالة لتقفوا على ما

كان من أمري في حياتي الجديدة وخاصة مع غصون..أنا ألتمس لكم العذر في ذلك فلو كنت مكانكم لفعلت الشيء نفسه..ذلك أن الحياة أبقي لأنها تنتصر دائماً بالحب. الحب أقوى من القهر والهزيمة وأقوى من الانتصار.

كان من الطبيعي أن أكنم السر عن سميرة بعد عودتها الى منزلنا بصحبة عادل. انشغلت به حتى عن نفسها ولم تعد تهتم بشأن نرجس. تشبث ببقائي في الإسكندرية متوسلة إليّ ألا أعاود طلبي من القيادة أن أنتقل إلى الجبهة لأساهم في القتال الحقيقي المنتظر. طمأنتها إلى اقتناعي بنظرية إسحاق. قلت لها إنني أصبحت من شدة الملل كسولاً عن الحركة من المنزل إلى الوحدة، فمن أين تأتي الحماسة حتى أتحرّك من الإسكندرية إلى قناة السويس؟ فوجئت بتسريح دفعات متتالية من المجندين عندما اقترب موعد تسريح دفعتي القانوني. لم أفهم معنى أن نسرح الجنود ونستعد للحرب في الوقت نفسه. كان قرار قد صدر بعد النكسة بمدد قرار الخدمة الإلزامية للمجندين كافة لحين الانتهاء من إزالة آثار العدوان. أي توقيت غيبي هذا الذي يلغى فيه القرار بكل بساطة! أصبح الآن همّ كل جندي أن ينتظر اليوم المرتقب لتسريحه حتى يبدأ في تدبير شئون حياته المؤجلة. لا حرب إذاً ولا يحزنون. عاد ربيع إلى جريدته ولم يشعر أحد بافتقاده. قال إسحاق:

- لا فائدة يا مراد، فلنهتم بحياتنا.

- أوافقك ولكني أتألم لذلك.

واحد يقرر السفر بعد التسريح مباشرة للعمل بدولة عربية حتى يعوض ما فاتته من وقت ومال. وآخر يقرر الهجرة نهائياً من مصر. وثالث يفكر في شراء دكان لبيع الفول والطعمية فمكسبها مضمون ووفير. أنا كنتُ أفكر في نرجس وسميرة وعادل ومدحت. نسيت نبيلة وإبراهيم النحراوي وصحراء سيناء والأسوار الصفراء والأسلاك الشائكة والرمال الكريهة، ونسيت أيضاً عصب معدتي الذي حار بفعل الهزيمة.

وضعتُ شهادة إنهاء الخدمة العسكرية في جيبي. أمشي على الشاطئ. أرقب المصطافين. كل شيء على ما يرام. ضحكات النساء تنطلق. زجاجات البيرة والأسماك المشوية والمايوهات الصارخة والكازينوهات والمراقص والراقصون والراقصات، والله أكبر والنصر للعرب.

لم أجد بذاكرتي مكاناً لمحيي عبد الحميد أو فاروق النجار أو أمه صاحبة الزغردة الأسطورية. الشيء الوحيد الذي كنت أبحث له عن مكان هو مراد عامر. سنوات خمس ضاعت من العمر سُدى. صار مذاق الحياة كريهاً في عمر الشباب الذي يقطر عسلاً مرّاً. ظللت أمشي لما يقرب من ساعات ثلاث. الشهادة في جيبي والطينين في رأسي. ورغم الصمود والردع والاستنزاف وثورية الصبر وصبرية الثور ومراكز القوى وعام الحسم وعام الضباب ومعلبات الروس المطرودين، فقد كان العار يُجَلُّ جيبيني.

انحصرت المشكلة في حرفين هما الألف واللام، لأنها إما أن تكون "أراضًا احتلت" أو "الأراضي التي احتلت". في الحالتين كان قائد الوحدة على وشك أن يلطم يديه على وجهه عندما اكتشف أن الجنود لا يعرفون اسم قائد جيشهم.. ماذا كان سيفعل بنفسه لو علم بتسللهم - في معسكرنا القديم - إلى نادبة هلاهيلو كل مساء بعشر قروش للفرد "يا بلاش"؟!..

قالت سميرة في حبور بعد أن أطلعته على الشهادة:

- هذا وجه عادل.. إنه فال خير بإذن الله.

لم أجد رغبة في سؤالها عن كنه هذا الخير الذي تقصده. سكتُ، فقالت:

- لا بد أن نحتفل اليوم بهذه المناسبة وننفق بسخاء.

الأمر لك يا صاحب الأمر.. وإلى البحر حيث الاتساع اللانهائي والأمل الموقوت في انتزاع لحظات من الحياة تخلو من الكدر.

عدتُ إلى وظيفتي فوجدت اللصوص قد تكاثروا صغارًا وكبارًا وكأن عبد الناصر قد أنشأ القطاع العام خصيصي لكي ينهبه اللصوص. لم يكن بيدي شيء لأفعله حتى أوقف هؤلاء الناس عند حدهم. أطلقتُ غيظي في العمل. انكبتُ عليه بشدة وازدادت حِدَّتِي مع العاملين معي حتى أصبح العمال يخافون من رؤيتي.

لم تمض أيام على عودتي حتى جاء اسم سميرة ضمن كشوف المعارين إلى دولة عربية. قلت في البداية إن رؤيتي لمسألة المال في حياة الإنسان رؤية ضبابية ولكن ضبابها يختلف عن ضباب السادات. قبل نهاية كل شهر ينفد راتبي ومعه راتب سميرة، وبقى على الحميد المجيد في انتظار الشهر الجديد. كل حياتي أصبحت تتلخص في كلمة واحدة هي الانتظار. في كل مرة أقول إنه لا بد من إيجاد حل لهذه المسألة، ولا أحل ولا أربط، لم يسبق لنا مناقشة موضوع الإعارة منذ أن تقدمت سميرة بطلبها منذ بداية العام.

في ذلك اليوم تكلمنا عن تمسك المصري بأرضه والتشبث بها تمسك الأحق بفقره وتشبثه بقهره واستكانته. رددت لها قول إسحاق: إننا أصبحنا لا نبدأ الحركة في أي اتجاه إلا إذا دفعنا شيء دفعًا اضطراريًا للتحرك. حركتنا ليست ذاتية. مجرد رد فعل. لا مبادرة. لا إيجاب. الكلمات نفسها التي قالها مدحت عن نفسه والتي أقولها أنا الآخر عن نفسي.. فهل أصبح الشعب المصري كله صورة منا أنا ومدحت أم أننا اللذان أصبحنا صورة منه؟ هي سكينه الاستكانة والرعب من التمرد والفرع من التغيير.. وكان محمد النجار قد أخرج يومًا من جيبه ورقة مالية كبيرة أبرزها من بين أصابعه وقال بثقة راسخة طافحة بالغرور:

- هذه الورقة لا يمكن أن تحارب أبدًا.

لهذا سافر مدحت وترك نرجس لتصفه بالضعف والغباء، وتشبث بيدي، وتحيل جسدي إلى جحيم مستعر، وعقلي إلى فوضى ضاربة لا

حاكم لها. لهذا امتنعتُ عن الذهاب إليها وكلي رغبة في الذهاب إليها.
لهذا غاب شقيقي حسن أكثر من عشر سنوات خارج مصر فأصبح
بحوزته آلاف مؤلفة من الجنيهات والدولارات، ولما زارني في آخر
إجازاته قال لي بابتسامة مستفزة:

- هأنت تفعل غير ما تقول.

لم يكن أمامي إلا أن أعترف في خجل بالحقيقة:

- أنا فعلاً وافقت على الطلب، ولكنني غير مقتنع بما فعلت.

- هذا كلام لا سعر له.

كنتُ أنصحهُ دائماً بالاكْتفاء بما جمع والعودة إلى بلده ليستمتع ببقية
حياته ويكون أسرة وأصدقاء و حياة اجتماعية بهيجة تملأ عليه حياته. ما
أسهل دور الناصح الواعظ الذي يقول ما لا يفعل، ويفعل ما لا يقول.
ألحْتُ عليَّ سميرة إلحاحاً شديداً حتى أوقع بالموافقة على سفرها، على أن
ألحق بها بعد تدبير أمورها هناك. هي سميرة نفسها التي كانت تحد من
طموحي القديم تجاه الرغبة في تحسين وضعنا المالي. قررت من جانبها
وحدها أن تغير حياتنا. وافقت على قرارها قبل أن أتخذ قراراً بالموافقة.
كالعادة شيء مجهول سلب إرادتي. سألت الكبير والصغير بعد التوقيع
وفاتني أن أسأل نفسي لماذا؟ أتا هوني بين إسقاطاتهم التي لم تكن تعبر إلا
عما بأنفسهم، لا عما بنفسي، وعن رغباتهم الأسيرة في أغوار لا وعيهم،
لا عن رغباتي التي أتردد دائماً في الاستجابة لها. ما زال الأمر بيدك فهي

لم تسافر بعد. باب للرزق فتح أمامك، فهل تتبطر على المنعم بإغلاقه؟ مستقبل عادل ومن سيجيء من بعده. من سعى رعى ومن لزم المنام رأى الأحلام. ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟ من ذا الذي يستطيع محاربة ورقة النجار التي لا تقهر؟ للإسلام نظرية رائعة في المال. أعرفها لكنني لا أطبقها. أمي ترفض فكرة السفر من أساسها. أبي لا يقبل ولا يرفض. الكندي يقول: "إن أهل الدنيا مضطرون إلى مصر يسافرون إليها ويطلبون الرزق بها، وأهلها لا يطلبون الرزق من غيرها ولا يسافرون إلى بلد سواها". لم أصدق الكندي وتمنيت اللحاق بسميرة بعد أن تسافر. حتى هذا مستحيل. لا يمكنني السفر قبل انتهاء فترة الاحتياط بعد التسريح. متى تنتهي هذه المهمة الملعونة حتى يصبح للشرف معنى حقيقياً؟ فيما مضى كان الشرف يعني غشاء جلدياً رقيقاً عند الفتيات. اليوم صار يعني استرداد قطعة أرض مسروقة من أرض صحراوية أصبحت مقدسة بين يوم وليلة. تغنى بجماها كثير من المرتزقة المنعمين الذين لم يذوقوا سخونة رمالها وهيب شمسها وعواصفها الحارقة، ولم يشاهدوا آلاف الجثث التي تعفنت على ترابها. بشيء من التخيل يمكنني أن أتصور أن لي رصيذاً مالياً ضخماً في البنك، وفيلا في ضاحية راقية بعيداً عن المدينة، وعربة فاخرة أتقل بها بين هنا وهناك. يشعرني حلم اليقظة بآس مريح مخدر، كما يمكنني بشيء من المبالغة في التخيل أن أتصور أن لي معدتين وأربع أرجل وذيل وثلاثة أجنحة، وأنني حين أموت سوف أدفن في قبرين.

في لقاء جمعنا بنرجس وحسن، وجدتها تنظر إليه كمثّل أعلى،
أفكارهما متقاربة، أحاديثهما تدور حول السفر والأراضي والعقارات
والأجهزة الحديثة والعملة، كلاهما يقاسي الوحدة والخوف المزمّن
الأبدى المرضي من الفقر.

لا صداقة بينك وبين حسن، ولا صداقة بين نرجس وسميرة،
واللعنة على غفلتنا البلهاء عن أسرار السعادة، فمن كمال الجهل أن
أعتقد في دوام ما يزول فأحرص عليه وأتعذب بلا طائل.

سافر مدحت، وغداً تسافر سميرة، وبعد أسبوع يسافر حسن إلى
صحرائه البترولية، وأبقى أنا ونرجس وعادل. يزداد اتساع شرخي
ويزداد معه تحوصلي حول ذاتي في غباء عنيد، أعيش في إفرازاتها ولو
أدت بي إلى الاختناق.. وقال نابليون: "لا أحد سواي مسئول عن
هزيمتي، فقد كنت أنا أعظم عدو لنفسي".

لم يخفف البحر من وطأة شعوري بالقلق والتذبذب تجاه قراري
الذي نفذته قبل أن أتخذه. لم أحظ من العُري في الماء بالصفاء. شعرت
بضالتي الشديدة أمام اتساع الكون، فغُصت بعمق حتى لامست القاع.

المولود الجديد يترك نفسه لفطرتها فلا يعبأ بشيء.. ما الفائدة أن
أحب الحياة ولا تحبني؟ لكي تحبني رقصت لها من قلبي وأنا أرى ابني
سعيداً بزوجته وأتحيل أحفادي القادمين منها. رقصت حتى كاد قلبي

يتوقف عن النبض، وكان عزائي أنه لا يفنى في الله مَنْ لم يعرف لذة الرقص.

المولود الجديد لا يعرف الضعف أو التردد ولا الانهزامية أو التخاذل. أشرفتُ بنفسي على تعليق لافتات لمرشحين لرئاسة الجمهورية غير حسني مبارك. حدث هذا صبيحة زفاف عادل وانتقاله إلى بيت الزوجية. كنتُ على ثقة بأن ما أفعله سيغضب أصحاب البلد كما يسميهم الصول مرسي. لكنني لم أكن أعلم أن الداخلية قد وضعت خطة أمنية محددة لمطاردة أنصار مرشحي الرئاسة المنافسين-ولو ظاهرياً-لمبارك، وذلك بتعميم أوامر إلى جميع أقسام الشرطة ومراكزها في كل أنحاء مصر-كما علمت من عادل-بملاحقة أنصار المرشحين وتوقيفهم ومحاصرة تجمعاتهم الانتخابية وتلفيق التهم لهم لتهديدهم وإرهابهم. حتى سائقو التاكسي والميكروباصات أجبروا على المشاركة في الحملة الدعائية لمبارك على حساب وقتهم ورزقهم.

هجم زبانية الداخلية -بأزيائهم العسكرية والمدنية-علي المقهى. بعضهم راح يمزق اللافتات ويُلقيها على الأرض، والبعض الآخر ينهال ضرباً على رواد المقهى عمال على بطل. أمسكت بأحدهم وضربتُه برأسي في أنفه فسقط مترنحاً والدماء تنزف من وجهه. قبضتُ بيدي علي عصا كبيرة مدافعاً عن نفسي ضد كل مَنْ يقترب مني. انسحب بعض الرواد من الساحة، بينما تشجع كثير من الشباب على المشاركة في المعركة. من بينهم فوجئت بتحية الإخوانية تعاود تعليق بعض اللافتات المنزوعة بإصرار عنيد. صفعها بخبر على وجهها فرفسته

بركبته- في حافية مدهشة- بعنف أسفل بطنه. انحنى يتلوى من الألم. تكاثر الجمهور على المقهى. البعض للمشاركة في ضرب الحكومة والبعض لمحاولة فض المعركة بعد أن توازنت الكفتان بعد قليل وصل عادل وحسم الموقف لصالحه وهو يصيح بغضب في وجه قائد الحملة.

أيام قلائل مضت ثم فوجئ عادل بنقله إلى الصعيد.

كانت نتيجة الانتخابات أن قاطعها ثلاثة أرباع المصريين، ولم يفز مبارك إلا بستة ملايين صوت من اثنين وثلاثين مليوناً مقيدين بجدول الانتخابات، وأكثر من سبعين مليوناً مقيدين بدفاتر السجل المدني.

دفع ابني أول ضريبة لحرיתי في الوجود الحقيقي الفعال الذي أمارسه لأول مرة بهذه القوة وهذا الإصرار. تأملت بشدة لتعرضه للظلم والقهر دونما ذنب جناه سوى الدفاع عن أبيه. تمنيت أن أكون أنا دافع هذه الضريبة ولو من دمي. بعد عدة أيام اتصل بي من موقعه الجديد يطمئني على حاله. أدرك ما بي من خلال نبرات صوتي، فقال لي وهو يقهقه ضاحكاً:

- أما عليك حنة روسية يا حاج..مناخير الرجل انكسرت بضربة واحدة.

شعرت بسعادة طاغية وارتاح بالي، لكن عادل واصل حديثه محذراً:

- خل بالك على نفسك. المرة الجاية لن تجد من يحميك منهم.

- ولا يهملك. ربنا موجود.. وثق أنني لن أرقص لقرء السوء في دولته مهها يحدث لي.

كان المشهد الوحيد الذي ظلَّ عالِقًا بذاكرتي، هو مشهد تحية بسيوني وهي تضرب المخبر بركبتها في محاشمه بقوة رجل متمرس على العنف والقتال. كان وجهها ينطق بالغل والرغبة في الانتقام لأبيها وأخيها ونفسها وجماعتها، فتجسد هذا الانتقام في تلك الضربة الموجهة. قلت لها بإعجاب:

-لم أكن أعرف أنك فتوة أيضًا ولست أدبية فقط.

ضحكت في حياء أنثوي جميل ولم تعلق فواصلت مداعبتها:

- لو فكرنا في إنشاء فريق من الشباب لمقاومة رجال المباحث والأمن المركزي ستكونين أنت الكابتن ولا شك.

- فات الميعاد.

- كيف؟

- وجدت الرجل الذي ظللتُ أحلم به كي يحميني. سأتزوج يا عمي.. أنا أسعد إنسانة.

- وتهجرين الأدب والسياسة..

- سأسخر كل طاقاتي في خدمة زوجي وهو مناضل عنيد، حتى يحقق ما أتمنى تحقيقه.

غرقتُ في حزني والعربة تقتحم مشارف القاهرة. سرعة الناس
والعربات تشكشك أعصابي. المشي صار هرولة والهرولة عدوًا والعدو
سباقًا فجحيمًا لا يطاق. تحت نظارتها السوداء أخفت سميرة عينيها
ودموعها. تفارقني في يوم ذكرى عيد زواجنا. لم تواتني الشجاعة لأمر
السائق بحزم أن يدير عربته ويعود بنا إلى بيتنا وحياتنا بالإسكندرية.

فحص الحارس جواز سفرها وأبعدني عنها في لحظة خاطفة.
غريب لا أعرفه ولا يعرفني يفرق بيني وبين روعي. قال إن دخول
المودعين إلى المطار ممنوع اليوم بأمر عسكري لأسباب أمنية. كان
السادات عائداً في هذا اليوم من أمريكا بعد توقيع معاهدة كامب ديفيد.
أصبحت سميرة داخل المطار وأصبحتُ أنا خارجه، والحاجز المنيع بيننا
جلف متحجر الفؤاد.

- اسمح لي أن أحمل لها الحقيبة حتى نهاية الصلاة ثم أعود.

- ممنوع.

سنوات الحب تُغتال في غمضة عين. هي الدنيا وأعاجيبها. لم أرتب
نفسي لهذه الخطفة المباغته، حتى أنني لم أعانقها أو أقبلها. ركان وداعنا
بالإشارة الأيدي على البعد، ثم فرق بيننا الزحام. تاهت الحبيبة عن
عيني وهي نورهما وبه تبصران. وقفتُ ضائعاً مشتت الفكر شارد البال.
أدرتُ ظهري للمطار الملعون. حتى لو انتهت فترة الاحتياط فليس
بمقدوري أن أسافر معها. اشترطوا على المعار ألا يحضر مرافقه معه
طيلة العام الأول للإعارة.. وكان الوداع. آه من الهوى وهو الرق في
القلب والغل في العنق والقيد في الرجل والأسر في الروح.

اتجهتُ إلى العربة التي أوصلتنا وكان السائق بانتظاري خارج المطار في المكان المتفق عليه. لكنني توقفت. كيف أذهب وسميرة ما زالت تقف بقدميها الحبيبتين على أرض مصر، وعلى بعد خطوات مني، وأمامها بضعة ساعات حتى تسافر؟ عدتُ الخطوات نفسها التي مشيتها لأعاود المحاولة مع الحارس، لعله يلين فيدعني أدخل وأنتظر معها حتى موعد إقلاع طائرتها، نتحدث ونتعانق. قررتُ أن أراجع ثم تراجع عن تراجعني. أصابني التردد بالدوار لكثرة ذهابي وعودتي دون أن أعرف ماذا أفعل أو أستقر على قرار.. وعاد بي السائق إلى الإسكندرية.

بحثتُ عن مكان آمن ألجأ إليه حتى تهدأ نفسي ويصفو بالي.. بيتي الخرب أم بيت أمي حيث يقيم عادل الحزين، أم مقهى بلدي، أم ملهى ليلى، أم صديق قديم، أم بيت من بيوت الله؟!

جلستُ أمام نرجس وجلس والدها بجوارها، وأمها بجواري. كنتُ أشبهُ بعائدة من جنازة شيع فيها حبيباً إلى قلبه. نظراتهم المواسية تسبح في شعوري المصطخب بالذنب.. ما الذي جعلتموني أفعله يا نجار، يا حسن عامر، يا قططي، يا سميرة؟ ها هي نرجس تهاجمني بعينها الشرستين وندائها الصامت أن كن واثقاً بنفسك ودع قلبك يستسلم للحقيقة التي لا مهرب منها. استمتع بحريتك بلا زوجة أو ولد. لا تُضيع الفرصة بترددك المزري. إني أنتظر قرارك.

هُرعتُ إلى بيتي وكابوس ثقيل يحتم علي رוחي. أدير مفتاحي في قرص الباب، ويدور معه حديث اللقاء الأول بالحبيبة...

كانت بيدي رواية لكاتبة لبنانية لم أكن قد أكملت قراءتها..

- هذه الرواية ستعجبك كثيرًا.

- هل انتهيت من قراءتها؟

- على وشك الانتهاء منها.

- فهل تسمح لي باستعارتها بعد أن تنهيها؟

أشرقت أنوار الدنيا تبدد كثافة الظلمات، فقد تبادلت حديثاً رقيقاً
هامساً طائراً محلّقاً مع معبودتي الساحرة ساهمة النظرات. اليوم أدوس
هذه الأرض شامخ الرأس موفور السعادة لا أبتغي من الدنيا شيئاً.

... فتحت الباب بيد مقهورة وروح منهزمة. أتاني صريره كنواح
يشطر القلب ألماً وحزناً. تطاردني نظرات نرجس، وكلمات سميرة يوم
اللقاء الأول. ما إن خطوت خطوتي الأولى إلى الداخل حتى امتقع
وجهي وسقط قلبي. اكتست جدران منزلنا الجميل بالحزن والأسى
والوحشة والرغبة. عرفتُ أن غياب جميلتي عنها سوف يعذبني
كثيراً.. وقمتُ للصلاة.. عاد إلى نفسي المضطربة شيء من الهدوء. بقيت
في غرفة المكتب أدخن سيجارة من سيجارة، وتساءلت: متي أذهب إلى
الفراش لأنام؟ كنا نلتحف فوقه بغطاء واحد ونذوب في وجدان
منصهر، فكيف لي أن أقترح هذا الحاجز النفساني الرهيب؟

وضعتُ رأسي المكدود على وسادتنا الحزينة عسى أن أنام. لم أكن
أحلم بأني سأستغرق في النوم إلى هذه الدرجة من العمق. انفصلتُ عن

الكون مدة ساعتين ثم أفقتُ فجأةً بلا كابوس مزعج أو حلم سخيّف. لكنها كانت لحظات من الرعب لم أعرفها في حياتي. إحساس يهدد كياني بالتدمير والفناء. سارعتُ إلى الجرائد والشاي والسجائر، أمارس فوضى الأعزب وعشوائيته. فتحتُ إحدى الجرائد. طالعني سورة ربيع أبو العز وهي تتصدر مقالاً له يمتدح فيه مسئولاً كبيراً بالدولة، لا لوجه الله أو الوطن، وإنما هي الانتهازية الخبيثة التي تختصر له الطريق إلى تبوء منصب أكبر في المؤسسة الصحفية التي يعمل بها. أنا متأكد أنه سيصل إلى هدفه وبسرعة، لأنه يعرف ماذا يريد، وينطلق نحو هدفه بسرعة الصاروخ غير عابئ بشيء.

كنتُ أحسدُ ذلك الصحفي صاحب امتياز "طشة الملوخية" على ابتكاره العبقرى باستخدام الطعام كجسر للنفاق، وأغلب ظني أنه كان هو الآخر في غاية من السعادة بهذا الابتكار الذي لم يسبقه إليه أحد، رغم احتقاره المؤكد لذاته في سره. لكن سعادته لم تدم إذ ظهر له رئيس تحرير منافق آخر، دُعي مع الرئيس مبارك ومجموعة أخرى من الصحفيين المختارين بعناية، إلى مائدة الملك عبد الله في مزرعته الخاصة بالسعودية في أثناء ضرب لبنان. أفرد صاحبنا مساحة هائلة من مقاله "السياسي" عن الحرب السادسة بين العرب وإسرائيل، للحديث عن حلاوة طعم الخروف الأوزي ولحم البعرور. ثم لم يلبث أن دُعي إلى مائدة أخرى في لبنان بعد انتهاء الحرب، ضمن وفد مختار من الحكومة

يتصدره جمال مبارك، فكانت مقالته "السياسية" مديحًا وتقريظًا في التبولة اللبنانية الأصلية التي تفوقت على نظيرتها السورية، معبرًا عن سعادته بها قائلاً: "يادللي يادللي" .. آه يا بن ال... لو خلق الله للمنافقين أذنابًا من أمثالك، لما وجد المؤمنون أرضًا يمشون عليها.. لم يجرؤ في مقاله على أن يدافع عن وجهة نظر مبارك التي أعلنها في بداية الحرب بأن حسن نصر الله مغامر، من حيث إنه يأكل التبولة على أرضه. والحق أنني لم أتعجب من موقفه أو موقف جمال مبارك الصامت طول الزيارة، خاصة بعد أن علمت أن حكومتنا قد حصلت على موافقة مسبقة من إسرائيل بضمان عدم اعتراض الطائرة المصرية.. تمامًا كما سبق أن استأذن وزراء الخارجية العرب إسرائيل في مرور الطائرة التي حملتهم إلى بيروت ليعقدوا اجتماعهم لتأييد لبنان، بينما كانت قوات الأمن اللبنانية تحميمهم من غضبة الشعب ومظاهراته الشائنة على تخاذلهم وتواطئهم بالسكوت والقول. الالفت للنظر أن المتظاهرين كانوا يحملون صورًا لثلاثة أشخاص هم جمال عبد الناصر المصري وأحمدي نجاد الإيراني وحسن نصر الله اللبناني.

● تعقيبات أخيرة:

- شعب يعيش بلا أمل، لا مفر من سقوطه في مستنقع اللامبالاة.
- شعب خنوع يؤله الحاكم لن يستطيع أن يتحرك للتغيير.
- شعب لا يحصل على حقوق المواطنة لا يمكن أن يشعر بالانتماء

لوطنه.

- شعب تُرفع الحصانة عن قضائته ويسكت، ليس من حقه أن يحلم بالعدالة.

- شعب يقبل أن ينتخب ممثليه من المستقلين لمجلس الشعب
فينضمون بعد نجاحهم إلى الحزب الحاكم نفاقاً وانتهازية، ثم لا يتحرك، اغسل يديك منه.

أين أنت الآن يا إسحاق يا بن دانيال حتى أكاتبك؟ وما اسم جريدتك التي تعمل بها حتى أقرأ كلمات ترجح كفة الصدق في حياتنا ولو بمثقال درهمين؟ أعددتُ عناوين زملاء الجيش وقررتُ أن أرسلهم جميعاً. قلت لهم: إنه لا بديل عن الحرب لحل مشكلاتنا وأزماتنا وعقدنا النفسية، مهما تكن نتيجتها. خفتُ ألا يثقون بصدقي فمزقت الرسائل. كان في الكتابة-علي أي حال-سلوى للهروب من وحدتي بعد سفر سميرة، ومن التفكير في مصيري الغامض مع نرجس.

ذهبتُ في الصباح إلى العمل برأس مثقل بالنوم وعزيمة قتلها العجز والإنهاك. وجه عادل البريء ينطق بإدانتني. حرمة أغلى دقائق الحنان التي يحتاجها من صدر أمه في هذا العمر. أعود إلى منزلي. تعدُّ لي أمي الغداء. دورة كريمة لم أعد أحتمل تكرارها. خطاب إلى زوجتي أستنجدُ بطيفها. كتاب عن المرأة التي حكمت مصر. مقال عن كافور الإخشيدي بجريدة يومية. هجرت نشاطي النقابي. لم أعد أبذل فوق ما يقتضيه عملي الروتيني من جهد، لعلني أدخر حماسي لعمل انتحاري

أحلم به في الصحراء. أتهرب من دعوات نرجس الملحة لتناول الغداء أو العشاء معها. أعيش في غيبوبة حاضرة بين الكلمات المطبوعة حتى أتعب، فأشرد طويلاً في عالم من القنابل والطائرات والجثث المتناثرة والأشلاء الآدمية الطائرة. يُصيبني لغم فأموت وينتهي كل شيء إلى ظلام أبدي. الحياة حلوة والحب جميل. عليك بالعود والقانون وأحمد قمر. تستجيب دوماً للطرب الشرقي فتنتشي وتهتز أعطافك. يكفي أن تنتفض من داخلك لشيء ما. ماتت زوجة أحمد قمر يوم زيارتي له بعد انقطاع طويل. الحياة حافلة بمصادفات لا تُصدّق. وقفت بجواره نتلقى العزاء. كان يبكي عليها بحرقة رغم أنه كان يسبها في مجالسنا القديمة، لأنه فنان ولأنها امرأة محبة غيور ترى في فنه غريباً لها.

في اليوم التالي ذهبتُ إليه للتخفيف عن بلواه فوجدته قد مات. لم يتأخر في اللحاق بها أكثر من ساعات محدودة. اتجهتُ إلى منزلي في حالة من الهياج يصعب السيطرة عليها. اشتريتُ في طريقي لحماً مشويّاً من ريش الضأن، وعدة زجاجات من البيرة، وخلعت ملابسني وجلدي ولحمي وعظمي ودمي وجلست عرياناً أكل بشراهة غير عادية. تجرعت زجاجات البيرة بأكملها، وبقبضة يدي ضربت الكون في الهواء، ولو كان رجلاً لقتلته في تلك اللحظة. هددتُ قليلاً وتفرغت للتدخين وسمعت آيات من القرآن بعد أن ارتديتُ ملابس خفيفة، ثم دق جرس التليفون:

- لماذا تقاطعنا؟ هل أغضبك أحد؟

- مشاغل الحياة ومتاعب الوحدة.
 - تشكو من الوحدة وأمامك أفضل السبل لتبديدها.
 - ما أخبار مدحت؟
 - تعالَ حتى نتحدث.
 - متي؟
 - صباح الغد.
 - وعملي؟
 - خذ إجازة يا أخي..
- عندما أغلقتُ السّاعة تذكرتُ المال والنصر والنحراوي ونبيلة
وأحمد قمر ومدحت ومعاوية بن أبي سفيان وفاروق النجار وإسحاق
منقريوس وراقصات مكة في الزمن الغابر ومحمد النجار وراقصات
القاهرة ليلة النكسة وحسن عامر ومصر التي هي هبة المصريين الكسالى
النائمين.
- ولسوف أذهب إليها ومعى كل هؤلاء، ولو أشرقت الشمس من
المغرب.

لولا أم فؤاد التي أهدتني فكرة المقهى لما تمكّنت من كسر قيدي
الوظيفي الذي ظلّ قابضاً على روحي حتى بعد إحالتي إلى المعاش.

لولاها لما تحررت من خطر الفراغ وملالة الانتظار..لولا غصون التي
أهدتني قلبها طائفة مختارة، لما تمكنت من كسر قيدي العائلي الذي
أنساني نفسي بعد أن جعل مني قطاراً قديماً متهاكاً يسير على قضيين
متآكلين ويكثر تعطله. لست أدري لماذا خطرت ببالي غصون يوم
استلامي المقهى ثم لم تفارقه. كان قد مرَّ عام أو يزيد على لقائنا بمكة،
وقد حصلت منها قبل أن نفرق على رقم هاتفها وأعطيتها رقمي.
وعدتني بالاتصال للسؤال عني، لكنها لم تتصل، وأنا نسيتُ المسألة
برمتها.. امرأتان حطمتا قيودي فجعلاني أنطلق كالسهم في سماء الحرية.
لم أتردد في الاتصال بها. لم يكن هناك ما يجمع بيننا حتى نتحدث عنه
بعد انتهاء الأسئلة عن الصحة والأحوال. الحق أنها لم تغب عن بالي،
لأنني لو كنت قد نسيت المسألة برمتها حقاً، لما تذكرتها اليوم بصفة
خاصة. كنتُ أذكرها دائماً كلما وردتُ إلى خاطري لفظة التغيير، سواء
بمعناها العام أو بمعناها الشخصي. وكنت أقولُ لنفسي دائماً إنه ليس
بالضرورة أن يأتي التغيير بما هو أفضل، المهم أن تتجدد الدماء في
شرايين الحياة. حياة الفرد وحياة المجموع. تلك سنة الكون، وفي
مخالفتها اعتراض فاشل على ناموس الحياة.

لاحظتُ رغبتها في استرسال الحديث بيننا فرويت لها ما حدث.
كانت ضحكاتها عفوية ناعمة وهي تصيح في دهشة:

- غير معقول! مقهى؟

- أي والله يا دكتورة..مقهى.

- يعني أنت الآن المعلم مراد.
- بلحمه وشحمه.
- وأين راح المهندس؟
- راح في ستين داهية.
- لم تصدق.
- إيه يا بشمهندس. من المؤكد أنك تهذر.
- إذا لم تصدقي تعالي. أنا أدعوك إلى فنجان من القهوة.. خذي عندك العنوان.
- لم تساورني نحوها أدنى مشاعر أبوية وأنا أستمع بكل طاقاتي الحسية إلى ضحكاتها تداعب أذني. كانت امرأة بحق. غير أنني لم أترك لنفسي حرية التجوال في هذه المنطقة الخطرة المزروعة بالألغام.
- كنتُ فرحاً بما صنعتته بيدي في حياتي من تغيير استجابة لمتطلبات روحي، ولكنني لم أنسب تلك الصنعة إلى نفسي حتى لا أقع في خطأ قارون، وإنما نسبتها لتدبير الصانع الأول الذي جعل أم فؤاد تشكولي عن أحوال ابنها، مثلما سألت طالبة من قبل سميرة إن كانت تريد شقة خالية، ومثلما أرشد إسحاق المدير العام إلى حيث أعمل بمؤسسته وأرى الدنيا خارج مصر.

كان فرحي طاغياً وأنا في انتظار غصون المقدامة الفعالة، التي
جاءت بجرأة الي المقهى. رأيتها تتفحص المكان بعيني طفل مشاغب
بحثا عني. ولما رأته لم تستطع مقاومة ضحكها من جديد. ضربت
كفها الدقيقة على كفي الضخمة بصيانية جميلة قبل أن تسحبها من بين
أناقلي الخيشة.

- هه؟ ما رأيك؟ صدقت الآن؟

قالت بتلقائية رائعة:

- والله العظيم أنت رجل "جدع" ..

لامست أوتار غروري فسألته وأنا أعرف الإجابة:

- لماذا؟

- لأنك شجاع مع نفسك. تفعل ما تحب ولا تعباً بشيء، ما دمت
لم تضر أحداً.

هي لا تعلم انها أول تجربة في حياتي الرخوة أمارس فيها تلك
الصفة التي تشير إليها. إذن فما أضيع الستين عاماً الماضية عن جدارة
واستحقاق!

وهي تشرب القهوة نظرتُ بفضول في عينيها فرأيتُ فيضاً من
الحب للحياة المتجددة والإنسان الحي. قالت:

- كل شيء في هذه الحياة يمكن أن يكون جميلاً لو أردناه كذلك.

- بالراحة عليّ يا دكتورة.. كلامك كبير وخطير.

- لكنك مثقف عظيم. حواراتي معك في المدينة المنورة كشفت لي عما تخفيه عن نفسك وعن الآخرين.

- أسألك من فضلك أن تبوح لي بما لا أعرفه عن نفسي.

- عندما قابلتك هناك كان أول ما لفت نظري إليك، ذلك البريق الشديد في عينيك، الذي يدل علي معانٍ شديدة الثراء. ثم قرأت على معالم وجهك وملاحمه طيبة متناهية لا يدركها إلا ذوو الفراسة من البشر. واتضح لي أيضًا أنك حسن النية تجاه الناس والأشياء، كما لو كنت طفلًا غريبًا، رغم ضخامة جسدك. وبالطبع بانت ثقافتك دون أن تدري من كلماتك، لأنك لما تكلمت رأيتك، كما يقول الفلاسفة.. لم يبق إلا شيء واحد أجدني مترددة في التصريح به.

- أستحلفك بكل عزيز لديك أن تقولي ما هو؟

- ولا تغضب مني؟

- أبدًا.. أبدًا.

- إن بك شيء من الجنون يضغط عليك وتضغط عليه.. وأنا أحبه.

ما من مخلوق عرفته وعرفني استطاع أن يقرأني بهذا العمق. إني أعرف هذه المرأة الطفلة منذ ولدتُ. إنها تعرفني كذلك منذ التاريخ نفسه.

- هل كان زوجك كذلك؟

- كان وقورًا..وقورًا..وقورًا.

- وهل لا بد أن يترك الإنسان نفسه للجنون يسيطر عليه حتى يصبح "جدعًا"؟

- أنت فعلت ذلك بشرائك المقهى وإدارته وتخلّيت عن مهنتك.
هذا تغيير جنوني جميل لا يضرُّ أحدًا.

ما إن انتهت من نطق آخر حرف في آخر كلمة قالتها حتى سألتها
بشغف شديد:

- غصون..هل تتزوجيني؟

فاق تدبیرها تصوري. توقیت مُعْرِ باستقبال شياطين الأرض
جمعاء. البيت خالٍ إلا منا. الأبوان والخدمة غير موجودين. تيسرت لها
الأسباب فعرفت كيف تقتنص الفرصة. أجالس امرأة مفتاحها التطلع
ومأساتها الفشل وكرارثتها اليأس من النجاة من مأزق هي التي وضعت
نفسها فيه..لم أعرف حتى هذه اللحظة ماذا تريد مني.

- دائمًا تخذلني على عكس ما كنتُ أنتظر منك.

- ماذا بيدي أن أفعل؟

- لم أطلب منك إلا المشاركة المعنوية.

- ما رأيك في الصلح مع العيسوي بك؟

- العيسوي لا يريد من الدنيا غير طلاقني من ابنة.

- وأنت؟

- أيهمك معرفة ما بنفسني؟

هي شقيقة زوجتي المسافرة وزوجة عديلي المسافر. لا يختلف أحدنا عن الآخر حول حقيقة أن كلاً منا يريد المال على حساب غيره. الحالتان مختلفتان لكن النذالة واحدة. ياه... كيف فرطت في زوجتي بهذه السهولة؟ كانت رجولتي نائمة لحظة موافقتي لها على السفر. ما يدريني بالذي يحدث لها الآن بعيداً عني بآلاف الأميال؟ أمن المستبعد أن تتعرض في غربتها إلى تحرشات الرجال والأعيب ذئابهم المتخصصة في اصطلياد المغتربات؟ مدحت في الكويت وسميرة في عمان. أنا ونرجس في بيت فسيح نفرد فيه بضياعننا، ويقبع بين جدرانها وحش يتأهب للفتك بنا.

- عرفت كثيراً عن العيسوي من زميل لي بالجيش.

- من فضلك ارحمني من هذا الحديث.

- فيم نتحدث إذن؟

- هناك الكثير.

حين التقت شفاهناء، تمنيتُ أن يدمر الكون زلزال عتيّ لا يُبقي ولا يذر. حاولتُ بعزيمة واهنة أن أراجع ولكنني لم أستطع. اشتعلتُ

مشاعري بنيران الحرب والحب والوحدة والملل. استسلمتُ لخوائي
الروحي وجسدي المُعذَّب وعقلي المكدود حتى صدرت من فمها آهة
توجُّع. توقفت لحظات الجنون لالتقاط أنفاس سريعة متهدجة، حافلة
بسيل كاسح من أحاسيس النشوة المحرمة، دون أن نبارح الأريكة
الزرقاء التي جمعتنا. غيامة كثيفة أطبقت على عقلي حتى كدتُ أغيب
عن وعيي. من المؤكد أنني غبتُ بالفعل. لم تطل فترة الصمت فاندفعنا
إلى جنوننا من جديد، ولما نبارح أريكتنا الزرقاء. أصبح الكلام
مستحيلًا، لا مدلول له. لم يبقَ أماننا إلا أن تتم استجابتنا معًا وبكامل
إرادتنا ووعينا إلى ذروة الجنون. استلقت على ظهرها في شبه غيبوبة وقد
أسبلت جفونها. بحثت في عالم غير موجود عن طبنجة أفرغ رصاصها
في رأسي فلم أجد، لأنني لم أكن أريد أن أجد. لم تنجح صورة عادل في
زحزحتي عن موقفتي وموقعي. شرعت أفك الغلالات الحريرية
الناعمة التي قتلتني بها. لو اقتحم أحد علينا خلوتنا الآن، لكان من
الأهون عليّ أن نرفع راية الاستسلام لإسرائيل، ويتنحر الشعب كله
غرقًا في البحر... تلاشت أمامي كل حدود الزمان التي يمكن عبورها إلى
لحظة الانهيار... لكن ما الفارق يا رجل بين أجساد سميرة ونرجس
وسائر النساء؟ فخذان بينهما فجوة ملتهبة. بعد لحظات طالت أم
قصرت يتساوى ما يحدث معهن جميعًا بلا استثناء، سواء في ظلام الليل
أو في وضوح النهار. تتحدث عن الأجساد وتغفل ذكر الأرواح. الروح
تجعل جسد سميرة غير جسد نرجس غير جسد عزيزة. من هي عزيزة؟
لكن هل أنت متأكد الآن أنه جسد نرجس وليس جسد سميرة؟ تأكد

قبل حلول لحظة الفناء فهي قريبة. تفحص جيداً. إنها سميرة. لا.
نرجس. لا. سميرة...

سميرة الآن في قلب الصحراء تجلب لك المال الذي عجزت عن
تدبيره يا ع..أفق، فمن لم يترك ما يشتهي وقع فيما يكره.

بأنامل مرتعشة وأنفاس لاهثة قمعها العقل، أعدت الغلالات في
ارتباك إلى مواضعها. مرت لحظات قبل أن تفتح نرجس عينيها في
ذهول. لم تكد تنظر إليّ بعينيها المتنمرتين حتى كنت خارج الشقة.

في الطريق كادت تدهمني عربية. قفزتُ بلا هدف إلى أوتوبيس
مزدحم. لم أشعر بالطمأنينة إلا بعد احتضان الزحام البشري لجسدي
المتنفّض. أحبتُّ هؤلاء المتدافعين بعنف داخل العربية المكتظة بهم،
بقدر حبي لسميرة. استنشقتُ بسعادة روائح زفيرهم وعرقهم،
وتركتهم يدوسون على قدمي ويضغطون على جانبي، بل تمنيتُ أن
يعصروني بينهم عصراً.

عند نزولي اشتبكت "دبلة" الزواج في بروز صغير حاد بجانب
الباب أدمى أصبعي وخنقها فازرقت وأصابتنني بألم شديد. كل ما فعلته
أنني تنفست بعمق وقد انزاح عن صدري حمل ثقيل.

لم أذهب إلى منزل أسرتي. كنت بحاجة إلى الاختلاء عارياً بنفسي.
فتحت الباب. وجدتُ خطاباً مغلقاً بلا طابع بريدي ولا اختتام. لم أكن
قادراً على استيعاب ما حدث. استفحل عمق شرخي، وبات مخرجي

من هذا العبث الكريه مسألة حياة أو موت. فتحتُ المظروف. وجدت الرسالة موقعة باسم جاري بالمنزل. سارعتُ إليه مستفسراً عما قرأته. قال: إن العسكري سيعود بعد ساعة. انتظرتُه. كان معه استدعاء رسمي للعودة إلى وحدتي العسكرية. لعل الخلاص قادم، والمرء يُثاب أحياناً رغم أنفه. تلاشت مخاوفي من صراحة هيكُل حين قال: إننا لو عبرنا سنفقد ثلث الجيش على ما أذكر. غالباً سأكون من الشهداء وسيفقدني عادل وتلبس سميرة السواد.

خلال ساعات يلتقي من كان يفكر في الهجرة بمن قرر بيع الفول والطعمية. أفسد الاستدعاء مخططاتهم جميعاً. هم الآن بحاجة إلى قوة فولاذية تنتزعهم من أحلامهم، وما من شك في أن الصحراء كفيفة بذلك. لكن أين هذا القائد الذي يستطيع أن يحقق بهم المعجزة؟! أنا قادم سواء وجد هذا الرجل أم لم يوجد.

علمتُ من ابنتي هالة أن زوجها قد دفع بها دفعاً إلى قبول العمل في دولة عربية بحاجة إلى تخصصها العلمي النادر لقاء راتب كبير. هالة لم تكن متحمسة لذلك لأكثر من سبب، فهي لا تأمن على ابنيها الصغيرين مع زوجها لأنه ضيق الصدر بالأطفال، كما أن معاشرته قد كشفت عن قدر كبير من طمعه في مالها. سألتني: لماذا لا يسافر هو وأبقى أنا لرعاية الطفلين، فشروط الوظيفة تنطبق عليه هو الآخر، وإن كان لا بد من السفر فلماذا لا نسافر معاً جميعاً؟ مثلما تدين تدان. ما فعلته بسميرة

يتكرر مع هالة وفي صورة أسوأ. فالرجل يدفعها إلى ذلك عن سبق
إصرار وترصد، وفي ذلك ما يخالف وضعي وموقفي تجاه سميرة آنذاك.
ساعة الغروب لاحظت غصون علامات الحزن في عيني. رقصت
لي وغنت وقالت لي نكاثًا جنسية أضحككتني ضحكًا حقيقيًا. سألتها
متعجبًا:

- من أين أتيت بهذه النكت يا بت؟

- النساء يا حاج وما أدراك ما النساء!

لم يفارقني الحزن. تفننت في إغرائي حتى تخرجني من حالتي، وقد
كان... وهي في ذروة نشوتها قالت لي بلهجة كلها إصرار:

- أريد أن أكون حبيبتك وعشيقتك وابنتك وعاهرتك المفضلة.

- ومن أين لي بعبقريّة تستطيع الجمع بين كل هذه المتناقضات؟

- أنتَ قادر على ذلك لو أردت.

لا تلو من إلا نفسك. أنت تعلم أيها الشيخ أن في أنثاها طفلة رغم
علمها وثقافتها.. عاهرتك المفضلة؟! يخرب بيتك.. أنا لم أضاجع عاهرة
في حياتي. تأذت أذناي من هذه الكلمة رغم أنني واصلتُ الطريق حتى
نهايته معها، فلما اغتسلت وعادت كررت على مسامعي العبارة نفسها.
تذكرتُ مثلاً شعبياً يقول: "الي يمشى ورا العيال ما يخلص من..."،
وأجدي متحرّجاً من ذكر الكلمة الأخيرة لأنها متعلقة بمؤخرة الرجل.

لم يكن بيدي إلا أن أوْمَن على طلبها بالموافقة، ولكني بقيت حزيناً على هالة، فرحْتُ إلى المقهى أبحث عن السلوى.

كانت شلة الأدباء تتبادل جريدة معارضة يتصدر صفحتها الأولى صورة امرأة بسيطة في جلباب شعبي تتسلق سُلماً يُفضي إلى الباب الخلفي لمقر لجنة انتخابية. تحدث أساطين الأمن المركزي وتمكنت من الإدلاء بصوتها لمن تريد. اللجنة محاصرة بعشرات الجنود والضباط من الأمن المركزي لمنع أنصار الإخوان المسلمين من الإدلاء بأصواتهم في الانتخابات الجارية. هذه الصورة نُشرت على مواقع الإنترنت في العالم كله لما تُوحي به من معاني إنسانية رائعة. قال نوفل ساخراً:

- تسبون في أمريكا بينما سفيرها ريتشارد طوني يطوف بمحافظاتنا ويقدم لها العون والدعم.

قالت تحية ساخطة:

- لاحول ولا قوة إلا بالله.

وقال حلمي سليم:

- ألم تعلم أن محافظ الغربية قد استقبله في مولد السيد البدوي بالأنشيد الدينية ومنها "طلع البدر علينا"؟..

واصل عبد القادر:

- كان ريتشارد منتشياً نشوة بونابرت حين ذهب للمشاركة في المولد النبوي، لكن واحداً من مشايخ الصوفيين في طنطا "عكن" عليه

مزاجه بخطبة ملتهبة عن ضرورة الجهاد ضد الذين يحتلون بلاد المسلمين ويقتلون شعوبهم. مع هدير التصفيق للشيخ أصبح المحافظ في ريع (هدومه)، أما السفير فقد أصابه الفزع وسارع بمغادرة المولد.

قالت تحية:

- صدق رسول الله حين قال: "تأتي على الناس سنوات خادعات يؤتمن فيها الخائن ويخون فيها الأمين ويصدق فيها الكاذب ويكذب فيها الصادق ويسود فيها الروبيضة. قالوا: وما الروبيضة يا رسول الله؟ قال: الرجل التافه يتولى أمر الأمة."!

أضاف حديثهم الهم إلى همي وأدركت أن ذاكرة الدنيا لا تموت أبدًا وأن ثأرها وانتقامها أمر محتوم. كما حَزَّ في نفسي كثيرًا أنها كانت المرة الأخيرة التي نرى فيها تحية والتي ستزفُّ إلى زوجها خلال أيام قلائل. كنتُ أخشى أن يعقب غيابها عن الندوة غياب عبد القادر هو الآخر، بعد أن لفقوا لأبيه تهمة الاتجار في مواد الحصص التموينية ببقالته الصغيرة. في القسم قال له ضابط المباحث:

-نحن نعرف أنك لا تتاجر في الحصص التموينية، ولكنها مجرد قرصة أذن بسيطة حتى تنصح ابنك بالابتعاد عن حركة "كفاية" وأنصارها، ولكن في المرة القادمة لن نستطيع تحمل عقابنا.

يقول مجدى مهنا أحد رواد كتيبة الكتاب الأحرار في مصر إن هناك (حاجة غلط).. فعندما تتوحد مطالب الأحزاب السياسية مع هيئات المجتمع المدني.. مع القضاة.. مع أساتذة الجامعات.. مع الصحفيين.. مع حركة كفاية.. مع جماعة الإخوان المسلمين التي تقول الحكومة إنها محظورة، فهذا يعني أن هناك (حاجة غلط) في الدولة والنظام السياسي الذي لا يستجيب لهذه المطالب ويسد أذنيه عنها. الدولة بدأت تتفكك وتحلل بفعل الفساد وبفعل اختلاف الأهواء والمصالح وبفعل انسداد شرايين الحياة السياسية.

أما أنا فلن أقول شيئاً.. المهم أن تصبروا على مواصلة القراءة.

في مواجهة البحر مباشرة أعدت لي أم فؤاد مجلسي المفضل عند أبعد زاوية في الكافيتريا وأكثرها التصاقاً بالبحر. أعطيتها قطعة من الحشيش وقلت لها بآلية:

- لفي لنا سيجارتين يا أم فؤاد.

في لمح البصر أدت ما تكاسلت أنا عن أدائه. أشعل كل منا سيجارته وشرد في عالمه. كان الصمت في معظم الأحوال هو ما يجمع بيننا. صداقة فذة قوامها صمت مطمئن. هل هناك في الدنيا ما هو أجمل من ذلك؟

- مالك يا حاج النهاردة؟

أحزاني علي سميرة طغت على هالة. لست أدري لماذا ثور الزوجة حين يقترن زوجها بزوجة أخرى، وهي تعلم أن في ثورتها رفضاً وتحدياً للشريعة الإسلامية التي تُجيز للرجل أن يتزوج أربعاً لا اثنتين فقط. هو إذن إسلام بالاسم ما دامت للغيرة اليد العليا على الدين. للخالق حكمة رائعة في تعدد الزوجات، فرجل (مهفوف في دماغه) مثلي سيرتكب الزنا لو لم يتزوج. الذي يفهم الحكمة لا يعترض، بل يبارك ويؤيد ويمثل. الشباب العربي-كما رأيت بعيني- يرقصون ليلة زواج آبائهم للمرة الثانية أو الثالثة.

كان في صوت الموج مخرج لي من تشتت مسامعي بين راديو مفتوح على مقرئ يتلو آيات قرآنية بصوت جميل، وآخر على أغنية ماجنة لنانسي عجرم. قالت أم فؤاد:

- إياك أن تخسر ها. ضاعف من عطفك وحنانك عليها فهي أم أولادك.

- والله هذا ما أفعله.

- أنت لا تفعل شيئاً. خطفت الدكتورة عقلك وانتهينا. أنا أعرفكم جيداً أيها الرجال.

وضعت أمامي بقية القطعة. قمت بلف سيجارتين أخريين حين أن تعد لنا القهوة. ونحن ندخن قلت لها:

- إن قلبي يتمزق لأجل سميرة ولكني لا أعرف ماذا أفعل لها حتى تتواءم مع واقعي الجديد.

سألتني باهتمام وجدية:

- قل لي بصراحة. هل حاولت غصبون أن تباعد بينك وبين سميرة بأي شكل؟

- بالعكس إنها توصيني بها وبأولادي خيرًا. لم يصدر منها شيء من ذلك لا بالتصریح ولا بالتلميح.. إنها امرأة جميلة بحق.

شخرت أم فؤاد شجرة إسكندرانية عميقة منعمة وهي تقول:

- يا عم أنت رجل مسعد. قم رح الجامع وصل لك ركعتين شكر لله على ما أنت فيه من نعمة يحسدك عليها الرجال.

لم أستهن برأيها، فبعد قليل ذهبتُ إلى الجامع. توضأت ودخلت. لم يكن الشيخ خليل موجودًا. ما أن انتهيتُ من الصلاة حتى دخل. دعاني إلى غرفته بالمسجد. أعدّ لنا الشاي الأسود الثقيل على "سبرتاية" صغيرة. سألتني عن عادل وهالة. قلت له: إن عادل أوحشني بشدة وأنه سيأتي قريبًا في إجازة أنتظر قدومها بشغف طفل ينتظر عودة أبيه. رويتُ له ما كان من أمر هالة فقال:

- الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم.

- لذلك فإن شيطانًا يوسوس لي بأن أذهب إليه وأفقأ له عينيه.

- أرى أن الصواب ألا تتدخل في حياتها.

- أنا لا أحبُّ الرجال الأنذال الذين يريدون أن يعيشوا من عرق نساءهن، لكن الكارثة أنني كنت نذلاً مثله في يوم من الأيام.
- ما الذي جرى لك يا مراد؟ هل أفقدتك الصبية صوابك؟
- حتى الآن لا.
- لو حدث سألتمس لك العذر يا عريس الهنا.
- تصور بنت المجنونة تقول لي إنها تريد أن تكون لي...
- ماذا تكون؟
- كان قد تبين لي بعد أن أمعنت التفكير في عبارتها أنها صاحبة حق فيما تطلب..تراجعتُ مسرعاً:
- لا..لا شيء.
- أيّاً كان الأمر فعليك بكف الأذى عنها واحتماله منها والحلم عند طيشها وغضبها.
- ياه! كل هذا؟!
- نعم، لأنها امرأة، ولأنه طلب سيدنا الرسول.
- عليه الصلاة والسلام..اسمح لي بالانصراف.
- إلى أين؟
- سأعود المقهى، ثم إلى شلة الأُنس.

ما زلتُ أكتبُ مذكراتي عن أسود أيام مصر. لكنني لن أتكلم بعد الآن إلى أجل غير مسمى. لقد مللتُ نفسي التي ألقِيها إلى هذا العالم الفوضوي، وأصبحت مهياً للاستشهاد.

سأترك الحديث لغيري يتكلم عني وعنكم وعن وطننا الجريح، سواء بنفسه أو حسب تصوري لما يمكن أن يكون حديثه.. إما أن أعود بلا شرح وإما لا أعود. ولو قُدِّرَت لي العودة فسوف يكون لكل حادثٍ حديث.

● سَمِيرة:

في جوف الليل الساكن الملتهب يتضخم هدير جهاز التكيف. يُحيل نومي إلى كابوس متماسك الحلقات من اغتراب وألم وحرمان. وحدة موحشة بجوار زميلة بدينة يعيثُ شخيرها في أرجاء الغرفة بطمأنينة راسخة وكأنها نائمة في حضن زوجها. جدير هو بالتهنئة على قراره الحكيم بالتخلُّص منها إلى الأبد. كثيراً ما كان يتتابني إحساسها بنفسه بأنها امرأة مطلقة تمضي أيامها بلا رجل. للرجل في غيابه مذاق خاص وقيمة كبرى حينما تجتمع المغتربات في المساء. الرجل اليوم هو الحاضر الغائب والأسطورة المشتهاة. القوة العاتية في قبضتيه. السطوة الحاوية في ذراعيه. الحكمة في عقله والمال في جيبه والحب في قلبه والمتعة كل المتعة في جسده. الرجل طمأنينة الجدران الأربعة. اللذة عينها هي الاستكانة بين أحضانه والخضوع لاستبداده المرغوب. عرييد محبوب.

متقلب مهووس. الرجل الخلق والإبداع والابتكار والقوة والتفنن. الحب والعذاب. الرجل الرحمة والعطاء. المانع المانع. الرجل نبع الحياة. يسري في دمائهن كل لحظة. في الصحو والنام. في فصول التلميذات في تصحيح الكراسات. في تناول الغداء والعشاء. أما في الليل فلا يعني الوجود كله سوى كلمة واحدة هي الرجل. تدور الموسيقى الراقصة وتهتزُّ الأرداف شبه العارية طربًا عصبيًا ماجنًا. تنطلق الصهللة معربة في الفضاء الصحراوي الرهيب. يصبح العالم كله ملكًا للمرأة تفعل به ما تشاء. الحديث عن الملابس الداخلية وأوضاع ممارسة الحب المختلفة. تتكاثر سحب الدخان في أرجاء غرفة تلم شتاتنا من الجنسيات والمتناقضات. الجريئة والخجولة والمتدينة والماجنة والصموتة والمرحة والمنطوية على نفسها، ولا حديث إلا عن الرجل. تسقط كل الأقنعة ويروح التحفظ إلى حال سبيله. اليوم جلسة تحضير أرواح الأزواج الآتية أسماؤهم.. اليوم مقارنة بين استدارة المؤخرات ودرجات بروزها ومقاييس الوسط والصدر. صرخات عابثة لنكتة بذئنة، تقتحمها صرخة أخرى:

- حرام عليكن.. أريد أن أصلي العشاء.

- اعقلي يا امرأة وافعلي ما تشائين بعيدًا عنا.

اليوم نرسم الشيء العظيم الذي حُرِّمنا سحره وجماله منذ زمن طويل. مسابقة فنية لرسمه مُجَسَّدًا كما ينبغي أن يُرسم. للفائزة الأولى جائزة من عطر باريس. للفائزة الثانية رافعة صدر حديثة لا تحجب منه

إلا الحلمتين. أما التي تستطيع أن تبعث فيه الحياة فلها الجنة.. اليوم
نحصى الدولارات ونتابع سعر التحويل إلى الجنيه المصري البائس.

- ابن الكلب سرق فلوسي وسابني مرمية في الصحراء.

- من خبيتك وخيبة أهلك يا عبيطة.

- لعله نائم الآن في حضن خادمته.

- اخرسي يا بنت ال...

- لا داعي للغضب يا جماعة لأنه عديم الفائدة والمعنى هنا.

نحن للنسيان فقط. نشترى اليوم ثلاثة. أساور من ذهب وفيديو.

- احرصي على الادخار يا امرأة، فالأكل الفاخر لا يهم الآن.

- بخيلة. (معفنة). أنا لا أطيق هذا التقشف الكريه.

- رحم الله أيام طبق الفول بزيت التموين (الوسخ) وفحل البصل

يا (بنت المقشفة)..

وأنت الأخرى أبوك لواء؟ (طظ).. ما الذي جاء بك إلى هنا إذن يا

روح أمك؟ أبي عامل باليومية وأنا جميلة وأنت تغارين مني.. لا داعي

(للعوجان) الكاذب. كلنا هنا سواء في الخيبة..و..

- لا داعي يا جماعة.. وحدث الله.

- خيلنا في حصة الإحصاء.. كم يوم مضى وكم تبقى حتى نعود؟

نتيجة الحائط المقدسة. تذاكر السفر. شركات الطيران العربية. من الأفضل أن تصطادي واحداً منهم. الذهب يتدفق تحت عقالاتهم. جاءهم بلا تعب. سبحانه يعز من يشاء ويذل من يشاء. عربة ثمنها مائة ألف. مؤخر الصداق مائة ألف أخرى، ولا بأس من إجراء العملية الجراحية بالقاهرة، فهي بسيطة وغير مؤلمة. حتى تهتك الرحم لم يعد صعب العلاج.

- سيطلبك من الخلف يا موكوسة..معظمهم كذلك.

كل شيء يهون أمام الدولار. كان ينام كالحمار في كل مرة من شدة الإفراط في الطعام والشراب. الدموع تسح من عينيه وأنفه وهو يلتهم فخذ الخروف بيديه ومنخاره وأسنانه وأذنيه. ربنا أعلم بحالي. لم تدم زيجتنا أكثر من شهر فكتب لي الله النجاة من قذارته.

- ولهفت منه كم؟

بدموع رسالة من الأحشاء أبكي. جحيم لم أكن أستحقه. ساحك الله يا مراد. كيف تركتني ألقي نفسي إلى هذا المصير؟ حتى شريكة غرفتي لا أستطيع اختيارها. لم أكن أعرف أن للمال والجنس هذه السطوة عند معظم النساء..خطاباتك المتلاحقة لا تكفيني ولا ترويني. أخشى أن تكون سعيداً بغياي دائراً على حل شعرك، فأنا أسمع أن كل الرجال كذلك. عيونهم فارغة لا تعرف الشعب. لقد أصبحت أحسد نرجس على فراشها الخالي من ضجيج المكيف الهرم. إني أفتقد عادل بجنون. أنجبته ولفظته. أي شيء في هذه الدنيا لا يبرر تلك القسوة. لم

ينعم بدفء صدري وحنانه. لم أكد أتعرف ملامح وجهه الدقيق الجميل حتى تركته. غلطة عمري أن أبداً حياته بالفراق. ستبقى بصمات غيابي عنه محفورة في أعماق نفسي الجريحة. من يأخذ مالي ويعيدني إليه؟ من يأخذ روحي ويعيده إليه؟ لن أغفر لك تخاذلك وتذبذبك يا مراد. أين أنت الآن ماذا تفعل أيها الرجل المتردد أبداً؟ كان يمكنك أن تمنعني بالقوة من السفر. تنهرني. تهجرني. تضربني. تقتلني.. ولكن لا تتركني هكذا.

● نرجس:

كيف أصدق أنني فعلتُ بنفسي ما فعلت؟ وأترك أصابعه تعبث بصدري منتظرة منه المزيد! أي عار يا نرجس.. هه؟ زوج شقيقتك؟! لا يعقل أحد ما حدث! لم يكن حلماً أو أمنية. كان التحام جسدين في عناق ناري لم أعرفه مع مدحت. عناق أذاب أشجاني ويأسي. أهذا هو الحب؟ أنا لم أحب "مدحت" ولم أحب "مراد". الذي أحبته هو ارتقاء الدرجات بسرعة البرق. أن أجد نفسي جالسة مستريحة متربعة على قمة هذا المجتمع الظالم الخالي من الرحمة. لا يفيل الحديد إلا الحديد. سوف أذهب يوماً إلى هذا العيسوي لأحيطه علماً بأن ابنه العليل عديم التجربة لا يصلح رجلاً. أنا سمانه دائخة في خريف غائم. لا أعرف كيف أغفر لنفسي الانصهار بين ذراعي مراد. ثم يهرب مني.. الكلب.. هنيئاً لك بزوجتك سميئة الأرداف تبتلعك كل ليلة بين فخذيه. ستعيش وتموت فقيراً مثل أبي. توجز الحياة عند أمثالكم في الراتب الشهري والترقية

والعلاوة الدورية التافهة وتسديد الديون وتعليم الأطفال. حياة
حضيضية ما أغناني عنها أنا التي تشد المجد والقوة والذرى الأعالي.
معيدة فقيرة بكلية الآداب في بلد فقير منهك، لا قيمة فيه لآداب أو
فنون.. ما قيمتها في هذه الحياة؟

ذهبت بي كتيبي وقراءاتي إلى فيلسوف يقول:

"إنكم تنظرون إلى ما فوقكم عندما تشوفون إلى الاعتلاء، أما أنا
فقد علوتُ حتى أصبحت أتطلع إلى ما تحت قدمي. فهل فيكم من
يمكنه أن يضحك وهو واقف على الذرى؟ إن من يَحُمُّ فوق أعالي
الجال يستهزئ بجميع مآسي الحياة، بل يستهزئ بالحياة نفسها"..
أقول إنه المال يا زرادشت. المال يا نيتشة. المال يا مدحت يا غبي.

● مدحت:

- قررنا تخفيض راتبك خمسين دينارًا.

- لماذا؟

- لا نقاش في قراراتنا.

- ولو لم أوافق؟

- غيرك من المصريين مستعدٌ لتقاضي هذا الأجر مع تقبيل الأيدي.

- لا داعي للإهانة.. هناك عقد بيننا وعليكم الالتزام به.

- يبدو أنك نسيت أنك ما زلت في أشهر الاختبار يا دكتور.

- ومن هذا الذي قِيمَني وقرّر كفاءتي كوني طبيباً؟

- ليس هذا من شأنك.. ماذا قلت؟

هنا القاهرة.. بيان عسكري رقم ٧...٧

نجحت قواتنا المسلحة في عبور قناة السويس على طول الجبهة،
وتم الاستيلاء على معظم الشاطئ الشرقي للقناة. وتواصل قواتنا حالياً
قتالها مع العدو بنجاح..

فعلتْها يا سادات سلمت يدُك. عرفت كيف تُموّه على العدو
بتسريح دفعات متلاحقة من الجنود وبارسال دفعاتٍ أخرى من
الضباط لتأدية فريضة الحج أو العمرة ونشرت ذلك بالجرائد عن
عمد.. أخيراً يا مدحت، وربما لأول مرة في حياتك تستطيع أن تتخذ
قراراً. آن الأوان كي تنتصر لإرادتك. عقتك الوحيدة هي حبك
لنرجس. نقطة ضعفك ووجيعتك الكبرى. تمرد على قلبك تكن رجلاً.
لا بديل ولا جدال.

- من المؤكد أنك عدتَ بخُفي حنين.

- ألا يكفيك أنني عدتُ بكرامتي؟

- يا فرحتي.. على أي حال كنت واثقة بعودتك.

- أصبحت حياتنا معاً لا تُحتمل.

الذي قِيمَني شابٌ مغتر. تلقى العلم في بلادي ولم يمارس الطب
يوماً واحداً. وظيفته الفعلية هي مدير مستشفى أبيه. أذهلني أن أطباء

كبار من مختلف الجنسيات ينافقونه ويولونه المزيد من الاحترام. كنتُ أحسبُ أن الأوروبيين أكثر احترامًا لأنفسهم منا نحن أبناء الشرق المتخلف. تبين لي أن المال ليس له دين ولا وطن ولا جنسية. خُيرتُ بين الكرامة والذل فاخترت الأولى، لكن نرجس لا ترتضى لي إلا بالثاني.

- أنت إذن تخيريني بين العودة أو الانفصال.

- لم أقل هذا.. أنت لا يمكنك أن تفهمني.

علاقة غير متجانسة. الحب مقابل المال، والمال مقابل الحب. اختصار عظيم لصفقة فاشلة.. فلا هي حصلت على المال والجاه ولا أنا سعدتُ بحبها. لو كانت تحبني حقيقة لاختلفت الأمور كثيرًا، فالأطباء قالوا: إن مرضي زائل لا محالة بعد رحلة قصيرة هادئة مع العلاج النفساني. لكنها لا ترغب في الانتظار. تريد كل شيء وفي الحال. هل الحب هو الجنس أم أن أحدهما ضرورة متممة للآخر.. عارض أبي زواجي بها قبل أن تكتشف علتي. لو حكيت له عن خيبة أملي سيظن أنني أسترحه طالبًا العفو والسماح، ومعهما شقة في إحدى عماراته أستعيدُ بها هويتي المفقودة أمامها وأمام أسرتها التي تؤويني.

- أرجوك يا أبي. أنا أحبها.

- احذف هذه الكلمة من قاموس حياتك لتكون رجلًا. قلت لك

هذا مرارًا.

- لا أستطيع.

- أنت عاجز بدون عوني عن أي شيء.

- سأعيش مع أسرتها مؤقتاً.

- سوف تندم على غيابك بعصيانك لي.

يحدد لي مسار حياتي كما يريد هـو. لست أريدُ بعثتك ولا
مستشفاك ولا فيلاتك ولا الزوجة التي تختارها لي. لست أريدُ منك
شيئاً.

هنا القاهرة.. بيان عسكري رقم ١٤ ..

تستمر قواتنا المسلحة في التدفق إلى سيناء عبر الجسور القوية فوق
القناة، ولقد أصبحت الضفة الشرقية في أيدي قواتنا المسلحة
تماماً.. وقلت لنرجس:

- أنت طالق.

جاءني أبي متهللاً والسرور يطفح من وجهه بعد أن باغته النبأ.
ابتعدت عنه باشمئزاز وقلت له:

- أنا لا أريدُ منك شيئاً.

...وانطلقت هائماً في الكون الفسيح.

● حسن عامر:

بعد خمسة وأربعين عاماً من الكدح يكون مصيري غرفة الإنعاش.
لا اتخذ نفسك فما هو بكدح. إنه سعار جامح لمضاعفة ما تملك ضعفاً

بعد ضعف. خمسة وأربعون عامًا ولم تتزوج بعد. كم امرأة عبرت حياتك القاحلة حتى اليوم؟ ولا واحدة! عبد أنت للنجاح، والنجاح بمقياسك هو عدد الأصفار عن يمين الرقم الصحيح في دفتر البنكي. أما المرأة فهي خطر مرعب يهدد عدد تلك الأصفار بالنقصان. عظيم. أعطيتُ العرق والجهد والوحدة والغربة وأخذت الأصفار فماذا بعد؟ أنت لا تعرف إلى مَنْ ستؤول بعد أن وضعتها في مبنى حجري يسمى البنك. اختزلت حياتك بطولها وعرضها في بضع أوراق محتجزة داخل مبنى من الطوب. لو كان هذا هو تفسيرك للسعادة فأنت صفر لا يُعلم عليه.. غيرك أصبحوا أرقامًا صحيحة رغم قلة أصفارهم. قالت أمك:

- مراد يعيش حياته، أما أنت فمسكين.

- بتلك الملايم التي يتقاضاها مرة كل شهر؟!

- بها يأكل ويشرب ويتنزه على البحر ويقرأ القصص ويستمتع إلى الموسيقى، وفي الليل يحتضن زوجته وطفله قبل أن ينام هانئ البال لا يشغله بالدنيا شيء.

أنا ميت. أنا لا شيء، حتى لو خرجت حيًا من غرفة الإنعاش. مريض مجهول في غرفة ساكنة سكون القبور، تزج له المحاليل في دمه حتى يعيش.. طبيب. ممرضة. نظرات جليدية تخلو من الإشفاق والتعاطف. لا حب على هذه الأرض الصحراوية القاحلة. لا أخ ولا صديق ولا حبيبة. هي الوحدة القاسية الوحشة. لو كان لي ابن يقف إلى جانبي ويتمنى لي الشفاء. لو كانت لي زوجة تبكي خوفًا من ترملها. لو

كانت غرفة الإنعاش مصرية. لو كنت في مصر.. آه.. وتحسد أخاك يا خائب! علام تحسده وهو الآن في قلب سيناء وقد تشطره قنبلة إلى شطرين؟! خطابه إليك يحمل كلمات صادقة خالية من الغرض:

"أخي حسن. أخشى أن يسرقك الزمن دون أن تدري. عُد إلينا ومارس حياتك كالآخرين. تحرر من عقدة الخوف من الفقر ولا تدعها تدمر حياتك فلقد تجاوزتها من زمان. الحياة مراحل، وبعد العسر يأتي اليسر. كنا فقراء معدمين فيسر الله لنا الحال، كل كما قدر له من الرزق. لا ينبغي لمرحلة ولّت وانتهت أن تشدّك إلى الخلف. أنا اعرف أنك خائف منذ طفولتنا التعسة حتى الآن. إني مثلك أذكرها جيّدًا، ولكنها لم تحل بيني وبين ممارسة الحياة كما يتيسر لي. صحيح أن خطواتي قصيرة تكتنفها العثرات، لكنني أحيا وأجتهد.. أنت تطير ولكنك لا تحطّ على أرض الحياة. أنا أخطأت فأرسلت زوجتي بعيدًا في طلب المال، وبقيت أنا وحدي أشعر بالعار لولا أن شاء الله أن تنشب الحرب من جديد. لم أعد أذكر تلك الليالي التي كنا ننام فيها ونحن طفلان بلا عشاء. إن كنت تظنّ أن اجترار تلك الأيام الصعبة هو حافزك الحقيقي للعمل، فاعلم أن لكل شيء نهاية."

- أعمل ليل نهار يا دكتور.

- لماذا يا مستر حسن؟ هل تريد أن تقيم أطفالك مبكرًا؟

- لست متزوجًا.

- نصيحة أخ أكبر: استرح وإلا ستموت في النوبة القادمة.

يا رب أعدْ إليَّ أخي سالمًا وانصري على نفسي. أغرتني قوة
أصفاري يومًا فسخرتُ منه. نفذتُ كلماتي السامة إلى أعماق كبريائه حين
استسلم لسفر زوجته على أمل أن يلحق بها. اكتفيتُ بالتشفي من
تذبذبه أمام نفسه. عرَّيته وتركته يرتجف في صقيع عزلته. لم أشجعه يومًا
بعونٍ ماديٍّ أو حتى معنويٍّ. كأنني كنتُ منتظرًا أن يتوسل إليَّ طالبًا
الرحمة، حتى أقرر جلالتي التعطف عليه ببعض الأوراق الصفرية.
لعلني ما زلتُ أظنُّ أن كل النفوس ذليلة أمام المال. أنا لم أفهم الدنيا
بعد. أفهم فقط في المقاولات والمباني والمعمار، فهنيئًا لي بهذا اللاشيء
الذي تحولت إليه.

● محمد النجار:

هنا القاهرة... ما زالت قواتنا مشتبكة بعنف مع عناصر قوات العدو
التي تسللت إلى الضفة الغربية للقناة عبر البحيرات المرة.. هذا وقد أفاد
الطيار الإسرائيلي الأسير بأن إسرائيل قد وصلتها مؤخرًا خمس
وعشرون طائرة "فانتوم" بطيارها الأمريكي.

هنا الإسكندرية وورقتي التي لا تحارب. ضُرب مصنعي
بالسويس. لم يعد هناك طلاء أسود أو أبيض. زال كل شيء. حتى مراد
قاهر السواد أصبح مهددًا بالزوال بين لحظة وأخرى. يبدو أنه أدرك
نياتي بفطرته. استكثرت عليه أن يعرف سر تبييض الطلاء ولا أعرفه،
وأن يشاركني في فرق الربح لمجرد عثوره على معادلة كيميائية نقلها من

كتاب أو مجلة علمية. الآن لا مفر من البداية من تحت الصفر. لكنني للأسف ما زلتُ بحاجة إليه. تمنيتُ أن يكون أخي فاروق مكانه فهو كيميائي مثله، لكنه لا يثق بي، بل لا يكاد يشعر بوجودي على قيد الحياة. يشغل نفسه بأمور البلد في غباء شديد، وكأنه المصلح السياسي الأعظم. ها هو مصيره السجن بسبب نكتة، ثم الاختفاء بعد خروجه دون أن يعرف له أحد طريقًا. إني أتعجب من هذه المخلوقات الغريبة. واحد همه الحرية والآخر همه الحرب. عوائق معطلة للحركة. لا الحرية وحدها تجلب المال ولا الحرب يجلبه. المال يجلب في الحرب والسلم، وقد يكون في الحرب أكثر. التجارة ممكنة في ظل الاحتلال. لو صار حاكمنا فرنسي فهذا لا يعنيني في شيء. لذلك لا بد من استعادة مراد- إن عاد- بأي وسيلة، ثم في الوقت المناسب أقول له: "مع السلامة يا أخ. دورك انتهى. العقد الذي تتمسك به يمكنك أن تبله وتشرب ماءه وعندك المحاكم فأنا لها.. المهم ألا تصيبك الآن شظية أو ينفجر فيك لغماً.

الليلة ليلة سميرة طبقًا للشرع. لكنها غاضبة شاحبة محتجة. احتياجي شديد إلى جرعة من المرح أدغدغ بها أعصابي استعدادًا لمواجهة ليلية صعبة، ككل الليالي معها منذ زواجي من غصون.

فوجئت بعامل البار الصامت دائما كأبي الهول يضحك ويقهقه وأنا مقبل على الشلة الجالسة أمامه. الجميع ينصتون وهم يضحكون. رفعت

عبد الفتاح يقرأ عليهم آخر قصيدة نشرت لأحمد فؤاد نجم على مواقع الإنترنت قبل أن تنشرها جريدة الدستور. كانت خطوبة جمال مبارك هي موضوع القصيدة. جلست بينهم أشاركهم الاستماع ورفعت يقرأ:

مبروك يا عريسنا...يا بوشنة ورنه

يا واخذنا وراثه...أطلب واتمنى

واخرج من جنه...أدخل على جنه

مش فارقه معانا...ولا هاريه بدنّا

ولا تابعه قلوبنا...ولا فاقعه بيضانا

يا عريس الدولة...افرح واتهنى

ماحناش كارهينك...لكن هارشينك

حتكمل دينك... وتطلع دينّا.

ما إن انتبه رفعت لوجودي حتى صاح مهلاً:

- أهو...عريسنا وصل.

قلت له مداعباً في خبث:

- أفهم من هذا أن القصيدة تخصني.

أجاب بنفاق تلقائي:

- ومن قال إنها لغيرك؟

- آه يا جبان.

طبق الورقة إلى أربعة وقدمها لي:

- تفضل.. هدية مني لك.

عاود عبد الله السعيد احتجاجه على الحديث في السياسة، فقال
رفعت متعجباً:

- سبحان الله.. نقول ثور يقولوا احلبوه.

وسألت فادية السبع عبد الله:

- أنت تصر كل يوم على عدم الحديث في السياسة ورغم ذلك لا
تتكلم إلا فيها.. ممّ تخاف على وجه التحديد؟

كانت فادية مشحونة بالثقة لنجاح مسرحيتها الأخيرة التي قامت
فيها بدور رئيسي لأول مرة، فأحسن الجمهور استقبالها.

صاح رفعت:

- خايف على البغبنات طبعاً يا مدام.. الحمد لله ما عندنا حاجة
نخاف عليها إلا الستر.

وقلت لسميرة:

- تحمليني قليلاً.. ربما تكون أزمة وتزول.

- تحملتك أكثر من ربع قرن يا ناكر الجميل.

قَبَلْتُهَا فِي جَبِينِهَا وَأَخَذْتُهَا فِي حَضَنِي فَلَانَتْ وَنَعِمَتْ وَأَتَقَنْتِ الْأَدَاءَ
كَأَنَّمَا تَتَحَدَّى ضَرَّتَهَا الصَّغِيرَةَ، وَقُلْتُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ فَقَدْ زَالَتِ الْغَمَّةُ
وَخَضَعَتْ سَمِيرَةً لِلْأَمْرِ الْوَاقِعِ كَمَا حَسِبْتُ. لَكِنَّمَا لَمْ تَلْبِثْ بَعْدَ زَمَنِ
قَصِيرٍ أَنْ اسْتَعَادَتْ كِبَرِيَاءَهَا وَعَادَتْ إِلَى عِنَادِهَا الْقَدِيمِ. لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ
بَغَرِيبٍ عَلَيْهَا أَوْ عَلَيَّ. فَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ ضَعْفَهَا فِي قُوَّتِهَا، وَقُوَّتِهَا فِي ضَعْفِهَا.
إِنِّي أَرْتِي لِسُوءِ حَظِّهَا بِي وَمَعِي. لَوْ لَمْ تَكُنْ سَيِّئَةَ الْحَظِّ لَنَجَحْتُ أَنَا مَعَ
مُحْيِي أَوْ مُحَمَّدِ النَّجَّارِ أَوْ حَسَّامِ عَبْدِ الْهَادِي. لَوْ حَدَثَ ذَلِكَ لَكُنْتُ الْآنَ
مَشْغُولًا بَيْنَ الْمَاكِينَاتِ وَالسَّفَرِ إِلَى الْخَارِجِ وَإِعْدَادِ الدِّرَاسَاتِ، وَالْإِنْتِقَالِ
بِأَسْرَتِي مِنَ السَّكَنِ الشَّتْوِيِّ إِلَى السَّكَنِ الصَّيْفِيِّ، وَالذَّهَابِ بِهِمْ فِي
رِحَالَاتٍ هُنَا وَهَنَّاكَ أَنْفَقَ فِيهَا الْمَالُ بَغِيرِ حِسَابٍ. سَاعَتِهَا لَمْ تَكُنْ
غُصُونًا-أَوْ غَيْرَهَا- لَتَقْلِبَ حَيَاتِي رَأْسًا عَلَى عَقَبٍ أَوْ لَتَحْتَلَّ حِيزًا مِنْ
فِكْرِي.

مَا كَانَ مِنْ أَمْرِي مَعَ مُحْيِي وَالنَّجَّارِ قَدْ سَبَقَ أَنْ جَاءَ فِي مَذَكِّرَاتِ
الْشَّرْحِ. أَمَّا مَا حَدَثَ مَعَ حَسَّامِ عَبْدِ الْهَادِي فَقَدْ كَانَ مُؤَلِّمًا لِلْغَايَةِ لِأَنَّهُ
ذَهَبَ بِأَخْرِ آمَالِي فِي عَالَمِ الْهَنْدَسَةِ.

كَانَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ قَلْقًا لِلْغَايَةِ كَمَا أَدْرَكْتُ بِإِحْسَاسِي. غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ
يَحَاوِلُ إِخْفَاءَ قَلْقِهِ بِضُحُكَاتٍ خَفِيفَةٍ بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْآخِرِ. كَانَ يَحْتَفِي بِوَفْدِ
كُورِي فِي فَنْدَقِ مِينَا هَاوَسِ أُوْبُرُوِي. أَعْطَى ظَهْرَهُ فَرِيقَ الرَّاكِقَاتِ
الْأَجْنَبِيِّ شَبَهَ الْعَارِيَّاتِ، وَاللَّاتِي كَانَتْ تَقْوُدُهُنَّ "الْوِيزَا" السَّاحِرَةَ،

شديدة الفتنة، والأكثر عُرياً منهن جميعاً. شربت كثيراً مع الكوريين وانفجرت أساري ورفعت الكلفة تماماً بيني وبين حسام. رحْتُ أعاكسه بأن أصف له مؤخرة لويزا المستديرة البيضاء والتي لا بد أن تكون شديدة النعومة كالسندس.. رغم أنه رئيس مجلس إدارة مؤسسة ضخمة مكونة من مجموعة كبيرة من الشركات، فإنني رأيته في هذه اللحظات طفلاً وديعاً. كلما ازددت في وقاحتي ازداد خجلاً وحياءاً، وكأنني صاحب العمل أتسلى بإحراج موظف عندي، حتى زغدني سامي -المدير العام- في جنبي بإصبعه لأكفَّ عن الاستهبال. رقصت من موقعي مع لويزا وأنا أشير إليها بيدي وهي تلوح لي بيدها والجميع يصفقون ويقهقهون.

في صباح اليوم التالي وبعد انتهاء الاجتماع الأخير مع الوفد الكوري قبل سفره، كشف لنا حسام عن سر قلقه. اعترف بأنه أخطأ حين استمع إلى نصائح مستشاريه من الوزراء والسفراء السابقين. قال بالحرف الواحد:

- منهم لله.. رحت في داهية من تحت راسهم.

كان في بداية الأمر يعتمد على ماله الخاص فضلاً عن القروض البنكية لإنجاز مشروعاته. لكنهم ألحوا عليه كثيراً حتى أقنعوه في النهاية بحيلهم الشيطانية، أن يوظف أموال المساهمين من الجمهور العام في شركاته. لا أحد يعرف تماماً ما الذي حدث بعد ذلك. هل ضاعت الأموال بالتضارب في البورصة، أم لوقوع خسائر فادحة في بعض

الشركات لم تعفه من سداد الأرباح الشهرية للمودعين؟ أنا أستبعد أنه أستولي على المال وهرب، فقد كان رجلاً فاضلاً بكل المقاييس. ترك كل شيء فجأة وهرب إلى أمريكا واستولت الحكومة على مؤسسته. الغريب في الأمر أن أقرب الأقربين لديه لم يكن على علم بقراره بالسفر حتى الليلة الأخيرة. جمعنا وراح يوزع المسؤوليات على الحاضرين وكأن شيئاً غير عادي لن يحدث. راح يشكو من فساد الوزراء ورؤساء المؤسسات الحكومية ولجنة الصناعة في مجلس الشعب. الجميع يرتشون بفجر قبل أن يقضوا له مصالحه المشروعة. قال وعينه محمרותان:

- يا خسارة يا بلدنا..يا خسارة.

كان سامي، وهو أكثر المقربين إليه، قد صرح لي ذات يوم أن أمنية المهندس حسام عبد الهادي أن يعرف في مصر باسم "طلعت حرب الثاني"..لا هو أصبح طلعت حرب ولا أنا أصبحت شيئاً. ظلت أعوامي تنسحب من تحت قدمي فإذا بها قد بلغت الستين.

في المقهى فوجئت بعبد القادر حسن مشتبكاً في شجار لفظي عنيف مع نوفل حسني. قال له بصوت مزلز:

- أنت جبان ومنافق وخائن ولا مكان لك بيننا.

العجيب أن نوفل لم ينفعل وإنما قابل الإساءة بابتسامة صفراء باهتة مما أثار عبد القادر بشدة فضربه بقبضة يده في وجهه وأسال الدم من

لسانه وأسنانه. حاول حلمي سليم الفصل بينهما ولكنه لم يستطع أمام هياج عبد القادر. لولا تدخلي لتفاقت المشكلة وتعددت أطرافها.

كانت المعركة قد تفجرت حين قال نوفل:

- أن يحكمنا جمال مبارك خير ألف مرة من أن يحكمنا الإخوان المسلمون.

ولما حاول عبد القادر محاورته بالمنطق قاطعه نوفل قائلاً في سخرية:

- خلك في عبد الناصر "بتاعك" والله ما انت فاهم حاجة.

انتحيثُ جانباً بعبد القادر بعد أن انتهيتُ من فض المعركة. معنى استمرار حضوره إلى الندوة وبهذه القوة، أنه لم يعبأ بالإنذار الذي وُجِّه إلى أبيه من رجال المباحث، أو أن أباه نفسه هو الذي لم يعبأ بالإنذار وتركه يمارس حقه في الحياة كما يريد. كنت بشوقٍ إلى فهم المسألة فسألته:

- ألا تخاف على والدك من الأذى؟

- كيف أخاف وهو الذي يحثني على الثورة؟

- وإذا قبضوا عليه مرة أخرى؟

- لا تخف.. أبي باع الدكان فأراح واستراح.

- لو شاؤوا لاخترعوا له مصيبة أفدح.

- لست أظن ذلك، والأرجح أنهم سيتفرغون لي.

● محيي:

..وكان في الأرض جوع غير الجوع الأول الذي كان في أيام إبراهيم، فذهب إسحاق إلى ملك الفلسطينيين وظهر له الرب وقال له: لا تنزل إلى مصر، فنزلت جولدا مائير إلى الزيتية وقدمت لوكالات الأنباء صورة صحفية تعلن للعالم: "نحن هنا في قلب مصر"، فيقول السادات بضحكته الرنانة: إنها مسرحية، ويطلق بعض آتة الماكرة-التي يكون في أثناء ترديدها مشغولاً بالتفكير فيما سيقوله-إنه لا يستطيع أن يحارب أمريكا، ويوقع قراراً عسكرياً بتصفية الثغرة، ثم يذهب إلى أسوان منتظراً قدوم وزير الخارجية الأمريكي اليهودي كيسنجر. أضحك من قلبي حين يصفه السادات بالصديق الشريف الصريح، لأنني واثق تماماً أنه يعلم أن هذا الرجل عدو، وخائن، وكذاب، لكنها السياسة، فإما المفاوضات لفك الاشتباك، وإما الاستعداد لمواجهة أمريكا في صورة إسرائيل.

جاءتني أنباء نكسة يونيه في غرفة ضيقة بفندق روسي، فأصبت بقرحة في المعدة. تخبطني اليوم أنباء الثغرة وأنا مكلف بحراسة معسكر يعج بعشرات الأسرى من الإسرائيليين. لو كنت قد تسرعت بالاستقالة من الجيش لما عشت هذا اليوم الذي انتشلتني من اليأس، فما قيمة مشروع صناعي صغير إلى جانب هذه اللحظة المتوهجة بهريق

المجد ونور الانتصار. لقد فروا أمامنا كالجرذان المذعورة حين سلبناهم سلاح الجبناء: ذلك الحصن الذي كانوا يهتمون به. استولينا عليه لا بقنبلة ذرية أو هيدروجينية، وإنما بالأجساد والأرواح البشرية. أدركت عبقرية السادات أن الإنسان وحده هو سيد الكون، ورغم كل ما حدث فإنني لا أشعر اليوم بخوف أو توتر. لو أطبق الجيشان الثاني والثالث على القوات الإسرائيلية المتسللة، لانتهد قصة هذه الثغرة التي أسماها العساكر الإسرائيليون "وادي الموت". كنا نصطادهم يوميًا بالعشرات فيصرخون ويولولون كما النساء، وكما صرخ مذيع النكسة الشهير: "أمريكا يا عرب"، فاليوم أيضًا: أمريكا يا عرب. كثيرًا ما يتسم التاريخ بالوساخة. ما أخرجني اليوم إلى سهرة صاخبة مع مراد! ما زلتُ أذكر سهرتنا الانتحارية اليائسة ليلة أول يناير ١٩٦٨.. ما أخرجنا إلى الفرحة حتى نتحرر معًا من اضطراب العصب الحائر للمعدة. نتحدث عن مشروع جديد. عن فكرة علمية معاصرة يمكن استغلالها. مراد طاقة إنسانية هائلة تستطيع أن تحقق المعجزات لو عرف تمامًا ماذا يريد. ليتَه يدرك أن نقص المال لا يختلف كثيرًا عن زيادته أحيانًا. لو قنع بحياته البسيطة ولم يستمع إلى آراء الآخرين ونصائحهم الخائبة لعاش ملكًا مُتَوَجًّا.

في حديث صحافي لاحق يقول الرئيس: "آآآآآ.. لقد تكلمت مع عمر الشريف عندما قابلني في أمريكا عن مشروع فيلم عن نصر أكتوبر. أريد حشدًا كبيرًا من الممثلين على غرار فيلم آآآآآ.. أطول يوم في

التاريخ، فالأفلام التي ظهرت حتى الآن لم تعبر عن المعركة تعبيراً حقيقياً وكافياً.. آءآء.. وأكاد أنفجر غيظاً لأننا لم نصور معاركنا الرائعة على الطبيعة. لماذا لم يوضع في الحسبان أننا قد نتصر؟ لماذا كُتب علينا ألا نرى سوى أفلام هزيمتنا وضربنا وتشريدنا في الصحراء، ولا نرى بطولاتنا وفرار اليهود أمام جنودنا؟ حاولتُ مراراً أن أتصل بوحدة مراد العسكرية ولكنني لم أوفق. لو استشهد صديق العمر فسوف أطوي صفحة مشروعاتي إلى الأبد، فأنا لا أحبُّ أن أعمل مع أحد غيره. كم أحببت طبيته وحسن نيته!

- وبعد أن ننجح وتكسب الآلاف.. ماذا تفعل؟

- أعوض سميرة عن صبرها معي.

- كيف؟

- أشتري لها عربة وننتقل إلى مسكن أجمل وأصحبها معي في نزعات خلوية بعيدة، ونسافر كثيراً ونتفرج على العالم ونحب الدنيا أكثر.

- ساعتها ستنسى أيام المشي على الكورنيش وأكل كيزان الذرة المشوية.

- أبداً. لقد كانت أياماً جميلة.. ولم لا نأكل الذرة على الرصيف وأماننا العربة؟

مراد فيلسوف دون أن يدري. عاشق للحياة. لن أمل من البحث عنه، فأنا بدونه ناقص غير مكتمل.. ولسوف أعر عليه بإذن الله.

● نرجس:

عاد حسن عامر في غيبة مراد وسميرة ومدحت. وجدني وحدي بلا رجل. لا يفهم معنى وحدتي. بكر في عالم النساء. ما الذي جاء به الآن وأين يا ترى أودع خزائنه المتخمة بالمال؟ يقول: إنه ما عاد يُرهق نفسه في العمل. سيكتفي بالتجارة في مصر. تراءى له شبح الموت في غربته ففرّ منه إلى وطنه ليعيش. يسألني عن تفاصيل كثيرة نخصّ حياتي. في عينيه جوع كامن ونهم وسذاجة. فيم أفنيت عمرك يا رجل؟ ومتي يستمتع شبابك بما جمعت؟ نرجس هي المرأة الوحيدة القادرة على تعويضك عما فاتك من حياة، وأنت الرجل القادر على إحياؤها من جديد. لكن كيف تقع المعجزة؟.

- آخر ما كنت أتصوره أن يقع بينكما الطلاق بعد كل هذا الحب.

- لم يكن حباً وإلا ما انفصلنا. الموت فقط هو الذي يفرق بين الأحبة، وأحياناً لا يستطيع.

سميرة تعاني أوجاع الغربة ومراد يحارب اليهود ومدحت يُحصى النجوم وأنا أتفرّج على خيبيتي، والراديو يذيع الأغاني الحماسية، والحياة طعمها لاذع، وحسن مشغول بأمرى مع مدحت الغائب.. أين اختفى هذا النعس؟!

- سألت عنه فعلمت أنه يقيم بأحد البنسيونات.. ما الحكاية؟
- لا أعرف ولا أريد أن أعرف عنه شيئاً.
- ألا من فرصة لوساطة خير؟
- ولا حتى للحديث عنه.
- نظر إليّ متأملاً في حيرة طفل:
- سيظل عالم المرأة مغلقاً على فهمي.
- لو بذلت جهداً لفهمت الكثير.. ولكن قل لي ما مشروعاتك للمستقبل؟
- ما رأيك لو فكرت معي في هذا الشأن كصديقة؟
- أفهم من هذا...
- قاطعني كغريق يتعلق بقشة:
- نعم أنا أعرض عليك صداقتي.
- كل الرجال، حتى السذج منهم يطمعون في جسد المطلقة..
- وأنا أقبلها بكل سرور.
- ينطبق على هذا الرجل مثل شعبيّ بذيء عن الرجل الذي لم ير امرأة عارية في حياته، فلما رأى أمه انهبل! ربما تكون الدنيا قد بعثت إليّ بهذا الرجل جاهزاً مُجهّزاً حتى تريني وجهها، بعد أن أرهقتني من طول

رؤية مؤخرتها. من حقي عليها أن تحقق آمالي دفعة واحدة على يديه. المال والرجل. الرخاء والقوة. المتعة والسعادة. إني أفتقد ابتسامة الرضا منذ يوم مولدي. من السذاجة أن أظن سذاجة إنسان استطاع أن يجمع ثروة كبرى في زمن قياسي. أما ما حدث بيني وبين أخيه فلم أعد أذكره إلا كحلم كابوسي مزعج، والأحلام مهما تكن غرابتها، مآلها دائماً إلى النسيان.

يذكرني كل من مدحت ومراد بأيامي التعسة. يجمع بينهما التردد والعجز والعجز عن الفعل والرضا بالفقر، رغم أنهما يتمنيان التحرر منه، كل على قدر إرادته المهتزة. الهدف عندهما غير واضح. لا يعرف أحدهما ماذا يريد من الدنيا على وجه محدد. رغم ذلك فمراد يتميز على مدحت بنوع من الإقدام والجرأة الفائقة في بعض الأحيان وإن قلت. كاد الوغد يسلبني مقاومتي. بل أنا التي لم تقاوم، لأنني لم أكن أرغب في المقاومة. كنت أرغب في ارتكاب فعل انتحاري يُعيدني إلى نفسي. لحظات غامضة تستعصي على الفهم والتفسير حالت دون انتحاري الثاني بين أحضان مراد.. عقب المحاولة الأولى هُرع إليه مدحت يستنجد به كفاقد للأهلية منعدم الحيلة. هم يبكي وهم يضحك. حسن قد لا يعلم شيئاً عن هذه الفاجعة أو أنه يعلم ويتكتم. كان مشغولاً بدنانيره ودولاراته، حين جاء المنتقد ليجردني من ملابسي ثم يهرب فرعاً. حسناً فعل هذا الجبان فلم ينل مني شيئاً. عليه الآن أن يواجه نفسه بخرافة مضحكة تقول: إنه يحب سميرة. عليها أن تدرك أنه كان

بمقدوري أن أنتزع من هذا الوهم، فلا حب ولا عادل ولا حياة هائلة
قاعة مستقرة. هذه أسلحة العجزة. القوة هي دعامة الحياة، والمال هو
دعامة القوة. لو فقدت عزيمتي هذه المرة فسوف تكون محاولتي الثالثة
للموت هي الأخيرة. لن أتردد.. القوة أو الموت.

- أفكرُ جدًّا في الاتجاه إلى بناء عمارات فاخرة للتمليك.

- في مدى أيام من عودتك عرفت من أين تؤكل الكتف.

- بقي لي أن أعرف من أين يؤكل القلب.

- دع هذه المهمة لصديقتك الجديدة.

أشعر أحياناً أن في سلوكي شيئاً من الدعارة. مدحت العيسوي.
مراد عامر. حسن عامر. رجال ثلاثة أتقل بينهم في يسر ولكني لا
أقرب من الهدف. ذريعتي التي أخدر بها نفسي أنني لم أرتكب الخطيئة.
كنت على شفا حُفرتها. صحيح. لكني لم أسقط.. حتى لو سقطتُ يوماً،
فلن أسقط إلا واقفة.

● سميرة:

بيدي كنز. خطاب من مراد. حبيبي على قيد الحياة وقلبه ينبض
بفرحة الانتصار العظيم. كلماته أراها واضحة قاطعة محددة. نعم لقد
أخطأنا معاً. لكن التصحيح ما زال بيدنا...

"ستعودين يا حبيبتى لنعمل قدر طاقتنا ونتعامل مع الدنيا ببساطة وطمأنينة ورضا. نحن في أسوأ أحوالنا لا نُعَدُّ من الفقراء. آه لو حكيت لك عما رأيت وعشت من هول يا سميرة. ستعرفين كما عرفتُ وتتعلمين كما تعلمتُ، أن المال أسوأ سيد وأحسن خادم. ستصدقين العبارة المستهلكة التي يرددها الناس، إما عن اقتناع وإما بحكم التعود علي قولها دون الغوص في أعماقها: السعادة ليست كلها في المال.. يجب أن يتدرب كل منا بمفرده ويدرب الآخر على حمد الله".

... يدهشني هذا الرجل. أكاد أُجنُّ شوقاً لجسده وروحه فمتى تمر الشهور؟

- بعد الانفتاح أصبح البقاء هنا للكسالى فقط.

- لا تصدقي كلام جرائدنا. لقد اعتدنا ابتلاع الأكاذيب.

وتقول مغتربة أخرى:

- أسس زوجي مكتباً للاستيراد والتصدير وبدأ المال يتدفق عليه. أنا خائفة.

- احذري أن تعودي فتجديه قد أصيب بالجنون.

- الجنون لا يهمني. المهم ألا يتزوج من سكرتيه أو من جارتي اللعوب.

- كلهم ذئاب. يأكلوننا لحمًا ويرموننا عظمًا.

وأقول أنا باعتراز:

- فيما عدا زوجي فأنا واثقة به حتى الموت.

- أتمنى أن أصدقك لكنني لا أستطيع.

نرجس لم تبعث لك بخطاب واحد منذ سفرك. تلقين عليها باللوم وأنت الأخرى لم تكتبي لها. انحصرت حياتك في لحظة ترقب وصول خطاب من زوجك. يهتز معنى الأخوة في زمن الحرب والغربة وتششت الأسرة وإغراء المال وأزمة الإسكان وانفجار الأمية وارتفاع الأسعار وكبت الحريات ودكتاتورية الحكام. أنا أحب أختي، لكن المهم عندي هو مراد.

● العيسوي:

لا أخجل أبداً أن أعترف لنفسي...

أنا قلب حجري. أنا نقد وبنوك. بطش وقوة. سيادة واستعلاء. أملك سلاحاً عصرياً. أغمده حين أريد في قلب الخصم. أفقد ابني. أفقد أهلي. غير مهم. لكن المال أهم.

- لستُ مسؤولاً عن غيابه. رحبت بعودته إلينا فرفض. ماذا بيدي أن أفعل؟

- لقد زرعْتُ في قلبه كراهيتنا جميعاً.

- لا أحب سماع هذا الكلام الفاضي. ابنك يا سيدتي غبي. لا يريد أن يفهم الدنيا على حقيقتها.

- أنت تريده أن يفهمها كما تفهمها أنت. لكن أين هو؟ اعرف لي مكانه وأنا أذهب لأتوسل إليه أن يعود.

- إن عاد من تلقاء نفسه فأهلاً وسهلاً، وإن لم يعد ففي ستين داهية.

- ما رأيْتُ في حياتي أو سمعت عن رجل في مثل قسوتك. إني أفضل الموت على الحياة معك.

معيني من القوة لا ينضب. البلد تحارب. فلتحارب. إذن فلأتبرع بنصف مليون جنيه للمجهود الحربي. أغير بعض عربات النقل من أسطولي الكبير إلى القوات المسلحة. أفعل ما يطلب مني في الحدود التي أرسمها. ليست هذه وطنية كالتي يتشدق بها كل أفاق في مصر؟ أدفع لربيع ليكتب عني في الجرائد ما أمليه عليه. لكل رجل سعر. طلب المسكن فأؤيته، وآلاف الدولارات فأعطيته. حتى عضوية النادي الأرستقراطي الكبير حصلت له عليها. كلها مسائل محسوبة بدقة. سمعتي واسمي وساعة تليفوني مفاتيح سحرية تفتح لي أقفال خزائن الدنيا.

شيء ضئيل اسمه إسحاق دانيال يزحف هذه الأيام على سطح حياتي يحاربني في شخص ربيع. لعنة كاذبة تحوم في الأفق اسمها حرية الرأي. أي حرية هؤلاء الرعاع تجعل مثل هذه الدودة الحقيرة تتسلل إلى

جحري العميق الآمن. هناك قوة تسانده ولا شك. مجرد صحفي مغمور لا حول له ولا قوة يهاجم العيسوي بك الوطني الغيور، ويتهمه بالفساد وينشر أدلته على ما يقول. بسيطة. إعلان مدفوع الأجر السخي في صفحة كاملة أو حتى على صفحتين بالجريدة نفسها: "العيسوي يهنئ رجال القوات المسلحة والشعب المصري وقائده الملهم بالعبور العظيم".

- ضربة معلم يا باشا.

- وأنتما في الجيش، ألم يتعلم منك هذا الولد شيئاً؟

- ولن يتعلم حتى يموت.

- يجب ألا نتجاهل القوة التي يختفي من ورائها.

- أحباؤك أقوى من أعدائك يا باشا.

- هذا كلام غير مفيد. ابعث في استدعائه وسأعطيه ما يطلب.

- حتى كم؟

- قدّر أنت سعره وأنا سأضاعفه.

أعرف ما سيحدث: رئيس التحرير يستدعى إسحاق بعد أن قبض ثمن الإعلان وخلافه. يأمره بالكف عن الكتابة عني. يمثل الكلب ليعيش، أو يرفض ليموت.

من الملف رقم (٨)

رصدت المجموعة البحثية للحركة المصرية من أجل التغيير "كفاية" حالة الفساد الحاكم في مصر خلال ربع القرن الماضي التي عاشها الوطن في ظل نظام مبارك وحزبه وحكوماته المتعاقبة. أشرف على ملف البحث المفكر المعروف دكتور عبد الوهاب المسيري.

الملف لا يقتصر على فساد رموز النظام من أفراد النخبة الحاكمة والقريبين منها فحسب، وإنما يحتوي على نماذج ودرجات أخرى من حيث الكيف والكم، جعلت الحياة في مصر مرهونة بالقدرة على التكيف مع الفساد الحاكم في مختلف تجلياتها. يسميها الكاتب الساخر أحمد رجب: "حكومة فسادستان"، ويصفها بأنها الحكومة التي لا ترد على تقارير جهاز المحاسبات الحكومي والكاشف الرسمي عن عورات الفساد أو ما ظهر منه فقط.

يخصص الملف بحثًا خاصًا حول فساد الأسرة الحاكمة بداية من نجلي الرئيس إلى زوجته إليه هو شخصيًا..فيما يختص بشأن نجلي الرئيس يشير الملف إلى أن كُلاً من علاء وجمال مبارك يشاركان بحصص مجانية تبلغ ٥٠٪ في رأسمال كبرى الشركات التجارية والصناعية بمصر. كان من نتيجة ذلك أن تهددت هذه الشركات بالإفلاس والانهيار، وتم طرد عدد كبير من العاملين بها مما أسهم في ارتفاع نسبة البطالة وزيادة معدلات الكساد. وعلى الرغم من أن حصتها مجانية فإنها يرفضان سماع أي حجج أو أعذار، فلا بديل عن دفع نصيبهما سواء أكان شركائهما رابحين أو خاسرين. فتح الأخوان مبارك خزائن البنوك على مصراعيها لشركائهما يغتربون منها ما يشاؤون، بلا أي ضمانات ودون أي مساءلة من النيابة. كما تم اختزال السوق المصرية في ستين شريكاً من شركائهما من رجال الأعمال..فيما تمت تصفية الباقي إما عن طريق تلفيق تهم لهم ووضعهم في السجن، أو بجعل الضرائب والجمارك والشرطة تقلب حياتهم إلى جحيم.

ويشير الملف إلى قرار تخفيض الجنيه المصري بنسبة ٥٣٪ مرة واحدة، مع تسريب المعلومات قبلها بأيام إلى الشركاء والأحبة ونصحهم بتغيير كل ما يمتلكونه من مال سائل إلى دولارات، بحيث تزداد ثروة كل منهم بمقدار ٥٣٪ في لحظة واحدة عند إعلان قرار تخفيض الجنيه. ولقد تم ما تم مع تحصيل عمولة تبلغ نصف مكاسب هذه العملية التي تسببت في رفع الأسعار بشكل جنوني لا يمكن

السيطرة عليه. ويختتم التقرير حديثه عن نجلي الرئيس قائلاً: "كل واحد يدفع في البلد دي بيحكى، وخصوصاً لما يدفع للكبار".

وينتقل التقرير بعد ذلك إلى زوجة الرئيس موضحاً أنها رئيسة لثلاث الجمعيات الخيرية، منها الحقيقي ومنها الوهمي. الغرض منها غير خيرى بالمرّة، فعلى سبيل المثال جمعيات سوزان لحماية الطفل لا تحمي أي طفل، لأنه في عهد زوجها يتم تعذيبه واغتصابه جهاراً نهاراً في أقسام الشرطة، مشيراً إلى أنها -بحكم كونها قرينة الرئيس- تتلقى تبرعات من كل دول العالم، تبلغ في المتوسط خمسة ملايين دولار في العام لكل جمعية ترأسها، وهذا يعني أنها تتلقى سنوياً ما يقرب من خمسين مليون دولار من التبرعات.. وكانت هي التي وقفت وراء استصدار قرار عام ١٩٩٢ يحظر على الجمعيات الأهلية تلقي أي تبرعات من الخارج.. "عليهم غفور رحيم وعلينا شديد العقاب"!

وفيا يختصّ بشأن رئيس الجمهورية أشار الملف إلى أنه منذ أن تولى مبارك السلطة عام ١٩٨١ استصدر أو جدد من مجلس الشعب قراراً دورياً له قوة القانون، بتفويضه في التعاقد على الأسلحة التي قد تحتاجها مصر، دون الرجوع إلى المجلس. هذا الإجراء لا مثيل له في أي دولة أخرى بالعالم، وهو قمة الفساد بعينه، فمبارك يُنصّب من نفسه تاجراً وحيداً للسلاح في مصر، ويقرر وحده نوعية وكمية السلاح الذي تحتاجه، وكذلك يقرر الجهات التي يتعاقد معها والأسعار التي يتعاقد بها.. كل ذلك دون حسيب أو رقيب.

أما عن فساد الوزراء، فيؤكد الملف أن هناك من الوزراء من يستغل نفوذه للاستيلاء على أراضي الغير وممتلكاتهم، مثل بطرس غالي وإبراهيم سليمان.. وهناك من يتاجر وينتهك هو وولده في شرف وأعراض مرؤوسيه وغيرهن من النساء. وهناك من نصب على الشعب وباع له تراب الصحراء وتلقوا عمولات ورشاوى بمئات الملايين، ومن يتاجر هو وولده في المخدرات، ومن يهرب ويتاجر في الآثار وغيرها من المنوعات، ومن عبث وتلاعب بالبورصة وكسب المليارات من أموال صغار المستثمرين، والغريب أن مبارك لا يفعل شيئاً لمحاسبتهم.

ويرصد الملف أنه في أواخر التسعينيات تعاون وزير داخلية سابق مع بعض المفسدين في تكوين ثروات ضخمة له ولأسرته كأول وزير يتعامل بالبيع والشراء مع أفراد معتقلين، وعلى سبيل المثال شراء هذا الوزير من "المعايرجي" المعتقل لدى الداخلية محلاً بمليون ومائة وخمسين ألف جنيه، كما استولى الوزير وأحد أبنائه على أبراج "نبيل مشرقي" وهو موجود بالسجن، كما قام ببيع فيلا لسجين آخر في قضية من قضايا الفساد في الصناعة وهو "الحباك" بمبلغ ستمائة ألف جنيه في أثناء وجوده بالسجن. وفي الإسماعيلية بمنطقة "أبو سلطان" قام محافظ الإسماعيلية السابق بتوزيع مساحات شاسعة من أراضي الدولة على الوزراء وكبار المسؤولين. وفي شركة خدمات البترول الجوية قام "أمير رياض" رئيس مجلس الإدارة بإصدار أوامره بإعداد طائرة حمولة خمسين

فردًا تجهز بأحدث أطقم "السرفيس" المستوردة لزوم السادة الركاب، ودفعت تكلفتها من المال العام المتروك في يده، كما لو كان ملكية خاصة، ولم يكن للغرض من الطائرة علاقة بدواعي العمل، وإنما لحمل وزير البترول وأسرتة والسيد نائب رئيس مجلس الوزراء وأسرتة هو الآخر، وخادمتين، لقضاء المصيف في مرسى مطروح، والمثير للدهشة أن زوجة الوزير نسيت حقيبتها، وعلى الفور أصدر أوامره بإقلاع طائرة أخرى حمولة اثنين وخمسين راكبًا لحمل الحقيبة فقط وتوصيلها لمرسى مطروح، وقد أقلعت الطائرتان في اليوم نفسه خاليتين.

ويكشف كتاب "توظيف الفساد" للكاتب "بدر عقل" أنه تم وضع المدعي العام الاشتراكي السابق "عبد القادر أحمد علي" في موقع الاتهام بعد أن زادت ثروته من نصف مليون جنيه إلى ما يربو على ثلاثة ملايين جنيه بشكل مفاجئ. وقد أثار التحقيق معه اتهامات وشبهات حول خمس وعشرين شخصية سياسية، من بينهم سبعة رؤساء وزارة سابقين، واثنان عشر عضوًا بمجلس الشعب، وعدد من المحافظين السابقين، وأشار إلى تورط هؤلاء باستغلال نفوذهم وسلطاتهم في انحرافات شركات توظيف الأموال، كما أشار إلى اشتراك عدد منهم في نشاط هذه الشركات، كمساهمين بأسمائهم أو بأسماء أقاربهم من أبناء وأخوة، ومن بين هؤلاء "كمال حسن علي" الذي عُيِّن رئيسًا للحكومة في ١٦ يوليو عام ١٩٨٤، حيث قدم خدمة العمر لتلك الشركات بالإطاحة بالدكتور مصطفى السعيد وزير الاقتصاد في حكومته من

أجل عيون تجار العملة الذين أصبحوا فيما بعد أصحاب شركات
توظيف الأموال. كما يوجد من بينهم المهندس "عثمان أحمد عثمان"
نقيب المهندسين ورئيس لجنة التنمية الشعبية بالحزب الوطني، والذي
كان يعدُّ الأب الروحي لبعض هذه الشركات، وشريك المحاسب
"أشرف السعد" بأربعين في المائة من مصنع للملابس. كما ضمت
القائمة كلاً من محافظ الجيزة "عبد الحميد حسن" الذي ترك منصبه
ليعمل في شركة الريان، ووزير الداخلية الأسبق "النبوي إسماعيل"
زوج المطربة فايدة كامل -ومحافظ الشرقية "أمين ميتكيس". وقد قيل -
نقلًا عن أصحاب شركة الريان- أن أحدهم قال:

- "نحن دولة داخل الدولة، والجميع يقبض منا".

وكان عائد الودائع يتحدد حسب أهمية المودع وموقعة على خريطة
السلطة، حتى أن العائد السنوي وصل في بعض الأحيان إلى نسبة مائة
في المائة!

والله يا إخوتي الأعزاء بني وطني، إنني أتصور الآن-دون أن أكون
مسطولاً- سيدنا عمر بن الخطاب وقد جمع هؤلاء الكلاب من كل
صنف ولون وأوقفهم جميعاً في طوابير منتظمة، ثم راح يطيح برؤوسهم
في الهواء بلا رحمة.

● مدحت:

أبي والثغرة وطليقتي ومفاوضات الكيلو ١٠١ وجسدي العليل
المرهق وعشرات الأطباء خبراء وجهلاء يختلفون حول احتمال شفائي
من عُنْتي وحسن العائد والعمارة التي بناها فوق الطابق الأول والوحيد
لبيت أصهاري السابقين والاتفاق الذي تم بينه وبينهم فامتلكت
نرجس شقة بموجبه وأيام الطفولة السعيدة وأحلام الشباب الخضراء
والمستقبل الباهر والطريق المرصوف والدنيا والآخرة وخريطة مصر كما
تبدو من تحت الطائرة وأناس يستمرئون الظلم ويمجدون الظالم والله لا
يحب المنافقين ولا الظالمين وأنا فكرت في الهرب إلى أقصى شمال العالم
بحثاً عن دفء القلب في الصقيع والجليد ووحشة الحياة بلا روح،
ولكنني فضّلتُ الموت هنا وقرأت فضائح أبي منشورة بالجرائد تشير إلى
أنه لصٌ عتيد وانتهازي لا نظير له أما مراد فلم أعرف عنه شيئاً منذ
استدعائه ولم أحاول أن أعرف ويهجم عليّ شبح من الخلف فيلوي
ذراعي اليسرى ويُقيّد حركتي فأنتفض من نومي الجرباء في "بنسيون"
حقير لكن به دفء وعائلة وحب ومشاجرات ورقص وغناء وكم أتمنى
أن أضحك من كل شيء عرفته منذ ولدتُ حتى لا أعجب حين يأتيني
نبأ تقدم مليونير يهودي ليطلب يد نرجس وبعد انقضاء وطره يشتري
العمارة ويطردها وأهرع إلى قصيدة الأطلال وتقاسيم العود والرقص
على أنغام البوزوكي وما رواه لي مراد عن قانون أحمد قمر والسيجارة
المحشوة تنام مشتتة بين خنصره وبنصره وهو يعزف وشقيقه الممثل

الشهير الذي احترف السخرية من السادات وهو في منفى بلاد الشائر
الليبي صاحب الكتاب الأخضر، وأنا لم أعد أنا والسلام عليكم ورحمة
الله وبركاته، فقد يكون في اختفائي موت أو في موتي اختفاء، بحيث لا
أعلم ولا يعلم أحد غيري شيئاً عني منذ الآن، فقد ماتت أمي حزناً على
غيابي وغيظاً وانفجاراً من تسلط أبي اللص الكبير وكم أحببت هذه
المخلوقة الطيبة التي كانت تلتقي سرّاً بنرجس بنت نفيسة وتنصحها
بالصبر والانتظار وما أغربها من نهاية، فأنا الآن بغير أب ولا أم ولا
زوجة ولا صديق، وإنما مجرد كيان إنساني هائم في أرض الله الواسعة.

● إسحاق دانيال منقريوس:

سوهاج في .. / .. / ١٩٧٦

أخي الحبيب مراد عامر.. لأول مرة منذ تسريحنا الثاني أتمكن من
قضاء إجازة بين أهلي في الصعيد. يستهلك عملي بالمجلة القاهرية كل
وقتي وطاقتي. لا تتصور كم كانت فرحتي بخطابك الذي ظلّ محتجزاً
هنا لأكثر من عامي! أصيل أنت. لم تنسني بمجرد عودتك بسلامة الله.
إني آسف لإصابتك الغريبة في فمك.. الشظية "نشنت" عليه لست
أدري كيف أو لماذا. طمئني على نتيجة عملية التجميل. احمد الله أنك
عدت إلى ذويك سالماً بغير عاهة تعوق حركتك في الحياة. أعترف
بتقصيري الشديد في حقك. عامان كاملان حافلان بالأحداث ولم أفكر
في الكتابة إليك أو إلي أي أحد من رفاق الخنادق والسلاح. الطبعي في

هذه الحياة أن يلتقي الناس ليفترقوا وينسوا بعضهم البعض. أي طينة من الجحود عجن منها الإنسان. حتى لو التمسست لي العذر بعد أن تعرف حكايتي فإنني لن أغفر لنفسي ذنب نسيانك. لقد أذاقني العيسوي وربيع صنوف الويل جميعاً. عرضاً عليّ آلاف الجنيهات لأسكت، وكنت - يعلم الرب - بحاجة إلى بضع مئات لمواجهة نفقات أسرتي الصابرة التي بذلت أكثر ما بوسعها حتى أتعلم، وأنت تلمس بالتأكيد فحش الغلاء الذي لم يعد يحتمل في هذه الأيام. فصلت بسببهما وتعرضت للجوع في جحيم القاهرة اللاإنساني. كان بإمكانني الصمت ضماناً للرزق، لولا أشلاء سالم عطية التي تناثرت أمامي على الرمال، ورأس مختار مرسي الذي طار في الهواء. تشردت على مدى هذين العاملين وتنقلت من جريدة إلى مجلة إلى جريدة أخرى، وهما يضعان لي الألغام في كل مكان أذهب إليه. حتى فتح الله علينا بعودة الأحزاب فتنوعت جرائد المعارضة وإن لم تكن معارضة بالمعنى الحقيقي. تعجبني أعمال السادات فيما عدا جحيم الانفتاح الذي اخترعه، والذي أخشى أن يقضي علينا نحن الموظفين البؤساء الذين لا يملكون غير ضمايرهم ورواتبهم الشهرية.

اطمئن يا مراد. لن أسكت مهما يحدث، فبلادنا ليست تكية لجناة ثمار النصر بلا جهد أو عرق أو دماء، ينهبون فيها كما يشاؤون. أما هذا الخائن الذي أكل معنا يوماً من العدس الأميري والخبز المحروق، فسوف يأتي يوم بإذن الرب يدفع فيه ثمن جرائمه من أولاده أو من

صحته. هو اليوم رئيس تحرير مجلة كبرى تدعمها الحكومة، وأنا محرر عادي في جريدة شبه معارضة، وإن لم تختلف كثيراً في توجهاتها عن توجهات النظام الحاكم. هو اليوم يسكن في شقة فاخرة تطل على النيل، وأنا أعيش في غرفة متواضعة في بناية من أقدم بنايات القاهرة وأكثرها تهالكا. لكن ما يدريك كيف يكون الحال غداً، أو من الذي سيضحك أخيراً. أرجو أن تتواصل ما بيننا من مكاتبات فأنا أشعر بحاجة شديدة للاتصال بك، ولسوف نلتقي يوماً، فالمسافة من القاهرة إلى الإسكندرية قصيرة جداً على الأحباب. مبروك يا مراد. لديك الآن عادل وهالة. كفاك يا أخي مساهمة في زيادة تعداد سكان مصر المتزاحمين حول واديها التمس، وختاماً أرجوك أن تبلغ تحياتي ومحبتني إلى أفراد أسرتك كافة، ودُمتَ لصديقك المخلص إسحاق منقريوس.. عنواني بالقاهرة صندوق بريد رقم ٧٣٦٧ .

من الملف رقم (٩)

والله يا إخواني قد احترت عما أكتب وعمن أكتب.. عن إبراهيم نافع وسمير رجب رئيسي تحرير الجريدتين القوميتين الشهيرتين، اللذين جمعا الملايين من جرائدهما ومجلاتهما الخاسرة حسبما جاء في تقارير عديدة للصحافي مصطفى بكري عنهما. هل أكتب عن صفقة بيع محلات عمر أفندي المشبوهة برخص التراب؟ عن الأسمدة المسرطنة التي أدخلها إلى مصر مستشار وزير الزراعة بموافقته.. عن بطلي الفساد في التلفزيون سواء رئيس قطاع الأخبار أو رئيس مدينة الإنتاج الإعلامي وقد عثر بمكاتبهما على ساعات ذهبية وقطع من الحشيش وزجاجات العطر المستورد وملابس النساء الداخلية، كما عثر ببيوتهما على ملايين الدولارات والجنيهات.. عن عبارة الموت الشهيرة.. عن رئيس إحدى لجان مجلس الشعب الذي نهب أحد البنوك.. عن الوزير الذي أوشك على ردم جزء من النيل مجاملة للملياردير عربي، أم عن أحمد

عز ملك الحديد والحزب وصاحب الأربعين مليار جنيه التي جمعها في
بضع سنوات؟

مللتُ من البحث فاضطرت إلى الاختصار المخل حتى أُخفِّفَ
من حدة غيظكم وكمدكم.. وعلى من يرغب في الاطلاع علي المزيد من
هذه الملفات أن يرجع إلى تقرير الدكتور حمدي عبد العظيم الخبير
الاقتصادي بأكاديمية السادات، والذي قال فيه: إن ٢٦ مليار دولار قد
هُرِّبَت من مصر عام ١٩٩٨ فقط، منها تحويلات بنكية ومنها شهادات
إيداع دولية. وقد كشفت الإحصاءات الصادرة عن هيئة النيابة الإدارية
عن أن عدد قضايا الفساد داخل أجهزة الحكومة التي وردت إليها في
العام الماضي فقط قد بلغت ٧٢ ألفاً و ٥٦٣ قضية تشكل جرائم جنائية
أبرزها اختلاس المال العام والاستيلاء عليه أو الرشوة والتزوير.

الفساد يسري في كل القطاعات السياسية والاقتصادية والزراعية
وقطاع النقل والمواصلات وقطاع الإسكان والمقاولات وقطاع
الاتصالات والهواتف المحمولة والثابتة، وقطاع الداخلية، وتوزيع
المعونة الأمريكية، والنظام التعليمي والنظام الصحي وقطاع الصحافة
وقطاع الأعمال والخصخصة وهلم جرا..

الملف ضخمة ومخيف، لكنه متاح عندي لكل من يريد الاطلاع
عليه كاملاً. لا أخفي عنكم أيها السادة أنني أكاد أُجنُّ لتفشي الفساد في
البلاد حتى غرقت فيه لأذنيها إن كان لها أذنان. لجأتُ إلى علوم النفس
والاجتماع والاقتصاد لأفهم شيئاً عن أصل هذه الظاهرة وفصلها.

استغرق ذلك مني جهداً كبيراً، وهو موضوع ليس مكانه هنا، غير أنني أستطيع أن أقدم لكم خلاصة شديدة الاختصار توضح لنا من هو الشخص الفاسد. إنه في عرف علماء النفس شخصية مضادة للمجتمع تتعامل معه بعدوانية وكراهية، وهو في عرف علماء الاقتصاد إنسان ذو آثار ضارة على مجمل ما يُقدَّم للمواطن من خدمات، وهو عائق بطبعه المفسد لعملية التقدم والتنمية. أما الاجتماعيون فيرون أنه إنسان مغل بالمعايير الأخلاقية والسلوكية مدمر لها، وذلك يرجع إلى سوء تنشئته الاجتماعية وإلى خلل في بنائه الأخلاقي ونموه الخلقي، والخلاصة من الآخر فإن الرجل الفاسد المفسد ما هو إلا بني آدم (ابن كلب وسخ).

وأخيراً فإنني أصارحكم القول بأنني قد بدأتُ أفقدُ حماسي لقراءة الصحف المعارضة والمستقلة، مثلما سبق أن فقدتُ حماسي من قبل لقراءة الصحف القومية. إن هذه الجرائد تتحدث يومياً عن الفساد والاستبداد والتبعية ومؤامرة التوريث والبطالة والغلاء والقمع الوحشي للمتظاهرين المعارضين وتعذيبهم... كل يوم أقرأ نفس الكلام حتى تشبعت به أنسجتي وخلاياي ولم أعد أطيع نفسي، فكل هذه الكوارث باقية على حالها، بل ومعظمها يتفاقم ويزداد خطورة دون أمل في حل أو إصلاح أو تغيير.

أما الذي قضى على البقية الباقية من حلمي بالمساهمة في فعل أي شيء في اتجاه التغيير، فهو انفضاض ندوة الأدباء بمقهاي. اختفى نوفل حسني بعد العلة التي أكلها من عبد القادر. من قبله اختفت تحية بعد

زواجها. كان أمني أن يصنع كل من عبد القادر وحلمي نواة لمجموعة جديدة من الكتاب يواصلون الحوار الحيوي حول مصير البلاد على أرض مقهاى. لكن عبد القادر انتقل إلى مكتب الجريدة بالقاهرة ليكون معاصرًا للأحداث الساخنة هناك. لم يتبقَّ إلا حلمي سليم مخرج التمثيليات بإذاعة الإسكندرية. كان يجلس وحيدًا مكتئبًا حين سحبت كرسياً وجلست بجواره.

- أين مسلسلات الإسكندرية التي كانت ترح الدنيا من قبل؟

- للأسف كل المسلسلات المذاعة معادة، فلم تعد هناك ميزانية للمسلسلات.

- لماذا؟

- الملايين التي أنفقت على مدينة الإعلام وغيرها تحت دعوى الريادة الإعلامية، تسببت في إفلاس الإذاعة.

- وماذا تعمل الآن؟

- لا شيء... أتقاضى مرتبي دون عمل.

..لم يبق لي في النهاية إلا شلة البار.. شلة النسيان والغياب عن عمد.

● فاروق النجار:

الإسكندرية في .. / ٦ / ١٩٧٧

صديقي العزيز مراد.. ما كنتُ أظنُّ يومًا أن تهون صداقتنا عندك إلى هذا الحد. اعتقلوني في المرة الأولى بسبب نكتة سياسية فكانت إرادة الله ألا أشهد بعيني مذبحه سيئاء، وأنا كما تعلم شخصية انتحارية، فلم يكن من السهل أن أعود حيًّا من هناك. انتظرتُ طويلاً بعد خروجي من السجن أن تبحث عني أو أن تسأل - على الأقل - واحداً من أصدقائنا عن حالي. لكنك - يا أسفي على الصداقة - كنت تلتقي بأخي الجبان محمد وتعمل معه رغم علمك بجشعه ونذالته وانتهازيته. من المؤكد أنك لم تحصل منه على جنيه يوحد الله، ومن المؤكد أيضاً أنه لن يتوانى عن محاولة استغفالك حتى يحصل منك على ما يريد بلا مقابل. ما علينا.. ثم اعتقلت مرة أخرى في ١٩ يناير الماضي في أثناء مظاهرات الاحتجاج العنيفة على رفع الأسعار، والتي وصفها السادات بانتفاضة الحرامية. خرجتُ من المعتقل ولم تسأل عني. لكن مالي أحزن على صديق كان، ولا أحزن على أخ لم يكن. العجيب في الأمر أنني لم أشارك بالفعل في هذه المظاهرات. كنتُ أتفرج فقط على ما يحدث. تمنيتُ أن ألقي نفسي وسط الجموع الهادرة أشاطرها غضبها المشروع وأهتف معها مطالباً بالرحمة بالفقراء، لكنني تذكرت الزنانة وحشرات الحقيبة ورائحة البول والبراز فتراجعت، ولكن هل تعلم كيف اعتقلوني؟ كنت في زيارة صديق على شاكلتي نفسها وكانوا يبحثون عنه. داهموا شقته وقال لي الضابط بعد أن اطلع على بطاقتي وتذكرني:

-أهلاً..وأنت أيضاً هنا؟ وفرتَ علينا الوقت والجهد.

فُصلتُ من العمل وأبْتُ عليَّ نفسي أن أُلجأ إلى أخي الذي يعرف كل شيء عن ظروفِي. رغم هذا كله فإنني أُلجأ إليك اليوم. أسألك قرضًا ماليًا أواجه به أيامي المقبلة حين أن أجد عملاً، وإليك عنواني: شارع... رقم ٥٢ بجوار مقهى الحرية.

المخلص: فاروق النجار

● حسن عامر:

اتفاق تعاقدِي

طرف أول: السيد/ حسن عامر إبراهيم

طرف ثانٍ: السيدة/ نفيسة عبد العزيز المهيلمي

يقر الطرفان المذكوران أعلاه بالاتفاق التام والنهائي بالبنود الآتية:

بند أول: يقوم الطرف الأول باستغلال العقار رقم..الكائن بشارع...ملك الطرف الثاني لإقامة ستة طوابق يحتوي كل طابق منهم على ثلاث شقق تتكون كل منها من غرف أربع ذات تشطيب ممتاز.

بند ثان: يقوم الطرف الأول بالإنفاق الكامل على الخامات وعمليات الهندسة والبناء والتشطيب دون أي التزام مادي من الطرف الثاني.

بند ثالث: عند الانتهاء من البناء والتشطيب الكامل توزع ملكية الشقق والجراج مناصفة بين الطرفين ويكون كل طرف حُرًّا في استغلال ما يخصه سواء لنفسه أو ببيعه للغير.

بند رابع: في حالة حدوث خلاف يكون التقاضي أمام محكمة الإسكندرية.

● نرجس:

- فيمَ تعارضين؟ أنا لا أفهمك.
- لن أسكن معهم في هذه العمارة.
- أول مرة أسمع فيها عن زوجة لا تريد السكن بجوار أهلها.
- وهل يعجز حسن عامر بجلالة قدره عن تدبير سكن خاص له ولزوجته؟!
- أنت عنيدة يا نرجس.
- أريدك بعيداً عن مشكلات أسرتي. ألا تفهم ماذا يعني ذلك؟
- أفهم يا حبيبتي.
- واشترى لي حسن الفيلا... أنا الآن فوق الجميع.....
- فيلا رائعة.. أحبك يا حسن.

- هي ربحي من مشروع عمارتكم.. ما رأيك؟

- أين كنت من زمان يا رجل؟

- أمهلني القدر حتى يأتي اليوم الذي أجذك فيه بانتظاري.

- لم يبقَ إلا عربتي الخاصة.

- ستكون مفاتيحها بين يديك خلال أيام قليلة.

هأنأ قد عدتُ لأتكلّم عن نفسي وعن غيري بحرية. أتكلّم من أرض الواقع دون تصور أو تخيّل أو تخمين.. "وفي السماء رزقكم وما توعدون". فيمّ الطمع يا بني آدم؟ زوجة طيبة وطفلان جميلان وشقة فاخرة جديدة لم تدفع فيها قرشاً، وعمل شريف ترتزق منه، وصحة ثور، وشرخ لم يعد له وجود، وسؤال لم تعد ترتجف فزعاً لسماعه بين الناس في زمن الانفتاح:

- كم عملت حتى الآن؟

اندمل جرحك والتأم شرخك بئارك لإبراهيم النحراوي وسالم عطية ومختار مرسي. عملية التجميل أعادت إلى وجهك معاملة الأصلية. لماذا جاءت الإصابة في فمك بالذات؟ سؤال أنت تعرف إجابته ولا تجرؤ على البوح بها لنفسك. كان وجهك شبيهاً بوجوه ممثلي الرعب والإجرام ومصاصي الدماء. لو بقيت على حالتك لما استطعت تقبيل

زوجتك. كان منظر ك يشر التقزز خاصة في أثناء تناول الطعام. ضريبة
تافهة كان ينبغي أن تدفعها ثمنًا لما فعلت، ولتعد إلى ممارسة عُريك
المحبيب، وحيدًا في غرفتك تتأمل النجوم وتنعم بأحلى لحظات الصفاء.
قالت سميرة:

- معجزة أن يتزوج حسن بنرجس.

- هي القسمة والنصيب.

- أما زال مدحت مخفياً؟

- أسمع أحياناً أنه هاجر وآخرون يقولون إنه مات أو انتحر.

- مسكين!

لا أعرف حتى الآن كيف أمحو من صفحات حياتي تلك اللحظات
الرهيبة التي جمعت بيني وبين نرجس. ما زلتُ أخاف هذه المرأة. لا
يمكن أن تكون شقيقة سميرة. أنا واثق أنها لم تحب "حسن" كما لم تحب
"مدحت". عندما التقينا أول مرة بعد عودتي كان استقبالها لي طبيعياً
وكان شيئاً لم يكن. تغير حسن كثيراً بعد زواجه منها. تكررت زيارته
الودودة لي. يحاول خلق صداقة جديدة. عجيبة هذه الحياة. لعله قانون
السعادة الطائش الذي يعجز الخلق عن تفسير شطحاته الجامحة. زارني
محبي وعرض عليّ استئناف العمل معه. قلت له:

- سأعمل مع أخي في المقاولات.

- غير معقول.

- صدقني.. وسبحان مغير الأحوال.

- إني سعيد بما أسمع.

بعد أيام قليلة نُشر الخبر الآتي في صفحة الحوادث بإحدى الجرائد اليومية:

"بينما كان مقال المعمار حسن عامر يشرف بنفسه على بناء الطابق الأخير بإحدى عماراته الضخمة بالإسكندرية، فاجأته نوبة قلبية. اصطدمت قدمه اليمنى بقطعة من الخشب، فاختل توازنه وسقط من أعلى البناية الشاهقة فأسلم الروح على الفور" ..

لم تتسلم نرجس مفاتيح العربة الجديدة. بكت بحرقة أذهلتنى. هل أحبت حسن؟ لم تعد الإجابة سهلة هذه المرة. الزمن هو المحك. الأيام القادمة هي البرهان. مات أخي التعس وترك كل ما جمعه من مال. لم يخلفه ولد ولا بنت. اتشحت نرجس بالسواد. أشعت الفتنة الغامضة من وجهها في صورة أخرى. هل تصبر طويلاً علي ترملها بعد أن آلت إليها معظم ثروته أم ستبحث عن حسن آخر؟ في وجهها سحر غامض مخيف يفح بنذر الشؤم والكدر.

- البقية في حياتك.

- حياتك الباقية.. أشكر لك حضورك يا إسحاق.

- أنت أخي وهذا واجب ونحن صعايدة.

كان فراقه صعباً أليماً موجعاً. لكنه الموت، نهاية النهايات. قلت لإسحاق ان الحياة لا تستحقُّ منا كل هذا القلق والعناء فوافقني. رغم ذلك أخذنا نتحدث بانفعال وقلق وتوتر وحيوية عن العيسوي وربيعة وأمثالهما، وعن الذين أسسوا شركات انفتاحية وهمية وسرقوا ملايين الدولارات ثم هربوا من مصر، وعن الذين سهلوا لهم السرقة والذين سهلوا لهم الهروب. كما تحدثنا عن لحظة مصافحة السادات لزعماء إسرائيل في مطار بن جوريون. رويْتُ له حكاية مدحت الذي لم يعرف أحد أين اختفى. قادتنا أقدامنا إلى الشاطئ. تعبنا من طول المشي. جلسنا على الرصيف نرقب الغروب، ونتأمل في خليط الألوان المعجزة التي يصنعها نزول قرص الشمس فيما وراء الأفق، مداعبة سطح الماء في غزل رقيق. مرت أماننا حسناء يحيط صديقها بخصرها في ولهٍ شديد. وضعنا تفاصيل جسدها تحت مجهر المتعة الخالية من المسؤولية وقال السادات للصحافي الغربي:

-أنا والله ما بيهمني..مسدسي في جيبي والأعمار بيد الله.

كان الصحفي قد سأله عما إذا كان خائفًا من تهديدات العرب الرافضين لمبادرته للسلام مع إسرائيل. خضنا في تفاصيل وصفية دقيقة له وهو يشعل "الباب". يأخذ منها أنفاسًا متعاقبة ويتحدث عن الحاجز النفسي بين العرب وإسرائيل. يصمت فترة يقول خلالها: آء.آء.آء. ثم يتكلم. تنطفئ جذوة الطباقي- كما لو كان بينه وبينها اتفاق-

فيعاود إشعالها وهو يتكلم. يضع ساقاً فوق ساق فيتجلى حذاؤه الأنيق ذو الرقبة الطويلة. ضحكنا حتى دمعت عيوننا- رغم شبح الموت- من حركاته الظريفة. قال إسحاق: إن بيوت الأناقة العالمية قد وضعت السادات بين قائمة أكثر الرجال أناقة في العالم، فتذكرت إصراره في طفولته على قول "كسفريت" بدلاً من "كبريت" لبقال القرية كما قال عن نفسه في مذكراته، و"هات يا بني قلم الإمضا".. كان خفيف الظل مثلاً كان داهية بحق، لكنه أحب مظاهر العظمة لدرجة الجنون.

- لولا السادات لما التأم شرخي. أنا مدين بكرامتي لهذا الرجل.

- المسائل يا عزيزي لا تؤخذ بمثل هذه البساطة. لا تنس أن هناك من يصفونه بالخيانة بعد صلحه مع إسرائيل.

ونعود إلى منزل الأحران. يطل علينا الموت من جديد. تذكرت الشظية الحارقة التي أطارى نصف فمي. عاد إسحاق إلى جريدته علي أمل الانتصار على سارقي النصر لصوص أكتوبر أو كما أسماهم: فئران السفينة، رغم إدراكه لسطوتهم وتشعب جذورهم وصعوبة النفاذ إليهم. فكرت أن أكتب خطاباً إلى رئيس الجمهورية أقترح عليه أن يعدم اثنين أو ثلاثة من كبارهم في ميدان عام. لن يصله الخطاب. وإن وصله فلن يصلني منه رد. إنه لا يعرفني بدليل أن جميع الطرق تغلق ساعات طويلة قبل أن يمر موكبه في شوارع بلده وشعبه وناسه، حتى تمر عربته ذات الزجاج المصفح المغلق والستائر الدكناء المسدلة عليه، فكيف يراني وكيف أراه؟ هو لا يراني وأنا لا أراه. لن يتكرر أبداً في تاريخ مصر

مشهد يماثل مشهد جمال عبد الناصر العملاق وهو واقف بطوله وعرضه في منتصف عربته المكشوفة وهي تتهاذى في حب بين حشود الجماهير المفتونة بعشقه.

الحكاية وما فيها أنها حياة تسير بصميمها وقشورها بلا توقف، حتى لو تمهلت عند نرجس بين جدران أربعة فاخرة المحتويات تسكنها الوحدة الموحشة وحصادها قبض الريح. حتى لو تمهلت عند عزيز قوم ذل فراح يستجدي المال من صديق نذل. مهما تمهل فإنها لا بد أن تعاود السير. لعلها تمهلت طويلاً أمام ذلك المشهد الرهيب المروع والسادات بمسك بمنظاره المعظم ليشاهد تفاصيل العرض العسكري الجبار "لأولادي" في الاحتفال بذكرى نصر أكتوبر. ينطلق عليه سيل من الرصاص يمزق رقبتة وجسده. القلعة الحصينة التي يحتمي بها لا تحمي. يطل علينا الموت من جديد ثم ننسأه كالمعتاد. باسم الدين قُتل الرجل وطويت صفحته في ملح البصر. أيها العالم المجنون أنت عسير على الفهم. كلمات تقال في كل مكان وزمان تنتهي دائماً إلى الدم. الشيوعية. الإرهاب الديني. الأراضي المحتلة. نظرية الأمن الإسرائيلي. القضية الفلسطينية. الرأسمالية المستغلة. الوحدة الوطنية.. متى ينتهي هذا القاموس الممل من الألفاظ فننفض دماءه عن كاهلنا؟ قال مفكر كبير:

-لقد خسره مصر بل خسره العالم.

وقال آخر:

- كان لا بد أن تكون هذه نهايته، فما زال في مصر رجال.

أُصيبَ بجنون العظمة فسجن رموز مصر كلها في معتقل واحد وضع فيه الماركسيين مع الإخوان المسلمين والناصرين والمسيحيين والبراليين. هللت له أبواق النفاق والسلب والنهب والانتهازية، فانترعته من مكانه العالمي وألقت به إلى أسفل المقاعد المتناثرة بأصحابها في فرع من إطلاق الرصاص.. وقال يسوع: "احذروا من الكتبة الذين يرغبون المشي بالطيالة ويحبون التحيات في الأسواق والمجالس الأولى في المجمع، والمتكآت الأولى في الولائم.. هؤلاء يأخذون دينونة أعظم."

لم ولن تتوقف الحياة. ما زال إسحاق يحارب وما زال العيسوي يسرق وربيع يكتب مهلاً لإنجازاته في خدمة مصرهما الحبيبة، وما زالت إسرائيل تماطل وتساوم في عملية السلام.. ولأول مرة أعاد اكتشاف عيني حبيتي على ضوء ما انعكست به الحياة على نفسي، لأجدهما خضراوين حالمتين، توحيان بالأمل.

حين سألتها: "هل تتزوجيني؟" أمعنتُ النظر في عينيها فرأيتها سوداوين ناعستين تلمعان بذكاء متوقد لا يشوبه كبر أو غرور. فيهما دهشة طفل وسكينة عارف. فيهما طيبة وبساطة ومرح وشقاوة وتسليم. كل نقائص الدنيا تكاملت في عينيها. قرأت فيهما كثيراً مما قاله برتراند راسل، وما قالته أم فؤاد، وما تعلمته من القرآن والإنجيل. الحيوية

بعينها تتدفق منها في انسياب هادئ منعش، يبعث الأمل في الحياة ويحيلها إلى بهجة لا ينقطع مددُها. رأيت فيها ربيع عمري يبعث من جديد.. دونها الموت هاتان العينان الجميلتان، فحياتي أصبحت رهناً برويتهما تنظران إليَّ باشتياق ومحبة واحترام ورغبة. قالت لي وهي تكتم ضحكاتها بوضع يدها علي فمها الصغير:

- ألم أقل إنك مجنون؟!

- بل سأجن بالفعل لو لم تقبلي.

- ألا تعطيني وتعطي نفسك فرصة للتفكير؟

واتفقنا على لقاء فلقاء فلقاء...

في كل مرة كانت تأسرنى بعذوبتها وتلقائيتها في الحديث أفضت إليَّ بكل ما تصارع في عقلها من فكر، وبكل ما انطوت عليه جوانحها من مشاعر وأحاسيس. يا إلهي! كم هي جميلة هذه المخلوقة الصادقة حتى النخاع! من أين أتت بهذه الثقة العظيمة في شخصي حتى تبوح لي بأدق أسرار حياتها؟ سألت نفسي: هل تخاطبني كأب أم صديق أم حبيب؟ خجلت أن أكون أقل صراحة منها أو ثقة بها، ففكرت أن أطرح عليها تساؤلي هذا بعد أن تعددت اللقاءات وازداد التقارب. شجعني على ذلك أن سيطر عليَّ شعور قوي طاغ كدتُ ألمسه بيدي وأنا أستمع إليها بأنها امرأة من عمري نفسه. تفكر مثلي. تستتج مثلي. حتى البحر الذي أعشقه، تعشقه مثلي. تحب ما أحب وترفض ما أرفض. تعجبت كيف تمكنت بهذه البساطة من إضافة ثلاثين عامًا إلى عمرها لتصبح مثلي في

الستين كعقل إنساني. لم أكن لأصدق قط أن هناك امرأة في الثلاثين تجمع بين حكمة الشيوخ وفورة الشباب في آن، لولا أن نظرتُ في عيني غصون. سألتها بصدقها وإخلاصها وصراحتها نفسها:

- هل تنظرين إليّ كأب أم صديق أم حبيب؟

- السؤال مركب والإجابة أكثر تركيبيًا.

- فلنجعلها نسبًا مئوية حتى نُسهّل الأمر.

- فكرة جيدة.

- لنبدأ بالأب.

قالت دون أن تفكر:

- الأب صفر بالمائة.

- غير معقول... هذه مبالغة.

- ليست مبالغة لسبيين.

- ما هما؟

- الأول يرجع إليك والثاني إليّ.

- فما الأول؟

- الأول أنني أرى فيك شابًا، بل طفلًا في بعض الأحيان، فقلبك شابٌ وروحك شابة، وفكرك شاب، حتى في ملبسك فأنت شاب.

- الله يخليك.. رفعت معنوياتي إلى قمم الفضاء.

- أنا أتكلم بصدق عن مشاعري تجاهك في هذه النقطة بالذات.

- إذن فأنت لا تنظرين إلى فارق السن بيننا.

- على الإطلاق.

- ألا أذكرك أبداً بوالدك وهو في مثل عمري تقريباً؟

لو كنت أعلم أن هذا السؤال سيفجر أحزانها ويشقيها لما سألتها.
تركتها تتحدث في انطلاقة عفوية لم أشأ أن أقاطعها ولو مرة واحدة
لأستفسر عن أي شيء. قالت:

-أما الذي يرجع إليّ فهو أنك لا تذكرني بأبي على الإطلاق، لأنك
نقيضه بالتمام والكمال. إنه رجل قاسٍ عنيد غليظ الطباع صعب
المعاشرة. كان يضرب أمي بوحشية وأنا طفلة، فيظل جسدي ينتفض
رعباً منه. أبكي بغزارة ولا أجروء أن يصدر عن بكائي صوت حتى لا
يسمعني فيضربني أنا الأخرى. تحملته أمي كثيراً حتى نفذ صبرها
فتمردت عليه. قرر الانتقام منها في أبنائه وبناته! أصبح يضمن علينا بماله
فلا ينفق إلا الفتات من مكسبه الوفير. يقاطعنا لأتفه الأسباب، فيغلق
عليه باب غرفته أسابيع أحياناً وأشهرًا أحياناً أخرى. لا نرى وجهه إلا
في أثناء دخوله المطبخ والحمام أو خروجه منهما. يصيح زاعقاً بأعلى
صوته-متعللاً بأي علة- فيسمعه كل الجيران وهو يسب زوجته
وأولاده سباً موجعاً. كان جبروته فوق الوصف، وظل كذلك طول

العمر حتى أصيب بشلل مفاجئ. تحول العنف إلى رقة وتحولت القسوة إلى لينٍ ونعومةٍ، لا عن اعتراف بخطئه أو ندم على ما كان منه، وإنما استجداء لخدمتنا له والسهر عليه. أمي الأصيلة نسيت وغفرت وسامحت فسهرت عليه ورعته ومرضته إرضاء لله فقط. أنا متيقنة من ذلك. إخوتي وأخواتي لم يعبؤوا به إطلاقًا، وأظنّ - والله أعلم - أنهم ينتظرون موته بفروغ صبر حتى يرثوا ممتلكاته وآلافه المؤلفّة التي ضمن بها عليهم في حياته، لينعموا بها بعد مماته، دون أن يذكره بخير.

لم أتمكن من مواصلة الانتظار فسألتها بشغف طفل:

- وأنتِ؟

- كنتُ وما زلتُ أُشْفِقُ عليه من قلبي.

ما أجملها وأعذبها يوم رأيته في الحرم وهي تسير به متكئًا عليها بثقله الضخم وهي تحتمله بقوة وثبات وعلى فمها ابتسامة عطوف حنون تفيض بالإنسانية! مخلوقة رائعة. في كل دقيقة أمضيها معها أزداد حُبًّا لها واحترامًا وتقديرًا. قالت:

- لهذا فإن نسبتي عندي كأب تساوى صفرًا كبيرًا.

- أعِدْكِ أن أكون لك الأب البديل حتى يزداد حُبُّكِ لي.

- عندك... لم نتكلم بعد عن نسبة الحبيب.. دعنا نتكلم عن نسبة الصديق.

- صدقيني. إنني أتمنى أن أقوم الآن وأحضنك وأقبلك أمام كل رواد هذا الكازينو.

- نسبة الصديق خمسين بالمائة.

- إذن فنسبة الحبيب خمسون فقط.

- هذا صحيح. ما رأيك؟ هل أعجبتك رؤيتي لك؟

- أنت مشكلة..دعيني أفكر.

كنت قد اصطحبته إلى كازينو الشاطئ بناء على إلحاح منها لشدة رغبتها في رؤية أم فؤاد التي تعلم كم أحبها، والمحبة يحب حبيب المحبوب. تمت أن ترى هذه المرأة المجربة التي شجعتني على تغيير مجرى حياتي مائة وثمانين درجة بإهدائها فكرة المقهى إليّ، ثم بمباركتها لفكرة زواجنا التي طرحتها عليها بمجرد أن داعبت خيالي، وكأنها أُمّي أستشيرها في أموري المصيرية وأستمعُ إليها بتقدير واحترام.

- أأنتِ على استعداد للجلوس مع معلمة تشخر وتدخن الحشيش؟

- أنت تفعل الشيء نفسه، وأنا على أتم استعداد، بل في أشد الاشتياق إلى معرفتها.

- لن يكون بينكما موضوع مشترك يمكن أن يجمع بينكما في حوار.

- ألا يكفي أن تكون أنت موضوعنا؟!

رُحْتُ أَرْقُبُ الْمَشْهَدَ فِي ذَهُولٍ.. وَكَأَنَّهَا تَعْرِفُهَا مِنْ قَبْلِي، وَضَعْتَ
جَسْمَهَا الصَّغِيرَ دَاخِلَ صَدْرِ أُمِّ فُؤَادِ الْعَرِيضِ الَّذِي احْتَوَاهَا فِي عُنَاقٍ
يَقْطُرُ مَوْدَةً خَالِصَةً، وَقِبْلَاتٍ تَفِيضُ بِالْصَّدَقِ وَالْمَحَبَةِ. ضَرَبْتُ كَفًّا عَلَيَّ
كَفًّا لِحِرْتِي مِنْ هَذِهِ الْعَفْرِيَّةِ الصَّغِيرَةِ الْمَقْدَامَةِ عَلَى النَّاسِ وَالْحَيَاةِ بِحُبٍّ
وَشَجَاعَةٍ. بَادَلْتُهَا أُمُّ فُؤَادٍ مَشَاعِرَهَا بِمَشَاعِرِ أَجْمَلٍ وَأَشْمَلٍ، وَكَأَنَّهَا
تَحْتَضِنُ ابْنَتَهُ لَهَا قَدْ غَابَتْ عَنْهَا طَوِيلًا. مَا أُرْوِعُ حَيَاتِي الْجَدِيدَةَ الْمَتْرَعَةَ
بِالْحُبِّ!

- مَنْوَرَةُ الْمَطْرَحِ يَا دَكْتُورَةَ.. إِنْحَنَّا زَارِنَا النَّبِيَّ النَّهَارِدَهُ.

- بُوْجُودُكَ يَا طَانِطُ.. رَبَّنَا يَبَارِكُ فَيْكِي.

كَتَمْتُ ضَحْكَةَ عَفْوِيَّةٍ كَادَتْ تَصْدُرُ مِنِّي لِسْمَاعِ كَلِمَةِ "طَانِطُ" الَّتِي
يَبْدُو أَنَّهَا أَعْجَبَتْ أُمَّ فُؤَادٍ:

- وَالنَّبِيَّ طَالِعَةً مِنْ بَقْكَ زِي السَّكْرِ.. قَوْلِي لِي يَا أُمَّ فُؤَادٍ يَاجُوتِي.

نَظَرْتُ إِلَى الْبَحْرِ نَظْرَةَ الْعَاشِقَةِ الْمَفْتُونَةِ لِمَعشُوقِهَا وَقَدْ فَقدَتْ نَفْسَهَا
فِيهِ.. قَالَتْ فِجَاءً:

- لَازِمٌ أَنْزَلَ الْبَحْرَ.

- مَعْقُولٌ؟

- لَمْ لَا؟ اسْتَرَيْ لِي "مَايُوهُ" يَا مَرَادُ وَحَيَاةٍ مِنْ زَرْنَاهُ مَعًا.. لَوْ لَمْ أَنْزَلِ
الْبَحْرَ سَاجِنٌ، فَهَلْ هَذَا يَرْضِيكَ؟

كان لها ما أرادت، فمعشوقها هو معشوقي، والذي لم يعشق البحر
لا يعرف كيف يعشق الحياة. كان الموج هادئًا لا يُسمع له صوت.
استنجدت بأسراره لعلّي أرسو على بر. البنت صغيرة ولذيذة وشهية
وذكية ومشاكسة وجسمها جميل متناسق والحياة معها تطيل العمر. أن
أكون صديقًا لها ورجلاً وحيبًا وشريكًا فهاذا يضرير الدنيا من ذلك؟
لكنك متزوج، وابنتك وابنتك متزوجان، وزوجتك سيدة فاضلة لم
تُؤذِك في شيء وقد أدت رسالتها تجاه أسرتها على خير وجه. هل يعني
انتهاء دورها في الحياة أن تُهمَل وتُترك وتُنسى؟ المهندس مراد عامر لا
يمكنه أن يفعل ذلك ولو على رقبتة.

المشكلة أن هذا المهندس قد قُتل أو مات يوم بلغت الستين، وحلَّ
محلّه المعلم مراد. ما أروع أن أحيا حياة جديدة مع امرأة صغيرة خفيفة
الروح تقول لي: إنها حين تجلس أمامي وحدي دون العالم، فإنها تكون
على سجيتها وفطرتها، وبكامل كيائها وفكرها وإحساسها، فلا تفكر ولا
تحذر ولا تتدبر فيما تقول كما تفعل مع الآخرين! معذرة يا سميرة. لك
الحق في أن تتهميني بالأنانية والجحود. قد أكون مخطئًا في نظرك ولا بد
أن أكون كذلك.. لكن ذريعتي أنني لن أفعل شيئًا يغضب الله، وفضلاً
عن ذلك فإنني لم أعد أنا، ولت الدنيا كلها تفهم ذلك. لقد مللتُ
حياتي السابقة بشدة وهذا أمر لا ذنب لي فيه. الله خلقني هكذا. لو بقيت
معك سأموت وهذا لا يرضيك ولا أقبله، ولا ذنب لك فيه أنت
الأخرى. هو أمر كائن واقع ملموس محسوس مؤكد. كان لا بد من

التغيير فهو بديل الموت، وكيف أطالب بالتغيير السياسي في وطني بينما أعجز عن التغيير في حياتي؟ بحكم الزمن الحبيث أنا لم أعد أنا وكذلك أنت لم تعود أنت. تحوّل كل منا إلى كائن آخر، فأصبحنا كائنين مختلفين لا يلتقيان كما التقيا من قبل.. وكيف أقول للزمان قف وأنا أعلم أنه لن يعبأ بي؟.

"لا تسأليني كيف ضاع الحب منا في الطريق/ يأتي إلينا الحب لا ندرى لماذا جاء/ قد يمضي ويتركنا رمادًا من حريق/ فالحب أمواج وشطآن وأعشاب/ ورائحة تفوح من الغريق/ ماذا يفيد لو قضينا العمر أصنامًا يحاصرنا مكان؟/ لم لا نقول أمام كل الناس ضلّ الراهبان؟/ لم لا نقول حبيبتي قد مات فينا العاشقان؟/ العطر عطرك والمكان هو المكان/ شيء تكسر بيننا/ لا أنت أنت ولا الزمان هو الزمان..."

- كفّاك شروداً وهات ما عندك.

- لو استبدلنا الرجل بالحبيب فهل تتغير النسبة؟

- لا تتغير لأنني معجبة بعقلك وقلبك وجسدك جميعاً.

- بنسبٍ أيضًا؟

- لا.. هذا صعب، بل غير معقول، فالمطلق لا يُقاس بنسبي والنسبي لا يُقاس بمطلق.

● قصاصات قديمة منسية لم تسجل في مذكرات الشرخ:

* قصاصة:

احتدم الجدل بين إسماعيل القططي طالب الهندسة الفاشل وبين بلطجي ينافسه على حُب فتاة. قال لي القططي في بداية علاقتنا: إنه يحبني كما يحب وحيدته وقرّة عينه إسماعيل، وصدّقته كعادي. كان يربّت على ظهري وصدري بمحبة مدهشة. تجمع أهل الحي وعجزوا عن فض المشاجرة. استلّ البلطجي سكيناً من جيبه وغرسه في صدر منافسه على مرأى من الجميع. قلتُ من قبل: إنني لن أدع القططي يفلت من عقابي. جاء العقاب من شديد العقاب.. ويعود عبد الناصر من المطار منهكاً فيموت ولا يتوقف قتال الفلسطينيين مع الأردنيين أو الفلسطينيين مع الفلسطينيين. قال لي خير ألماني بالشركة: "أنتم يا عرب تنتزعون منا الضحك على خيبتكم واختلافكم المستمر، لذا فلن نُحلّ قضيتكم ولن تقوم لكم قائمة إلى الأبد". كان حلم عبد الناصر كبيراً بدوائره المصرية والعربية والإسلامية والأفريقية. رغم حسن نيّاته فقد غرق في حلمه وأغرق معه شعباً أحبّه كما لم يحب زعيماً له من قبل.. ويطالب صحفي إسرائيلي بصنع تمثال له من ذهب ووضعه في قلب تل أبيب عرفاناً وتقديراً لإهدائه إياهم سيناء في ست ساعات. كان أول حاكم مصري ينبض قلبه بأوجاع شعبه، لكنه أدخله ثلاث حروب خاسرة.. ينهار صرح الحب العظيم ويبيت البنيان الاجتماعي مهدداً بالزوال من بعد حلم أخضر بالاستقرار والعدالة والحرية ذات

الجناحين.. ويتحالف المتربصون بكرسي الرئاسة ضد السادات الذي جمعهم في عربة واحدة وتخلص منهم في ساعات قليلة وأطلق عليهم لقب "مراكز القوى".. ويحتاج الزوال بأمواجه الصاخبة المعقدة حقبة من تاريخنا المنهك بالعذاب، ولا يفارق مشهد المنصة مخيلتي قط.. يستحيل الزمان من كيان هلامي زاحف إلى كابوس مادي يتجسد فيه شقاء الإنسان وقسوته وغروره وجهله بمغزى الحياة، ويتنسم هدوءاً غامضاً علي أرض الوادي، وكأن الدنيا لا شأن لها بما يقع فيها.

* قصاصة أخرى:

يبكي مبارك في أثناء تسلمه مقاليد الحكم بينما تزهو عجلة الحياة بدورائها الأبدي، غير عابئة بمن راح ومن جاء. أمامك أيها الرئيس الجديد درب طويل. أولى خطواته هي التخلي عن الزعامة والاكتفاء بالرئاسة حتى تتجاوز أخطاء الزعيمين السابقين، فتوفر لشعبك حرية الطعام وحرية الكلام.. وقف مبارك أمام مجلس الشعب يتعهد بطهارة اليد وبألا تزيد مدة حكمه عن فترة أو فترتين، وبأن يرعى مصالح الشعب ويقوده نحو الديمقراطية، فهل يصدق يا ترى؟ ولقد صاح العيسوي قائلاً:

- ضاع كل شيء!

بعثتُ برقية تهنئة إلى أخي إسحاق أهنته فيها بنجاح حملته وانتصاره. اتفقنا على أن نلتقي يوماً ما. أهلاً يا أستاذ ربيع.. صودرت

أموال صاحبك. بداية طيبة للتطهير المرتقب الذي وعدنا به وصدقناه .
سوف يسقط اسمك يا ربيع في بالوعة النسيان وتزول يا زول.

* قصاصة ثالثة:

منذ العبور أصبحت في حِلٍّ من صفرتي المعشوقة، وأصبح من
حقني وواجبي أن أكفَّ عن التأرجح حول يمين الصفر ويساره
بمسافتين متساويتين، فالحياة تمور من حولي بالمتغيرات، وهناك فعل
حقيقي ومؤثر قد حدث. فعل جعل من التَّام الشرخ ومن يقيني
الصفري نقيضين لا يتفقان. لكني ما زلتُ أرى أهل الزراعة لا يزرعون
وأهل الصناعة لا يصنعون. أهل الكلام فقط ما زالوا يتكلمون. ليتكم
تعلمون يا إخوتي الأعزاء أن الصفرية التي أعيشُها ليست داء، بل هي
دواء يُسكِّن ألمي من مرض مزمن أصابني منذ ثلاثين عامًا هو مرض
الشعور بالظلم. أنا أعرف ما الذي سيحدث.. بعد زمن قليل يبدأ
الفتور والنسيان.. ويبحث الناس عن الخبز والزيت والسكر والوظيفة
والمسكن، بينما السفينة تبحر بهم إلى شاطئ الموت.

من الملف رقم (١٠)

أنظر إلى نتيجة الحائط المعلقة أمامي والتي تشير إلى أبريل من العام الحالي ٢٠٠٦ وقد تحوّلت إلى بانوراما سحرية. في إحدى زوايا المشهد أرى قضاة مصر وهم يتجمعون أمام ناديم مطالبين بسنّ قانونٍ للسلطة القضائية يحفظ لهم استقلالهم ويحميهم من تغول السلطة التنفيذية. وفي زاوية أخرى من الصورة نفسها أشاهد حشودًا هائلة من قوات الأمن المركزي ينهالون بالعصي والهرافات المكهربة على من جاء من رموز هذا المجتمع مؤيدًا ومؤازرًا للقضاة في وقفتهم. في مكان بارز بالصورة أرى أحد القضاة وقد طرحه رجال الأمن على الأرض وانهالوا عليه ضربًا بالعصي وركلاً بالأحذية وسبًا وقذفًا.. وقد ظهر هذا القاضي فيما بعد على شاشة فضائية يحكي قصته والدموع تنهمر من عينيه، مستدعية إلى الذاكرة مأساة مشابهة سبق أن تعرض لها الفقيه الدستوري الدكتور عبد الرزاق السنهوري قبل أكثر من خمسين عامًا. رغم مرور كل هذه السنوات فجوهر الحكم لم يتغير. في الزاوية المقابلة أرى مشهدًا نمطيًا

متكرراً عنوانه "الفتنة الطائفية" وأبطاله المسلمون والمسيحيون، وأحداثه تقع مرة في الإسكندرية ومرة في البحيرة ومرات في الخانكة والدرب الأحمر، في تأكيد مستمر علي أن النسيج الاجتماعي المصري بات مُهدّداً في صميمه فاقداً لخصائصه. وإذا وضعنا ما يعلنه بدو سيناء من احتجاج علني على سوء المعاملة الأمنية للآلاف من أبنائهم وآبائهم وأمهاتهم الذين اعتقلوا وانتهكت أعراضهم بعد تفجيرات طابا وشرم الشيخ في العامين الماضيين، وما يُبدية أهالي النوبة من شعور بالغبن والتهميش، يمكنني القول بأن بنية المجتمع المصري أصبحت في خطر حقيقي.

مشهد آخر أرى فيه جموعاً من الطلاب وأساتذة الجامعات يطالبون برفع الوصاية الأمنية عنهم والكف عن ملاحقتهم واعتقالهم وإلغاء لائحة ٧٩ المقيدة لنشاطهم والعودة إلى لائحة ٧٦ والكف عن التدخلات الأمنية في اختيار أعضاء نوادي هيئة التدريس الخاصة بهم... مراكز صنع أجيال المستقبل تعاني الكبت والاحتقان. لم يكن مستغرباً أن يُلقي ذلك بظلال سوداء على العملية التعليمية فتخرج جامعاتنا من المنافسة حتى على المركز رقم ٥٠٠ من بين جامعات العالم.

لقطة أخرى لمئات الآلاف من الإخوان المسلمين يطالبون بحرية العمل السياسي أسوة بالبراليين واليساريين وغيرهم، محذرين من إمكانية العمل السري في أقبية مظلمة تحت الأرض، إذا ما استمرّ الانسداد في شرايين العمل السياسي العلني... وتظهر في الصورة مظاهرات الصحفيين احتجاجاً على محاكمة زملائهم الذين يكشفون

الفساد ويعرون مؤخرته في جراحة بالغة. وفي الخلفية العامة للمشهد أرى ملايين الفقراء ممن كانوا يسمون حتى عهد قريب بالطبقة الوسطى. أشاهدهم وقد زحف الفقر عليهم حتى بات الواحد منهم يصارع دوامة الحياة اليومية باحثًا عن لقمة عيش عزّ وجودها في وقت يسمعون فيه منذ ربع قرن أحاديث وتصريحات لا حصر لها عن تنمية وهمية، غزا الشيب رؤوسهم دون أن يروا ثمارًا لها.

ويحيط بإطار الصورة العامة قانون للطوارئ مُشهر منذ ربع قرن في وجه رموز التغيير السياسي والاجتماعي، غاضًا الطرف عن ظاهرة اشتهرت باسم "البلطجة" التي يحتكم أفرادها إلى قانون الغاب. ساعدهم على ذلك انحسار دور الدولة من جهة، وتشجيع بعض رموز الحزب الحاكم من جهة أخرى.

هذه المشاهد المضطربة، وهذه الصورة المهزوزة، وتلك الألوان القائمة توحى بأن انتشار دولة كبيرة بحجم مصر من وحل حاضرها أصبح حلمًا صعب المنال، لا يزال تحقيقه يواجه عقبات جمّة، تجعل من كل ما سبق لقطة تذكارية شاملة لصورة من صور الماضي الذي كتبت عنه مذكراتي القديمة منذ ما يقرب من أربعين عامًا....ها هو عام ٢٠٠٦ يقترب من نهايته وكل شيء في مصر علي ما كان عليه. ما زال النظام يواصل ألامه المضبوحة والتي كان آخرها تعديل التعديل الذي تم من قبل للمادة ٧٦ من الدستور. يصفه حمدين صباحي رئيس تحرير جريدة الكرامة بأنه تعديل "ديكوديمو" أي ديكوري ديموقراطي لأنه يمهّد عن طريق ترزية القوانين الأفاقين لكي تكون الانتخابات

الرئاسية القادمة مجرد إعادة عرض لمسرحية الانتخابات الرئاسية السابقة.. ولقد أراحنا الدكتور صلاح صادق أستاذ القانون بأن أوجز المسألة في عبارة عبقرية وهي أن التعديل الأول كان للتمديد والثاني للتوريث.. أما الشاعر سيد حجاب فقد فسر الأمر برمته بقوله: "نحن نعيش حالة انقلاب، فلا السلطة قادرة على الحكم، ولا الشعب قادر على انتزاع السلطة من أيدي الفاسدين".

● آخر نكتة في آخر ملف:

رفع مواطن مصري عادي متضرر من بيع القطاع العام دعوى ضد رئيس الجمهورية يطالبه فيها برد قيمة بيع شركات الشعب إلى الشعب. نُشرت الخبر الصحفية سحر زكي المحررة في جريدة الدستور. بعد النشر تقدم محام مغمور لم يقع عليه ضرر من جراء نشر الخبر، بدعوى ضد الصحفية سحر، ورئيس تحرير الجريدة إبراهيم عيسى، والمواطن العادي صاحب الدعوى الأصلية بتهمة نشر أكاذيب تسيء إلى الرئيس وتنشر الفزع بين المواطنين! صدر قرار بمحاكمة الثلاثة. النكتة أن الجميع يعلمون صحة خبر الدعوى من جهة، وعدم مسئولية رئيس التحرير من جهة أخرى. في المحكمة احتشدت الجماهير المؤيدة لإبراهيم عيسى بما يمثله ويرمز إليه من معنى -مثلاً احتشدوا من قبل لزميله وائل الأبراشي- وكانوا يحملون أعلام مصر. مزقها الضباط والجنود ومنعوا المواطنين من حملها. وقال إبراهيم عيسى: إن الله لن يترك أناساً يعملون في سبيله دفاعاً عن الحرية في مواجهة من يريدون مواطني هذا البلد عبيداً لرئيسهم وحزبه وابنه من دون الله. الذين يدافعون عن الأمة وحقتها في القوات والرزق دونما سرقات ونهب

وتبديد لثروة البلد واعتداء على المال العام بيت مال الأمة، والذين يقاتلون ضد استبداد الحكم الذي جعل كل شيء رهن إشارة أصبع رئيس وتحت أمر رمشة من عين حاكم، كأنه قادر على أن يقول للشيء في هذا الوطن كن فيكون.. كأنما يقتض من حق الله، يقتل هذا ويسجن هذا ويدبر مكيدة لذلك ويعصف بهؤلاء ويضرب هذا دونما أن يردده قانون، فهو مُفَصَّل على هواه، ولا يردعه دستور، فهو موضوع تحت قدميه. هذا النظام الذي جعل الحاكم سرمدياً أبدياً لا يمضي ولا يمضي إلا بالفناء وقدر القضاء. يتربع ربع قرن ويزيد دون إرادة الأمة التي زيفوا بيعتها.

هف..هف..هف..أنا الآن أشعر بارتياح نسبي بعد أن أفرغت أمامكم كل ما بصدري. الآن أصبحتم شركائي في المسؤولية، فلو سألت الدماء أنها را على أرض وادينا الجميل، لن يستطيع أحد أن يتنصل عن مسؤوليته المباشرة أو غير المباشرة عما حدث، وعما يحدث، وعما سيحدث.. لكن ارتياحي لن يكون مطلقاً فأصبح في حِلٍّ من أمري، إلا إذا أكدتم لي أنني إنسان متشائم، شكوكه وظنونه ليست في محلها، بحكم أنها تهويات مسطول عائش في الخيال.. أو إذا أكدتم لي أنها صحيحة أو محتملة أو مؤكدة، فأحياناً تصدر الحكمة من أفواه المساطيل.

لم يبق أمامي إلا أن أذهب لأتطهر بباء البحر وأغتسل من كل ما علق بذهني وجسدي وروحي على مدى أربعين عاماً من أوساخ. كافيتريا أم فؤاد هي المكان الوحيد الذي لا بديل له على الأرض،

والذي يمكنه أن ينفذ الموضوع بهومته عن كاهلي، حيث الله والطبيعة
والاتساع اللانهائي وسكينة الروح وطمأنينة الفؤاد.

سبحتُ بعيداً عن الشاطئ حتى لا يراني أحد. خلعتُ المايوه
وعلقته حول رقبتني وذُبتُ في الماء وتلاشيت. تكلمتُ إلى الله بصوت
مسموع كله خشوع وتوهُّل وتذلُّل، ألا يترك مصر نهياً للصراع
والفوضى. غنيتُ لأُم كلثوم "حبيبي يسعد أوقاته على الجمال سلطان".
لم أكتفِ بالغناء، وإنما كنتُ أردد الجمل الموسيقية الفاصلة بين الكلمات
بإتقان شديد، فالموسيقا في دمي، وأذني تعشق النغم الشرقي، وكل ذرة
في جسدي ترقص لها.. ثم صرختُ فجأة وأنا أعرف أن أحداً لن
يسمعني:

-ربنا ياخذكم يا أولاد الكلب.

وأعودُ إلى الغناء ثانية.. "بعد الحبيب ولو إنه يطول وانت يا قلبي
كلك أمني". يا رب ارحمنا برحمتك يا جميل يا من تحب الجمال والسلام
والمحبة بين مخلوقاتك، فأنت الحب والمحبة والحبيب والمحجوب...

نسيْتُ المايوه في رقبتني حتى اقتربت من الشاطئ حين لمحتني أم
فؤاد وأنا أنزله من رقبتني وأعاود ارتدائه. عندما خرجت قالت لي:

-يا راجل يا شايب بطل المسخرة دي.. إفرض إنه ضاع منك في
البحر.

قلت لها مداعباً:

-لن تشعري أبداً بالمتعة التي أشعر بها إلا إذا جربتِ بنفسك.

شخرت لي وقالت وهي تنفث دخان سيجارتها:

- إنت يخلي لك بلاد.

كان وقت صلاة العصر قد اقترب، فرأيت أن أصليه مع الشيخ خليل في المسجد، لأستكمل شعوري بالخفة والطيران والشفافية.. الليلة ليلة غصون ليلة حب وحياة وبهجة وتقرب إلى صاحب النعم بالاغتراف من نعمه وشكره عليها. في الطريق إلى المسجد تذكرت الشيخ عبد ربه التائه الذي سأله نجيب محفوظ:

- متى تنصلح حال البلد؟

- عندما يؤمن أهلها أن عاقبة الجبن أسوأ من عاقبة السلامة.

- وكيف تنتهي المحنة التي نعانيتها؟

- إن خرجنا سالمين فهي الرحمة، وإن خرجنا هالكين فهو العدل.

سعيد سالم

الإسكندرية في ١١/٩/٢٠٠٦ - مسودة أولى

الإسكندرية في ١٨/١١/٢٠٠٦ - كتابة ثانية

أولاً: تعريف بالكاتب سعيد سالم

- سعيد محمود سالم.... من مواليد الإسكندرية ١٩٤٣ .
- عضو اتحاد كتاب مصر. رقم العضوية ٤٠٠ .
- عضو اتحاد الكتاب العرب. رقم العضوية ٦٢٤ .
- عضو لجنة النصوص الدرامية بالإدارة المركزية للإذاعة والتلفزيون بالإسكندرية.
- عضو هيئة الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية.
- عضو أتيليه الكتاب والفنانين.
- عنوان المنزل ٥ شارع على باشا ذو الفقار شقة ١٠ بمصطفى كامل. الإسكندرية.
- تليفونات: المنزل ٠٣٥٤٦٢٨٦٩ الموبايل ٠١٢٤٣٩٠٢٥٩

المؤهلات:

- ١- بكالوريوس الهندسة الكيميائية ١٩٦٤ . كلية الهندسة. جامعة الإسكندرية.
- ٢- ماجستير الهندسة الكيميائية ١٩٦٨ . كلية الهندسة. جامعة الإسكندرية.
- المهنة: مهندس استشاري بالمعاش.

•• مجمل أعمال الكاتب حتى عام ٢٠١٠

(٢٤) عملاً ما بين الرواية والمجموعة القصصية.

- في مجال الرواية: (١٤) رواية.
- في مجال القصة القصيرة: (٩) مجموعات قصصية.
- في مجال الدراما الإذاعية: عشرات المسلسلات والسباعيات والسهرات الدرامية بإذاعتي القاهرة والإسكندرية.
- في مجال المسرح: مسرحيتان كوميديتان كل منهما في ثلاثة فصول.
- في مجال النقد الأدبي: مجموعة دراسات عن أعمال بعض الكتاب المصريين والعرب نشرت بمجلات وجرائد مختلفة.
- في مجال المقالة: مجموعة مقالات ثقافية وسياسية واجتماعية نشرت بمجلات وجرائد مختلفة.
- كتاب بعنوان "نجيب محفوظ الإنسان" ..هيئة الكتاب ٢٠١٠.
- في مجال الدراما التلفزيونية: مسلسل كوميدي "عاليها واطيها" من إنتاج صوت القاهرة عام ٢٠٠٨ من إخراج وائل فهمي عبد الحميد.

•• أهم الجوائز التي حصل عليها الكاتب

- ١ - جائزة إحسان عبد القدوس الأولى في الرواية لعام ١٩٩٠ عن رواية "الأزمة" الصادرة عن روايات الهلال بالقاهرة.
- ٢ - جائزة الدولة التشجيعية في القصة القصيرة لعام ٩٤/٩٥ عن مجموعة "الموظفون" الصادرة عن مطبوعات اتحاد الكتاب العرب بدمشق.
- ٣ - جائزة اتحاد كتاب مصر في الرواية لعام ٢٠٠١ عن رواية "كف مريم". اتحاد الكتاب بمصر.
- ٤ - جائزة اتحاد كتاب مصر في الرواية لعام ٢٠١٠ عن رواية "المقلب" الصادرة عن المجلس الأعلى للثقافة عام ٢٠٠٩.
- *مرشح لجائزة الدولة التقديرية لعام ٢٠١١.

مجالات نشر قصصه القصيرة:

على مدى ما يزيد عن ثلاثين عامًا نُشرت له مئات القصص القصيرة والمقالات في الجرائد والمجلات المصرية والعربية الآتية:

الأهرام-الأخبار-أخبار اليوم-أخبار الأدب-الجمهورية-المساء-أكتوبر- حواء-مايو-الهلال-الثقافة-الكاتب-إبداع-آخر ساعه-روز اليوسف- القصة- عالم القصة-البعث-تشرين- الموقف الأدبي- الآداب-الثورة-الأسبوع الأدبي-البيان-الأنباء- العربي-الفيصل-

المجلة-الحرس الوطني-الشرق الأوسط-الدستور-الرأي-اليوم
السابع-صباح الخير-الكويت-البحرين الثقافية-الرافد.

الروايات المنشورة

- ١- جلامبو جماعة أدباء الإسكندرية ١٩٧٦.
- ٢- بوابة مورو جماعة أدباء الإسكندرية ١٩٧٧.
- ٣- عمالقة أكتوبر الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩.
- ٤- آلهة من طين الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥ طبعة أولى، دار
الجليل بدمشق ١٩٨٦ طبعة ثانية.
- ٥- عاليها أسفلها وزارة الثقافة بدمشق ١٩٨٥ طبعة أولى، دار
المستقبل بالقاهرة ١٩٩٢ طبعة ثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٥ طبعة الثالثة.
- ٦- الشرخ دار طلاس بدمشق ١٩٨٨.
- ٧- الأزمنة روايات الهلال بالقاهرة ١٩٩٢.
- ٨- الفلوس دار المستقبل بالقاهرة ١٩٩٣.
- ٩- الكيلو ١٠١ دار المستقبل بالقاهرة ١٩٩٧ طبعة أولى، الهيئة المصرية
العامة للكتاب ١٩٩٩ طبعة ثانية.
- ١٠- كف مرييا اتحاد كتاب مصر ٢٠٠١.

- ١١ - حالة مستعصية روايات الهلال ٢٠٠٢ .
- ١٢ - الشيء الآخر دار ومطابع المستقبل بالفجالة ومكتبة المعارف بيروت ٢٠٠٤ .
- ١٣ - المقلب المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٩ .
- ١٤ - الحب والزمن (نُشرت على حلقات بجريدة الدستور المصرية عام ٢٠٠٧).

المجموعات القصصية المنشورة:

- ١ - قبة الملكة اتحاد الكتاب العرب بدمشق ١٩٨٧ .
- ٢ - الموظفون اتحاد الكتاب العرب بدمشق ١٩٩١ .
- ٣ - الجائزة قايتباي للطباعة والنشر ١٩٩٤ .
- ٤ - رجل مختلفا هيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥ .
- ٥ - الممنوع والمسموح مختارات فصول ٢٠٠٢ .
- ٦ - أقاصيص من السويد هيئة الكتاب ٢٠٠٥ .
- ٧ - قانون الجبال الكتاب الفضي ٢٠٠٦ .
- ٨ - هوى الخمسين نهضة مصر ٢٠١١ .

المجموعات القصصية تحت النشر:

- ٩ - رحيق الروح أصوات أدبية.

ثانيًا : نماذج من آراء الكتاب والنقاد حول أعمال سعيد سالم

ملاحظة: أعدّ هذه الدراسة دكتور محمد زكريا عناني بالتعاون مع الكاتب.

• نجيب محفوظ

من حسن الحظ أنني تمكنتُ من قراءة بوابة مورو، وأشهد بأنها جذبتني إلى قراءتها بسحر فيها لا شك فيه، وهي عمل جيد في تصويره للبيئة، وبما قدمته من شخوص حية ممثلة في الراوي والأب والفتاتين، وأسلوبها ينبض بالحياة والتلقائية، وإني أهنئك عليها وأعتبر عملك من آيات البشرى ببعث الحياة الثقافية التي لم يعد لها من عماد إلا حماس بعض الشبان أمثالك من أدباء مصر العريضة - مجلة أكتوبر ١٩٧٨ / ٣ / ٧.

• يوسف إدريس

سعيد سالم هو ابن الإسكندرية الذي دخل المسرح الأدبي دخول العاصفة، والذي أتوقع أنه سيظل يثير من حوله تلك العواصف الخلاقة، وأنا قرأت أعماله الروائية الثلاثة "جلامبو" و"بوابة مورو" و"عمالقة أكتوبر" وكنت سعيدًا بها جدًّا، وسعيد سالم أقل الكتاب تأثرًا بي، فله استقلاله الفني وله طريقته الخاصة وله مدرسته في الكتابة. إن قصص سعيد سالم أحسن من قصص يوسف عجنون مليون مرة - مجلة البيان الكويتية - يولييه ١٩٨٢.

• الدكتور علي الراعي

مما لا شك فيه أن سعيد سالم قد قدم في بوابة مورو عملاً جاداً يستأهل النقد الجاد، ومن ثم احتفيت به بالطريقة الوحيدة التي يستأهلها العمل الجاد، وهي حمله على محمل الجد فعلاً، ومعاملته معاملة الفن القادر على أن يثبت للتحليل، بما يعنيه هذا من استخدام لأسلحة النقد الثقيلة في عرضه وتفسيره وتبيان نواحي ضعفه ومواطن قوته. مجلة المصور - ٢٦ نوفمبر ١٩٨٢.

• الدكتور سيد حامد النساج

إن الفكرة المسيطرة علي سعيد سالم في كثير من قصصه هي فكرة الحرية، واختياراته في الأغلب الأعم هي شخصيات مكبوتة تعيش أزمات فردية والواقع موجود في ذهن الكاتب وهو يكتب، لكنه يستخدم الفنتازيا أحياناً ليعبر من هذا الواقع برسائل الرمز والإيعاز والتضمين، وأنا أتفق مع الكاتب في ما ورائيات قصصه فهي مكتوبة بوعي شديد. إذاعة البرنامج الثاني.. برنامج مع النقاد.

• يوسف الشاروني

أحب أن أعلن أن رواية "جلامبو" - كونها عملاً أدبياً أول على مستوى فني ناضج ولافت فيه دققه الشباب ونظرتهم المحتجة على كثير من الأوضاع التي لا يرضى عنها في مجتمعه وفي نفس الوقت فإن حبه لمصر لم يلهمه عن فنه، فلم ينس أنه يقدم عملاً روائياً، فلم يقع في براثن

التقريرية ولا الأسلوب المباشر ولا حتى الأساليب التقليدية، ونحن نستنشق في كل سطر من سطور الرواية عبق الإسكندرية، ونكاد نتذوق طعم ملوحة بحرهما ونستمع إلى أغانيها ونجوس وسط فلايكها وقد هبَّت علينا عواصفها وهطلت أمطارها. كتاب نماذج من الرواية المصرية هيئة الكتاب ١٩٧٧.

• الدكتور عبد العزيز الدسوقي

سعيد سالم روائي وقاص موهوب، وقد احتفيت به وقدمت قصصه باعتزاز في مجلة الثقافة وسأظل أعتز بنشر إبداعه في المجلة لأنه - في رأيي - من أعظم كتاب القصة والرواية في جيل السبعينيات - مجلة الثقافة ديسمبر ١٩٧٧.

• دكتور صلاح فضل

١ - عمالقة أكتوبر:

إن القصص سعيد سالم يستحق عناية نقدية خاصة لأنه لا يكتفي بموهبة الحكي بل يحاول استثمارها بذكاء ومهارة وهو يتميز بقدرة تصويرية ذات أبعاد تشكيلية تفيد من الإنجازات السينمائية وتقترب من التسجيل التشكيلي المجسد، وهو لا يستقر على منظور واحد يرصد منه المشهد وتيار الوعي هو السمة الغالبة على الأداء القصصي عنده. جريدة الأهرام ٢٢ يناير ١٩٨٠.

٢- كف مريم:

استطاع سعيد سالم بدأبه ومثابرته أن يستثمر ذكاءه الإبداعي وتوقه الطليعي معاً، وأن يزحف بثقة إلى الصفوف الأولى من كتاب السرد العربي في مصر. وكنت قد تنبأت له منذ مطلع الثمانينيات بمستقبل واعد في فن القص لموهبته ودهائه وقدراته التشكيلية البارزة وها هو اليوم يقدم ما يعتبره ذروة إبداعه ودرته الفريدة وهي رواية "كف مريم"... ونلاحظ أن جسارة الكاتب وتجربيه لعوالم جديدة في كلا الجانبين التقني والدلالي قد أضفى على الرواية قدراً من العمق والأصالة التي توقظ في القارئ حس التوتر الدرامي والشفافية الروحية مما يعدُّ شاهداً على نجاح المبدع في تحريك السواكن الراكدة. وقد استطاع سعيد سالم أن يقيم البناء الدلالي لنموذجه الوعر على تحويل صورة "مريم" من مجرد امرأة مصرية تدفع ثمن فتنها الأنثوية انتقاماً من الزوج الذي اغتصبها إلى رمز أعلى للعدراء التي تجمع بين التقديس الظاهر والتدنيس الباطن، وقد احتشدت في مسيرتها ملامح التمييز في الجنس والدين والهجرة والعمل والحدق الدفين المتنامي لجرائم التعصب الأعمى.

الأهرام ١٦/٦/٢٠٠٣

• محمد السيد عيد

لقد أسعدني تماماً أن أجد في مجموعة " قبلة الملكة " خروجاً على القضايا المألوفة في ساحتنا الأدبية ومحاولة جادة للتفلسف يقوم بها
٣٠٧

الكاتب السكندري سعيد سالم، والمحور الذي يدور حوله كاتبنا هو "الحياة" وما يؤرقه في هذه الحياة هو غموضها؛ لذلك نراه يردد بإلحاح عبارات مثل: "لست أدري"، "لست أفهم"، الأمر شديد الغموض " إنه كاتب طموح يحاول أن يعرف سر الحياة وأن يثبت قدمه في أرض التفلسف، ويتأثر في رؤيته كثيرًا بالعبث، كما يتأثر به في أحداثه وشخصياته، أما اللغة فتبتعد عن التجريب، لكنها في مجملها جيدة ومعبرة - مجلة إبداع أكتوبر ١٩٨٨.

• دكتور يوسف عز الدين عيسى

عندما قرأت روايتي "جلامبو" و"بوابة مورو" للأديب المهندس سعيد سالم شعرت بأنني أقرأ لشاب موهوب مطبوع لا مصنوع، وربما يكون ذلك راجعًا إلى خبرته في كتابة البحث العلمي فهو حاصل على الماجستير في الهندسة الكيميائية من جامعة الإسكندرية، وهو يكتب بتلقائية تشبه تلقائية الكاتبة الإنجليزية "جين أوستن" والتي وصفها أحد النقاد بأنها تكتب كما يزقزق العصفور، ويبدو تركيب روايته في نظام هندسي مترابط، وتتحرك أحداثها في قفزات تشبه القفزات المرسومة بدقة في بعض أنواع الرقص الإيقاعي أو رقصات الباليه - جريدة الأخبار يوليو ١٩٧٩.

• دكتور محمد مصطفى هدارة

تأتي معظم قصص سعيد سالم كصرخة احتجاج لحرية الإنسان وقيمه الذاتية وك تأكيد لأهمية الفكر في زمن المادة، والبطل في هذه

القصص هو الفكرة وليس الشخصية أو الحدث، والكاتب يتقن الوسائل الحديثة في فن القصة القصيرة، فهو لا يعتمد على السرد والحكاية فقط وإنما يستخدم المونولوج الداخلي استخدامًا جيدًا بتعبير فيه تكثيف وشاعرية، وهو يمنح قليلًا إلى السيرالية دون إغراق في الغموض، كما يستخدم الشكل الأسطوري في بعض الأقايص، أما لغته فهي متميزة في مستواها الفني والفكري. برنامج مع النقاد إذاعة البرنامج الثاني ١٢ فبراير ١٩٩٠.

• دكتور السعيد الورقي

١ - جلامبو ١٩٧٦

من القراءة الأولى لرواية "جلامبو" نكتشف أننا أمام كاتب سكندري حقيقي، في كتاباته طعم الماء المالح ورائحة اليود وأعشاب البحر، وفي شخصياته صدى لاضطرابات البحر وصراع الإنسان وقصة كفاح كل يوم، وإلى جانب شخصية البطل قدم سعيد سالم في عمله القصصي حشدًا من الشخصيات الرائعة التي تستطيع كل منها على حدة أن تكون نواة قصصية لعمل قصصي رائع - مجلة الكاتب مايو ١٩٧٦.

٢ - كف مريم ٢٠٠١

لاتقف براعة سعيد سالم في روايته "كف مريم" المانع المانع على قدرته في وضع تصميم بنائي محكم لعمله، ولا على دقته في رسم

شخصياته وفي تكوين علاقات هذه الأشخاص ببعضها البعض وبنفسها وبالحدث، ولا على منظومة القضايا والأفكار التي كانت حاضرة في ذهنه وحركها من خلال شخصياته، ولا على التوازن الحسابي الدقيق لاستحضار أصوات شخصياته وتناسب حجمها مع حضورها، بل يقف على قمة براعته الأدائية لغة السرد لديه بما فيها من شاعرية مثقفة وما فيها من قدرة حركية تمتلك خصوصيات السرد..

سعيد سالم حكواتي مثقف، يمتلك تلقائية الحاكي الذي يظل مسيطراً على أذنه حتى نهاية الحكاية وهكذا كان يوسف إدريس العظيم. (الأهرام ١١ / ١١ / ٢٠٠١).

• شوقي بغداددي

إن هذا الشاب المختص بالكيمياء مسكون بهاجس الكتابة القصصية إلى حد الهوس، وكأن شيطاناً داخلياً لا يقاوم يدفع به إلى إنجاز عمله في جلسة واحدة وهو عارف بأصول اللعبة القصصية بتقنياتها المعروفة قديمها وحديثها، وكتابته أشبه ما تكون بنهر غزير سريع التدفق، وجمال عمله كامن في وحشيته. تقديم رواية آلهة من طين – دار الجليل دمشق ١٩٨٦.

• مصطفى عبد اللطيف السحرتي

يمثل هذا الكاتب الجيل الغاضب، بل الجيل المتمرد المعربد وهو يسير على تقنية جديدة هي الكتابة بجمع اللقطات في حركة جد سريعة

أشبهه باللقطات السينمائية، وقد مثّل لنا سعيد سالم المنتمي السلبي
الفوضوي الذي أراد أن يغير المجتمع فخاب، وبقي أبناء الحي - بوابة
مورو - كما هم في رضا وتواكل وقناعة، وبقي هو في حيرته وقلقه. مجلة
الثقافة، يونية ١٩٧٧.

• جلال العشري

تختلف "آلهة من طين" عن روايات سعيد سالم السابقة سواء من
ناحية المضمون وزاوية الرؤية أو من ناحية الشكل وأداة التعبير، وأخيراً
من ناحية الأسلوب وطريقة الصياغة، مما يجعلها رواية غير تقليدية
تتمرد على كل ما هو مألوف في الفكر والصياغة والتعبير، والرواية في
الحقيقة تتجاوز حدود الواقع لكي تقترب من مملكة الرمز وتصبح
الشخصيات دلالات على معانٍ ميتافيزيقية وفلسفية، وتصير القضية
المحورية التي يركز عليها الصراع الروائي هي قضية العلاقة بين الفن
والدين، ومن هنا اتسم شكل الرواية بالنزعة اللاواقعية التي تبتعد عن
الأساليب التقليدية في السرد والحوار، ففيها يمتزج المونولوج الداخلي
بالمذكرات الشخصية أو أسلوب الاعتراف، ويلتقي الحوار المتداخل
بالاسترجاع، ويجمع الطابع التسجيلي للأحداث والتواريخ بالشطح
الفلسفي الذي يقود إلى التأمل في جوهر الخلق وماهية الإبداع - مجلة
الإذاعة والتليفزيون ١٤ / ١٢ / ١٩٨٥.

• أحمد زكي عبد الحليم

في " قبلية الملكة " يبدو سعيد سالم حريصًا على أن يمسك بتلك الخيوط الرئيسية في حياة الإنسان وخاصة أولئك الذين يعيشون حياتهم على نور العقل والمعرفة فينسج من هذه الخيوط أوتارًا يعزف عليها مفارقات الحياة من خلال ألحان حزينة وشجية، ويظل سعيد سالم صاحب أسلوب متميز ليس بطلاوة الكلمة ولكن بمقدرتها على اختراق الحجب والوصول إلى جوهر الأشياء، بحيث نرى حياتنا مدعة على أقدارنا ونبتسم في سخرية أو في حزن من أجل أيام ماضية وأيضا من أجل أيام مقبلة -مجلة حواء ١٩/٣/١٩٨٨ .

• دكتور محمد زكريا عناني

ونحن نقرأ رواية "الأزمة" نشعر أن الواقع كيان راسخ يتمثل في كل جملة فيها، ونعيد قراءتها فنهتز بفيض رومانسياتها وشجنها، ولهذا الحب الموءود بين بطلها ونجلها، ولموت الأب وعذاب الغربة ثم نسترجع أصداءها فأذا بها دنيا من الرموز التي تنساب طبيعية طيبة لا يفرضها منطق جامد ولا تخطيط نظري فإذا بنا أمام بناء فني يستفيد من كل الإمكانيات الفنية التي يسمح بها جنس الرواية - جريدة الأخبار ١٩٩٢/٩/٢ .

• الدكتور مصطفى عبد الغني:

١ - منذ البداية نكتشف أن سعيد سالم كان مهتماً بفكرة الانتماء التي قد تعوقها أشياء كثيرة كيلا تغدو انتماء إيجابياً. وقد كان يعوق الانتماء - فيما يرى - الكثير من مظاهر الفساد الاقتصادي بوجه خاص، ونستطيع أن نربط هنا بسهولة بين هاجسه المضمحل (الانتماء) وخوفه المعلن من الفساد. لقد تبلورت قناعته التي لخصت رواياته الأربع الأولى من مفهوم (الانتماء) وهو موقف شعوري إيجابي لا يمكن أن يتحقق ما لم يكن متبادلاً بين الوطن والمواطن، إلى تأكيد هذا المفهوم بإزالة معوقات الفساد من أمامه في أعماله الأخيرة. إن الكاتب كان دائم العود إلى العدو الخارجي وربطه بما يحدث في العالم، مستخدماً كثيراً من أساليبه الفنية من التقطيع السينمائي والاسترجاع والتسجيل وما إلى ذلك. إن ما يريد تأكيده سعيد سالم هو أن الواقع السياسي بدأ في التغيير تحت عنف معاول الاقتصاد الغربي والأمريكي بوجه خاص، بمؤسساته وأحلامه الجديدة في السيطرة على العالم، ومع ذلك فإنه لم يصل به الأمر إلى اليأس والقنوط قط..

كتاب قضايا الرواية العربية. الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٩.

٢ - إنه لم يبقَ أمام الإنسان العربي غير أحلام اليقظة ليمضي إليها هرباً من اثنين: إما الجنون وإما الفرار من الوطن كله، "ولا بأس من الجلوس في البيت ومشاهدة برامج التلفزيون الإسلامية التي

تتحدث عن خوارق أولياء الله الصالحين وتسخير الجان لتحقيق المنافع، وعن الدجاجة التي تضع بيضاً مكتوب عليه لفظ الجلالة والشهادتين، وعن الشجرة التي تنمو فروعها على هيئة لا إله إلا الله، والجاموسة التي يُشفى لبنها مرضى السكر".

جريدة الأهرام ٧/٦/٢٠٠٤ (حول رواية الشيء الآخر).

• صافيناز كاظم: (حالة مستعصية)

رواية لأديب لاذع، يمتلك سطوة المزاح بأدوات فن صعب لا أتمحله إلا من الذين يعرفون دروبه ومسالكه، فيتحركون بشقاوة وحكمة، ورشاقة وثقة. حواة بلا احتيال، يوقظون الشغف ويكتبون المرفوض لديّ فأسماعهم لبلوغهم براعة التوظيف. هذه "الحالة المستعصية" قدمها سعيد سالم بسلسلة روايات الهلال أغسطس ٢٠٠٢. حققت حضورها في إحساسي، وكلما عبرت بخاطري ترسم على وجهي الابتسامة المخضلة بالحزن والمحن. بطلها المتكلم بالتداعيات، يطارده آخر بمكالمات هاتفية يسبه ويشتمه ويكيل له الاتهامات. ونظل معه نتساءل: مَنْ يكون هذا المطارد-بكسر الراء-العنيد حتى يكتشف المفاجأة ونعرف منه أنه هو في حالة مونولوج منقلب على نفسه هو المطارد-بفتح الراء-وهو المطارد-بكسر الراء-قلت لكي أريح نفسي: هو "ذات" تحاسبها نفسه اللوامة، بعد أن سجلت عليه الخطايا والكذبات وادعاء التقوى والاستقامة المزيفة.. لا خوف إذن. ما دامت

هناك نفس لوامة، فهناك طوق نجاة، ومن ثم فالحالة ليست مستعصية.
أبدًا ليست مستعصية.

مجلة المصور عدد ٢٢ / ٧ / ٢٠٠٥.

• الدكتور هشام صادق: (دوائر الهوان في رواية الشيء الآخر)

لم يكن غريباً أن يعترف منصور عبد الرازق بطل رواية الشيء الآخر بسلبيته ووقوفه موقف المتفرج على ما يدور حوله من تراجع قومي واحتلال أجنبي جديد لوطنه الذي سيطرت عليه الإدارة الأمريكية من الخارج وقوى الفساد والتخلف من الداخل، حتى نجحت في الإمساك بمقدراته الاقتصادية إلى حد بات يهدد وجود الطبقة الوسطى التي أصبحت قاب قوسين أو أدنى من الانضمام إلى الغالبية التي تعيش تحت خط الفقر. وإذا كانت رائحة الفساد قد أركمت الأنوف في قضايا نواب القروض وغيرهم، فإن المؤسسات العلمية والجامعات قد شاركت في زفة النفاق، حتى أن رئيس جامعة عريقة قد بدأ مهام وظيفته بترشيح رئيس الوزراء للحصول على أكبر جائزة تقديرية في البلاد، وذلك "بعد أن ترسخ في ضمير سيادته النقي أن هذا الرجل هو أبداع المبدعين في مصر" .. جريدة العربي الناصري ٦/٦/٢٠٠٤.

• الدكتور حامد أبو أحمد: (الشيء الآخر)

رواية فريدة في هذا الجنس الأدبي كلها تبحث في سؤال كيف يكون الإنسان مهزوماً وعاجزاً لدرجة أن يبلغ به الأمر التوحد مع العجز، أو

أن يتحول العجز إلى حالة وجودية: "أنت مجرد مصادفة أكثر من كونك فكرة حقيقية شئت ذلك أو لم تشأ، فوجودك كان قهراً في جميع الأحوال لأنك لم تمتلك حق العدم". يحدثنا البطل العاجز المهزوم أن "ارتخاءه لصيق الصلة بالارتخاء الذي أصاب الدولة علي يد المتحكمين في مقاليد أمورها، الذين لا يزيد عددهم في أعلى تقدير عن أربعين شخصاً يهيمنون على مقاعد السياسة والاقتصاد، الذين لم يتغيروا منذ عشرات السنين ولم يغيروا في واقعي المتردي شيئاً بالإيجاب، وكأن المقاعد التي يجلسون عليها عاشقة للغباء والفشل والعفن". .. لقد حاول سعيد سالم في روايته الجميلة أن يمزج بين الواقعي والسحري ليقدم لنا صورة عما يدور في بلادنا خلال هذه الأيام. وإضافة إلى استخدام بعض عناصر الواقع السحري، وهي ذات تقنيات خاصة، نجده قد لجأ إلى استخدام تقنيات حديثة أخرى جعلت روايته تنطوي على نوع من الخصوصية التي تميزه بين أقرانه من كتاب الرواية. إن هذه الرواية تجمع بين التوصيف والتحذير والبحث عن حلول في زمن استنام فيه الكتاب للراحة، وتعايشوا مع الأوضاع السائدة، ومن هنا يصبح صوت مثل صوت سعيد سالم ضرورياً ولازماً لمواجهة الأوضاع المتردية.

جريدة القاهرة ٣١ / ٨ / ٢٠٠٤.

• الدكتور محمود إسماعيل: (الشيء الآخر)

مؤلف الرواية أديب متمرس، ومبدع متميز في أجناس أدبية متنوعة، فقد أنجز اثنتي عشرة رواية وتسع مجموعات قصصية

ومسرحيتين، فضلاً عن عشرات المسلسلات الدرامية الإذاعية، كما أسهم في حقل النقد الأدبي.. حيث نشر الكثير من المقالات والمتابعات النقدية في العديد من الصحف والمجلات المصرية والعربية.. وتتمحور هذه الرواية حول موضوع محدد: هو أزمة المثقف الملتزم في مجتمع فاسد، ويرجع هذا الفساد إلى طبيعة النظام الأوتوقراطي العسكري المتسلط، ولا غرو، فالعداء بين المثقف والسلطة عداء تاريخي، فالسيف والقلم لا يجتمعان. السلطة تنشئ تكريس الوضع القائم والمثقف الملتزم ينشد التغيير. وبديهي أن تُفضي تلك المعادلة إلى الصدام بين الخصمين اللدودين، ومن ثم يكون المثقف أكثر من غيره مستهدفاً من قبل السلطة الغاشمة، فتصادر على فكره وتطارده وتحاصره حتى يصبح أسير الدفاع عن وجوده.. ذاك هو مصير منصور عبد الرازق كما صورته سعيد سالم ببراعة، إذ تتمحور أحداث الرواية حول "عجزه" وهو عجز تمثّل في "إخصائه" سياسياً وعضوياً، فقد توازنه واختل عقله ودمرت كينونته، والأخطر ما يُفضي إليه ذلك العجز من تداعيات على المستوى الفردي والأسري، وعلى الصعيد العام..

جريدة القاهرة ١٣ / ٩ / ٢٠٠٥.

مواقف

بقلم: أنيس منصور

الاهرام ١٤/٥/٢٠١١

في خمسينيات القرن الماضي انتشرت في أوروبا مدارس في القصة القصيرة.. اختلاط بين القصص الواقعية واللاواقعية. وكلاهما تهرب من أن يكون لها لون أو اسم أو مدرسة. وقد بالغ الأدباء في الاختلاف. حتى وجد الأدباء أنه ليس من الضروري أن يدخل أي مدرسة.

وظهرت في القصص العربية نماذج منها. وهذا يحدث كثيراً ولكن القليل منها جيد. حتى أستاذنا توفيق الحكيم أشار إلى ذلك في روايته هي التي ظهرت في الأدب اليوناني.

وظهرت أسماء كثيرة من الأدباء الجدد. ومن بين الأدب المصري قصة هوى الخمسين للأديب سعيد سالم. وهذه القصة قد ظهرت سنة ١٩٨٢، وهي مفاجأة، فلم أتصور أن أديباً مصرياً يلاحق الأدب الحديث جداً في فرنسا. وأنت في هذه القصة - لا أنت في قصة ولا أنت على وعد بقصة، وخيالها لمحات جميلة. بعض هذه اللوحات مضيئة.. ولمحات من الوجود والزمن ولدى المؤلف إحساس عميق بمعاني الزمان والزمن والوجود والحياة والموت. وهي تعدّ خليطاً من مدرسة دريرا بالفرنسية واللوحات الوجودية. ولكنه لا يبقى طويلاً في أي اتجاه. وإنما بعض الزمن وفجأة ساعده الشعور بالموت، فهذا الشعور بالموت سار بلا واقعية.. وفي الوقت نفسه يستوقفه الشعور بالفناء.

وإذا طلب منك أحد أن تلخص هذه القصة فإنك لا تستطيع لأنها ليست قصة.. وإنما هي وعد بقصة فكرة الوجود والعدم، فكأنك قد دخلت في الطرق الدقيقة في المدرسة الوجودية.. ولا يبقى إلا بعض الوقت، حتى لا تكون قصة، وإنما أن تكون على عجل.. كأنه مفروض عليك أن تكون سريعاً. لعلك أن تكون على موعد في قصة أخرى.

صحيح أنها ليست قصة وإنما هي حالة من (السببى) فليس من أهداف القصة أن تريحك، وإنما تقول وتجري وتظل تجري!

amansour@ahram.org.eg

ثالثاً: بعض الآراء الخاصة للكاتب

• رؤيتي لماهية الفن:

من خلال ٢٤ عملاً هي حصيلة إنجازي الأدبي حتى الآن: أربع عشرة رواية وتسع مجموعات قصصية، أستطيع أن أصرح باعتقادي في صحة المقولة المعروفة أن "الفن إمتاع وتنوير"، وأنه إن لم يحقق الهدفين معا هبطت قيمته. إنى أرى في الفن سبيلاً راقياً لتحقيق التصالح والتناغم بين الإنسان ونفسه من جهة، وبينه وبين الحياة والكون وخالقه.. من جهة أخرى انى أرى في الفن خلاصاً شجياً يصل الإنسان بالأرض والسماء في حب لا حدود له ولقد وجدت في فن الإبداع الروائي والقصصي ضالتي التي تحقق لي كل تلك الغايات مجتمعة.

لماذا أكتب؟

أكتب لأنني مدفوع إلى ذلك الفعل الذي يكاد يكون غريزياً، والذي أسميه أحياناً بشهوة الإبداع، ولأنني لو لم أمارس هذا الفعل الفطري التلقائي فإنني أختل من داخلي وتتعاكس ملكاتي وتضطرب نفسي ويدهمني اكتئاب لا تنقطع موجاته المتعاقبة لكنني في الوقت ذاته أشعر بثقة شديدة أنني أؤدي رسالة لا مبرر لوجودي على قيد الحياة ما لم أجتهد في توصيلها لعشيرتي في الإنسانية، وأنا لست أجهل أن توصيل الرسالة من الكاتب للآخرين مرتبط بأسباب أخرى خارجة عن إرادته، كالنشر والنقد والجمهور القارئ... تلك الأسباب التي تبدو - في حالتي على الأقل - متعثرة إلى حد كبير، حتى أن بعض أعمالي تنشر بعد مرور عشرة سنوات على كتابتها أو يزيد مثل رواية الفلوس إلا أنني حين أكتب لا أعبأ بسبب واحد من هذه الأسباب، وإني لأشكر الله كثيراً على أن هداني لذلك بعد أن حباني بالموهبة.

لمن أكتب؟

من المؤكد حسبما تشير الإحصاءات أننا شعب غير قارئ، ومن ثم فأنا أكتب إلى فئة محدودة جداً من مجتمعنا العربي الكبير - على عكس الحال حين أكتب التمثيليات الدرامية بالعامية المصرية - لكنني أظن أن تأثير الفن في دائرة محدودة من البشر يمكن أن يتسع في دوائر أخرى أكثر امتداداً مع الزمن غير المرتبط بعمر الفنان، بحيث يأتي تأثيره تراكمياً لا وقتياً. ليست تلك ذريعة للاستمرار في الكتابة بلا أمل، وإنما

هي نظرة واقعية قائمة على تأمل عميق في فلسفة أن يُمضي إنسان عمره في تأدية عمل لا يستطيع ولا يأمل أن يقطف ثمرته على الفور، وليس المقصود بالثمرة نفع شخصي بقدر ما هو مقصود توصيل الرسالة المشار إليها، فهذا هو النفع الأكبر والمتعة المشتهاة.

كيف، وفيم أكتب؟

إن ميلاد العمل الأدبي عندي يقوم بالدرجة الأولى على انشغالي المورق بقضية إنسانية ما، تسيطر على مشاعري وأحاسيسي وتدفعني إلى البدء في الكتابة دفعا لا سبيل إلى مقاومته ولا يعني ذلك أن الدافع الأول عندي هو الفكرة المجردة "كالسعادة والحرية والعدالة"، بل هو الإحساس المصاحب لهذه الفكرة والمتوحد معها، وأضرب على ذلك مثالين: الأول هو الذي حركني لكتابة روايتي الرابعة التي تتعرض للعلاقة بين الفن والدين (آلهة من طين) كمرحلة أولى، ثم روايتي العاشرة (حالة مستعصية) كمرحلة تالية.. كان الدافع هو إحساسي بأننا كمصريين وعرب، سواء على مستوى الأفراد أو المجتمعات نعاني انقصا فكرياً مقيتاً بين ثنائيات يظنُّ الكثيرون أنها متناقضة، إذ يختلط فيها المطلق بالنسبي سواء عن غير قصد أو لقصد مشبوه، مثل الأصولية والبرالية، أو الأصالة والمعاصرة أو التراث والحداثة، أو الدين والدولة ... وغيرها من ثنائيات تشتعل بينها المعارك علي جبهتين تعتقد كل منهما أنها صاحبة الحل الأفضل أو الأوحد، بينما يتغافل الجميع عن فكرة إيجاد حلول تكاملية لا تفاضلية ولا تلفيقية، تشفي الأفراد والجماعات

من ذلك الانفصام الذي يؤدي بقراراتنا ومواقفنا الحياتية إلى أن تكون مجرد ردود أفعال لما يحدث في الدنيا دون مبادرات إيجابية أصيلة من جانبنا.. أما المثال الثاني فهو الدافع الذي قادني إلى كتابة رواياتي الثلاث الأولى - جلامبو، بوابة مورو، عمالقة أكتوبر - كان الدافع هو إحساسي القوي بفكرة الانتماء بمعناها الشمولي أولاً ثم الوطني ثانياً. إنني أظن أن الانتماء هو عقد مواطنة مكتوب بين الوطن والمواطن وموقع من كليهما، فإذا غاب توقيع أحد الطرفين أصبح العقد باطلاً، وهذا يفسر ما يحدث لشبابنا الذين يكتشفون أن عقودهم الانتائية موقعة من طرفهم فقط، فإما يلجؤون إلى الاغتراب خارج الوطن للبحث عن الحلم الأمريكي وخلافه، أو الاغتراب داخل الوطن سواء بالانحراف أو التطرف، كما أن البعض منهم وهو الأكثر حساسية وانطوائية قد يلجأ إلى الاغتراب الداخلي فتدهسه الأمراض النفسية والعصبية، بينما هو باقٍ بجسده داخل وطنه من هنا كان بطل "جلامبو" لا متممياً، وبطل "بوابة مورو" ذا انتماء سلبي، أما بطل "عمالقة أكتوبر" فكان ذا انتماء إيجابي، لكن الكثير من السلبيات والمعوقات حالت دون تحقيق انتمائه.. وفي النهاية فإنني أستطيع استخلاص آراء النقاد حول معظم كتاباتي في أنها كتابات أشبه ما تكون بالكوميديا السوداء التي تميل إلى التفلسف الساخر وتتخذ من الطابع غير التقليدي أسلوباً لها، إذ يمتزج فيها السرد بالمونولوج الداخلي بالحوار المسرحي والسيناريو السينمائي والخطابات وتيار اللاوعي، دون التخلي عن فكرة "الحدوتة" سواء باللجوء إلى الواقعية أو الفانتازيا أو إلى المزج بينهما، ويشير بعض النقاد

إلى تصاعد الحس الصوفي في لغة أعماله الأخيرة مثل الكيلو ١٠١ الوجه والقناع وكف مريم.

رؤيتي لقضية الشكل والمضمون

يرى البعض أن الشكل هو الوعاء الفني الذي يصب المضمون بداخله. أما أنا فأنضمُّ إلى هؤلاء الذين لا ينظرون بصورة منفصلة للشكل عن المضمون، إذ إنني أرى فيهما مصهورًا متجانسًا أذابه الصدق الفني. ويمكنني إيضاح ذلك بطريقة اجتماعية مرة وبطريقة كيميائية - بحكم مهنتي - مرة أخرى. فأما التفسير الاجتماعي فهو يشبه زواج - رجل بامرأة على أن يكون الصدق الفني هو المأذون الذي يعقد عليهما.. وأما التفسير الكيميائي فهو أن المصهور أو المزيج يصعب فصله إلى مكوناته، على عكس الخليط الذي يمكن فصله إلى العنصرين المكونين له.

قضية الفصحى والعامية:

معنى القصة العربية أنها نوع من فنون الأدب المكتوبة باللغة العربية، واللغة في ذاتها هي إحدى مكونات الجمال الفني في القصة، وهي أحد العناصر الأساسية في إنشاء القانون الفني المختص بذات القصة والنابع من جوهرها وشكلها. فإذا ما خلطنا العامية بالفصحى في عمل قصصي فإننا نكون كمن أصدر قانونًا ثم قام بالخروج عليه، هذا من حيث المبدأ، أما من حيث النتيجة فإن الخروج عن القانون - مثلما يشكل جريمة في عرف المجتمع - يشكل في عرف الفن جريمة

أيضاً، وأقصد بذلك جريمة القبح والتشويه وعدم التجانس والنزول بالفن إلى درجة سفلى.

وإني أتفق مع توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وغيرهما من الكتاب المعاصرين الذين انتهوا من هذه المشكلة بنجاح فيما يسمى باللغة الثالثة التي تستخدم في الحوار فقط، وهي لغة ذات جرس أو رنين أو إحساس عامي لكنها فصحة في الأصل، أما السرد فيظل على عرشه الجدير به، إذ إن الحوار وحده هو الذي يتعرض للتعبير عن متحاورين تتفاوت مستوياتهم الثقافية والمعرفية والتعبيرية.

رابعاً : مساهماته الإبداعية في الأنشطة الثقافية والفكرية المختلفة

سعيد سالم كاتب دؤوب يتمتع بقدرة غير عادية على الصبر والانتظار مع مداومة الإصرار على الفعل دون أن يستسلم لليأس، فمعظم رواياته لم تنشر إلا بعد كتابتها بسنوات عديدة بلغت أحياناً عشر سنوات (رواية الفلوس)، وزادت عن ذلك أحياناً أخرى (رواية حالة مستعصية)، ورغم ذلك فهو يقتحم مجالات عديدة يعبر فيها عن فكره ويطرحه بصور متنوعة كالمقالات والمسلسلات الدرامية والندوات والأحاديث الصحافية والإذاعية، متحدياً بذلك كل الظروف التي كان من الممكن أن تدفع به إلى اليأس والتوقف عن الإبداع. لذلك نجده يصرح في شهادته المشار إليها في مجلة فصول- خريف ١٩٩٢ - قائلاً: "إن عملية قتل الإبداع لا تحدث إلا من داخل المبدع نفسه، فالعوامل الخارجية مهما تكن قوتها يستعصي عليها أن

تقضي على الإبداع، بل إنها ربما تستثيره في حدود معينة، وهي قد تعوق المسيرة الإبداعية حيناً أو آخر طبقاً لنوعها وأثرها لكن المبدع لا يقتله أحد إلا نفسه.

إن سيكولوجية الإبداع مسألة معقدة للغاية ولا يمكن أن تخضع لقواعد معروفة أو ثابتة، إذ إنها تختلف من كاتب إلى آخر، بل إنها تختلف عند الكاتب الواحد نفسه من حين إلى آخر... إن حالتي المزاجية المتقلبة بشدة ترتبط بالإبداع إلى حد كبير، ولا شك أن هذه الحالة تأخذ طابعاً خاصاً حين يغزو العراق الكويت، وحين تدمر أمريكا الشعب العراقي على مسمع ومرأى من العرب تحت راية الأمم المتحدة، وحين أقع في حب جديد، وحين يتضاعف سعر رغيف الخبز في بلادي، وحين يقتل الشعب اللبناني نفسه، وحين يتصدى أطفال فلسطين للمجزرات الصهيونية بالحجارة، وحين تحاصرني مكبرات الصوت المحيطة بمنزلي تنادي بعضها على بضاعة للبيع، وتذيع بعضها القرآن عزاء لفقيد، وتذيع الأخرى حفل زفاف همجياً".

ونخلص مما ذكره سعيد سالم إلى أن هدفه الأساسي الملح من رحلته الإبداعية هو توصيل فكره إلى الناس بأي صورة، فإن واجه صعوبات كالنشر ومتطلبات الحياة اليومية وضغوطها والبعد عن العاصمة وقيود العمل والسكن، فإنه لا ينصرف إلى الشكوى والتذمر، بل ينطلق إلى تنويع أدوات توصيل فكره ورسالته قدر المستطاع. ويمكن الاستدلال على ذلك من خلال مساهماته الآتية:

- ١- إلقاء المحاضرات حول قضايا الفكر والفن والمجتمع في العديد من المتدييات الأدبية مثل قصور الثقافة والروتاري وبعض المراكز الثقافية الأجنبية وأتيليه الكتاب والفنانين وبعض البرامج الاذاعية مثل برنامج مجلة الإسكندرية ويوميات سكندرية.
- ٢- المشاركة في التجمعات الأدبية ومعارض الكتاب خارج مصر والتصدي لمناقشة القضايا الثقافية الوطنية والقومية من خلال الحوار مع المثقفين في سورية والعراق والأردن وأمريكا والسويد.
- ٣- إعداد برنامج درامي أسبوعي بإذاعة الإسكندرية بعنوان "عالم القصة" يتم فيه تناول الأعمال القصصية للأدباء الجدد للتعريف بإنتاجهم ودفعهم إلى دائرة الضوء الجماهيرية.
- ٤- مخاطبة الجماهير فنياً من خلال تقديم عشرات المسلسلات الدرامية الشهيرة والمسهرات والتمثيليات القصيرة بإذاعتي القاهرة والإسكندرية.
- ٥- المشاركة في بعض البرامج الثقافية التلفزيونية كالأمسية الثقافية بالقناة الأولى وكاميرا ٩ بالقناة الثانية ومساء الخير والصالون الأدبي وحياتنا وفي سهرتنا نجم بالقناة الخامسة.
- ٦- عقد ندوات دورية بنادي سموحة الاجتماعي الرياضي لمناقشة الأعمال الأدبية والفنية المختلفة وتشجيع البراعم الجديدة بدفع إنتاجهم للنشر.

٧- المشاركة في عضوية لجنة النصوص الدرامية بالإدارة المركزية لإذاعة وتلفزيون الإسكندرية لاختيار الأعمال الدرامية الصالحة التي تقدم فنًا راقياً دون المساس بالقيم والمقدسات والأعراف.

٨- المساهمة في رفع الكفاءة الإنتاجية للعمال وتقليل عوادم الإنتاج والمحافظة على جودته وعلى نظافة البيئة من خلال تقديم أعمال درامية قصيرة لبرنامج مع العمال، وذلك بحكم خبرته المهنية الطويلة في هذا المجال.

٩- عقد صالون أدبي غير دوري بالمنزل للالتقاء بالكتاب والشعراء والأدباء والفنانين.

١٠- المساهمة في الندوات الأدبية التي تُعقد بالمراكز الثقافية المختلفة خارج الإسكندرية مثل الفيوم والوادي الجديد والبحيرة والإسماعيلية والسويس.

١١- طرح القضايا الثقافية العامة ومناقشتها من خلال كتابة المقال الساخر في بعض الجرائد والمجلات مثل أخبار الأدب وأخبار اليوم والإسكندرية وهنا الإسكندرية وجريدة الدستور.